سلسلة من الأدب العالمي للشباب

# سقوط الباستيل

# The Fall of Bastille

ألكسندر ديماس (الأب)

إعداد وتقديم

وفيق صفوت مختار

دار الطلائع

ديماس ؛ ألكسندر ، ١٨٠٢ - ١٨٧٠
سقوط الباستيل : The Fall of Bastille /
رواية تاريخية - ألكسندر ديماس (الأب) ؛ اعداد وتقديم وفيق صفوت مختار
القاهرة: دار الطلائع للنشرو التوزيع ، ٢٠٢٠.
٢٧٢ ؛٢٠سم
سلسلة من الأدب العالمي للشباب
تدمك: ٢ ٩٠٦ ٢٧٧ ٩٧٧ ٩٧٨
١ - القصص الفرنسية
أ - مختار ، وفيق صفوت (معد ومقدم)
ب - العنوان
٨٤٣

رقم الإيداع: ٢٠٢٠/١٠٨٥٣
الترقيم الدولي: 2 - 906 - 277 - 977 - 978

تصميم الغلاف الفنان: زكريا عبدالعال

• جميع الحقوق محفوظة للناشر•

يحظر طبع أو نقل أو ترجمة أو اقتباس أي جزء من هذا الكتاب دون إذن كتابي سابق من الناشر، وأية استفسارات تطلب على عنوان الناشر.

٣٢ شارع أحمد فخـــري
- مدينة نصر - القاهرة
تليفون: ٢٣٥٤٦٣٩٢ (٢٠٢ +)
فاكس: ٢٣٥٤٦٣٩٣ (٢٠٢ +)

# مقدمة

هذا هو الإصدار الحادي عشر من سلسلة الأدب العالميّ للشباب، والذي نُقدِّمه ونحن علي ثقةٍ بأنَّه سيكون بإذن الله تعالي عملاً متميزاً وفريداً في دقة اختياره، وطريقة عرضه.

لقد قمتُ بالاطلاع علي أغلب الإصدارات العربيَّة التي تناولت رواية « سقوط الباستيل» للروائي والكاتب الفرنسي الكبير «ألكسندر ديماس» بالترجمة، كي يتسنى تقديم الأجمل والأحق بالقراءة الممتعة الشيقة. ولقد كانت الترجمات التي تمكنت من العثور عليها قليلة بعض الشيء ، وكانت ترجمات تتسم ببعض الصعوبة في كلماتها أو عباراتها.

وكما هو مُعتاد في منهجنا الذي قد ارتضيناه منذ البداية فقد تخلصت من الأحداث الغارقة في التفاصيل التي قد لا تخدم العمل الذي نُقدِّمه. كما حاولت الابتعاد عن الكلمات الصَّعبة والعبارات الغامضة التي جاءت في بعض الترجمات. كما حاولت أن أُقدم بعض الهوامش لتوضيح ما قد يصعب فهمه علي القارئ، من مصطلحات أو مفاهيم تضمنتها الرواية.

وبعد هذه المُعالجات الفنيَّة والدراميَّة للرواية أري أنَّها أصبحت مُعدة للقراءة السهلة اليسيرة، في عدد صفحات ملائم للغاية، دون أن يؤدي الاختصار إلي أي خللٍ في مسار الأحداث، أو بنيتها الدرامية.

حافظت بالطبع علي ما جاء في النَّص الأصلي للرواية الذي كان مصدري الرئيس في تقديم هذا العمل، والابتعاد تماماً عن النّصوص التي جاءت منسوخة بشيءٍ من الاختصارات المُخلة إخلالاً أضر بالعمل الأصلي للرواية.

وبهذا أكون قد انتهجت الفلسفة التي نتبناها في دار الطلائع للطبع والنشر والتوزيع بقيادة الكاتب والناشر الصديق « عبد اللطيف عاشور «، التي تُحتم علينا تقديم تلك الأعمال العالميَّة الفريدة علي أعلي مستوي من الكفاءة، والأمانة، والمصداقية، والشفافية، مع العرض الشيق الرشيق للأحداث، وكذلك الحفاظ علي المضمون الأصلي للرواية شكلاً ومضموناً، وفقاً للترجمات الأكثر رصانة ومصداقية.

كما أود أن أُنوِّه بأنَّ كافة العناوين الرئيسة لفصول الرواية قد تمَّ وضعها بمعرفتي الشخصيَّة، وذلك لخلق نوع من الجاذبية والإثارة التي لابدَّ منها.

وكما هو معتاد مع سائر الروايات التي صدرت من قبل فإنَّني أُقدِّم تمهيد يسبق فصول الرواية وأحداثها للكاتب أو الكاتبة أحاول فيه أن أسرد السيرة الذاتية من جهةٍ، والسيرة الأدبية من جهةٍ ثانية، مع تدعيمها بالصور التي تخدم الموضوع بما يُحقِّق للقُرَّاء متعة إضافية.

خالص الأمنيات بقراءةٍ ممتعةٍ شيقةٍ.

**وفيق صفوت مختار**

**القاهرة،في نوفمبر 2018**

# تمهيد

دراسة المعد عن ألكسندر ديماس الأب

يُعد «ألكسندر ديماس الأب» أحد أهم الكُتّاب الفرنسيين شهرة على الإطلاق. وقد تمَّ نشر العديد من رواياته التي تتميَّز بحس المغامرة على شكل مسلسلات أدبيَّة في البداية، بما في ذلك رواياته: « الكونت دي مونت كريستو»، و«الفرسان الثلاثة»، و«بعد عشرين عاماً»، و«الفيكونت براجيلون».

كما تمَّ تمثيل رواياته منذ أوائل القرن العشرين فيما يُقارب(200) فيلماً. وترجمت أعماله إلى (100) لغة تقريباً، ليصبح واحد من المؤلّفين الفرنسيين الأكثر قراءة على نطاق واسع في جميع أنحاء العالم. كذلك قام بتأليف العديد من كتب الأسفار والرحلات، ومئات المقالات. وممَّا يُذكر عن الكاتب أنَّه عندما مَثل أمام الإمبراطور "نابليون الثالث" 1808- 1873(Napoléon III) راح يتباهي بأن إنتاجه من القصَّص قد زاد عن ألف ومئتي قصَّة.

وُلد " ديماس ديفي دي لاباليتيري" Dumas Davy de la Pailleterie ( المعروف لاحقاً باسم ألكسندر ديماس الأب ) Alexandre Dumas père، في24 يوليو1802، بمدينة "فيليه كوتريه " Villers - Cotterêts بمقاطعة "أيسن" Aisne الفرنسية.

كان لديه أختان أكبر سناً، «ماري ألكسندر» **Marie-Alexandrine**، و«لويز ألكسندر» **Louise-Alexandrine** .

**ألكسندر ديماس في شبابه**

والده هو الجنرال " توماس ألكسندر ديفي دي لاباليتيري " الذي وُلد في مستعمرة " سان دومينجو" **Saint-Domingue** الفرنسية، ( هايتي الآن **Haiti** ) لأبٍ فرنسي نبيل، وأم من الرقيق ذات أصول أفريقية تُدعى " ماري سيسيتي ديماس ". أمَّا والدته فتدعي " ماري لويز إليزابيث لابوريت" **Marie-Louise Élisabeth Labouret** ، ابنة أحد النبلاء.

كان " ألكسندر" منذ طفولته الأولي أشبه بالفرسان الثلاثة، محارباً متهوراً يقاوم صعاباً في غاية المشقة، فقد انحدر من عائلة من المغامرين والمحاربين. حيث لبي جده لأبيه «ديفي دي لاباليتيري» نداء الدَّم فأبحر من نورماندي إلي جزيرة «سان دومينجو»، وعاش فيها حياة الأباطرة، يحوطه رجال أقوياء من الأرقاء السود، وقد وُلدت له «ماري سيسيتي ديماس»، أبناً أسود، أسماه «توماس ألكسندر»، وقد ورث هذا الابن هذا عنفوان أبيه وقوته.

وذات يوم قال له ابنه:

ـ أُريد أن أتطوَّع في الجيش.

فقال له والده :

ـ لا بأس.. لكن يجب أن تتطوَّع باسم أمّك، فإنَّه ليشقيني أن يحمل جندي أسود اسمي .

وهكذا انضم "توماس ألكسندر" إلي الجيش الفرنسي عام1793 باسم " ديماس". وما هي إلَّا سبع سنين حتى رقي إلي رتبة القائد. يا له من رجل محارب ظريف عجيب شجاع. ذلك الارستقراطي الأسود ذو البشرة السوداء والشعر الكستنائي، لقد هاجم الأعداء ( البرانس )، وأخذ ألفي أسير، ودافع وحده فصيلة نمساوية عن إحدى القناطر، وكان دائماً يحارب في مقدمة رجاله.. ولقد أغشي عليه مرَّة بعد معركة فأشرف علي الموت، فسأله مساعده حين فتح عينيه: ـ هل جُرحت أيها القائد ؟

فأجابه :

ـ كلا..ولكني قتلت كثيرين جدًّا.

ديماس وقد قرر أن يحارب الأشرار

كان يُحارب تحت إمرة «نابليون بونابرت» Napoléon Bonaparte (1769- 1821) بوصفه جمهورياً متوقداً، وظل كذلك حين نصَّب «نابليون» نفسه ديكتاتوراً.. فطُرد من الجيش مجللاً بالاهانة والتحقير. وفي هذه الأثناء كان قد تزوج وأنجب طفلاً قويًّا كأنَّه رجل، وزنه تسعة أرطال وطوله ثماني عشر بوصة. وقد وُلد الطفل أبيض اللَّون. وكما قالت أُمّه: " له بشرة متوردة وشعر فاتح اللَّون، وعينان زرقاوان، ولم يبق من آثار أصله الأسود غير غلظة الشفتين، فسموا هذا الطفل " ألكسندر".

وقد شبّ الطفل منذ طفولته الأولي قويًّا في جسمه وعقله وروحه الثائرة.. فهو الذي قال وما زال صغيراً: «إنَّ الرَّجل الشرير نابليون قد لطخ أبي بالعار، فسأكرس حياتي كُلَّها لمحاربة الأشرار».

توفي والده متأثراً بمرض السرطان في سنة1806 عندما كان " ألكسندر" في الرابعة من عُمْره. ولم تتمكَّن والدته الأرملة «ماري لويز» من تحمُّل نفقات إعالة وتعليم ابنها، إلَّا أنَّ "ألكسندر" كان يقرأ كُلّ ما يقع بين يديه وعلَّم نفسه اللُّغة الإسبانية. حظيت الأسرة بسمعة الوالد المتميزة ورتبته الأرستقراطية بالرغم من حالتهم المادية الصَّعبة ممَّا ساهم في تقدّم " ألكسندر" في حياته.

حاولت أُمّه أن تجعل منه عالماً، لكنَّه كان يبغض التعليم، ثُمَّ حاولت أن تعلمه العزف علي القيثارة، لكنَّه كان يبغض الموسيقي. وأخيراً تحاول أن تُحبِّب إليه العمل بالكنيسة ولكنَّه كان يفر من بيته ويقيم بالغابات أياماً طويلة. فاستسلمت أُمّه لليأس: " إنه لا يقدر إلَّا علي شيءٍ واحد.. هو الكتابة بخطٍ جميل ، لكن.. أي معتوه لا يقدر علي ذلك ؟".

نابليون بونابرت

ولكن " ألكسندر" كان أبعد ما يكون عن العتة، فله عينان يقظتان، وعقل متفتح، وقلب يسع العالم كُلَّه حبًّا. وهو علي كراهيته لقراءة الكتب كان يتعلَّم في سرعة مطالعة الحوادث الجارية في صور بديعة شتي، وكانت أعظم الأحداث تجري في هذه الأيام الثائرة، ففي يونيو عام1815، رأي «ألكسندر» عربة تقتحم الشارع الرئيس في «فيليه كوتريه»، ولمح من وراء الستار هيكلاً لرجلٍ.. حازم.. مستقيم ذي عزيمة وإرادة، هو «نابليون» يسير عجلاً إلي «واترلو» Waterloo (هي قرية تقع قرب بروكسل عاصمة بلجيكا، وقعت فيها آخر معارك نابليون بونابرت حيث هُزم فيها هزيمة ساحقة).. وما هي إلَّا أيام قليلة، حتى رأي نفس العربة تقتحم الشارع في الاتجاه المضاد فرأي

وراء الستار، خيال الهيكل نفسه كسيراً غائصاً في وسادة، محطماً، هو «نابليون» قد فر من " واترلو".

وبعد هزيمة "نابليون بونابرت" حاولت أُمّه أن تستعيد ثروتها ومكانتها، فعرضت علي ابنها أن يختار بين أن يُدعي بذلك الاسم الارستقراطي القديم «دي لابالتيري»، أو أن يستبقي ذلك الاسم المغمور المتواضع " ديماس ". فأجاب الشاب الثائر: «سأظل ألكسندر ديماس».

لكن ماذا عسي «ألكسندر ديماس»، حفيد الرقيق الأسود، أن يفعل لكسب عيشه ؟ إنَّ في جودة خطه لجواب علي هذا السؤال، فاشتغل ناسخاً في مكتب المسيو «منسن» وهو مسجل صكوك حر المبادئ وصديق لأسرة «ديماس».

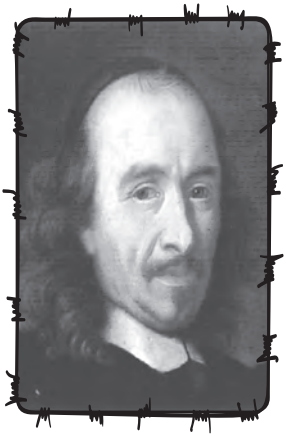

بيير كورني

وكان شاب السَّادسة عشرة ذو الساقين الطويلتين يقرأ في هذا المكتب أكثر ممَّا يكتب، وكان هذا يثير غضب «منسن»، فقد أتم قراءة «فولتير» (1694- 1778) Voltaire، وكثيرين غيره من الأدباء الذين أذكوا لهيب الثورة الفرنسية، لكنَّه كان في تلك الآونة بالذات، يشغله لهب من نوع آخر، فقد تكشفت له فجأة جاذبية قوامه الطويل الرشيق، وابتسامته الخلابة البيضاء، فشرع يغوي «أديل دولفين» Adèle Dauphin ، وهي شابة من فتيات الطريق، فلما نجحت مغامرته مع الشابة في يسر فائق، أخذ يقوي كفاءته تلك في كدٍ ومثابرةٍ، حتى غدا دنجوان «فيليه كوتريه».

ثُمَّ يستهويه مطمع جديد، فما دام القدر رشحه للمجد العالمي، فلماذا يضيع مواهبه في مدينة إقليمية صغيرة ؟ لماذا لا يذهب إلي باريس ؟

ولكن كيف ذلك ؟ إنَّ الرحلة إلي باريس لترفٍ لا يسمح به فقر أُمّه، وضحالة رزقه، لكن إرادة " ألكسندر" كانت لا تعرف اليأس فقد أجاد وبرع في ساعات فراغه لعب البلياردو وتحدي الجميع ذات مساء في الحانة أن ينازلوه.. وعاد إلي منزله وقد احتوت جيوبه ما يلزم من نفقة.

انتقل " ألكسندر" ذو العشرين عاماً إلى باريس عام سنة1822 بعد استعادة المَلكية. حيث حصل على منصب في القصر الملكي في مكتب «لويس فيليب» Louis-Philippe ، دوق أورليانز Orléans. ثُمَّ ولي وجهه شطر المسرح الفرنسي.. وحجرة استقبال ممثل المأساة الكبير «تالما».. إنَّه لا سبيل إلي إيقاف ذلك البصيص النوراني الذي تراءي في صورة الإنسان. فأعجب الممثل العجوز بروح الشاب المغامر:

ـ ما صناعتك أيها الرفيق ؟

ـ نساخ عند مسجل الصكوك يا سيدي لكني أود أن أصير أديباً.

ـ ولم لا تكون ؟ إنَّ "بيير كورني" (1606- 1684) Pierre Corneille الشاعر والمسرحي الفرنسي العظيم أيضاً قد بدأ حياته نساخاً لمسجل صكوك.

ـ شكرا يا سيِّدي..هلا باركتني لأصيب التوفيق ؟

ـ بكُلِّ سرور

ويضحك الممثل، ويقول وقد وضع يده علي جبين " ألكسندر" :

ـ هاأنذا أكرسك للشعر باسم «كورني»، و «وليم شكسبير» William Shakespeare، و«فريدريك شيلر» Friedrich Schiller

قال الممثل هذه الكلمات في روح أقرب إلي المزاح منها إلي الجد. لكن المسألة عند «ألكسندر ديماس» ليست مسألة مزاح، إنَّه شاعر يباركه «شكسبير»، و«كورني»، و«شيلر» !!

فقال في نفسه : «سأحقق هذه النبوءة ! سأحققها لـ «تالما» ولباقي الدنيا كُلَّها.. فهيا».

وذهب إلي منزله وجلس يحيل قصَّة «ايفانهو»، أو «الفارس الأسود» Ivanhoe، إلي تمثيلية، وهي رواية تاريخية من وحي الخيال للكاتب الكبير السير " والتر سكوت " (Walter Scott 1771- 1832)، صدرت في عام1819 ، الرواية كانت أوَّل محاولة منه لتناول التاريخ الإنجليزي، وبالرغم من أنها ليست أفضل ما كتب إلَّا أنَّها بلا ريب الرواية الشعبيَّة الأولى من أعماله.

ديماس.. الأديب الإنسان

لم يستطع " ألكسندر" أن يجد منتجاً لقصَّة " ايفانهو"، ولا لتمثيليته التالية، ولا للتي تلتها. لكنَّه ظل يأمل ويلهو بالنساء، ويولد له أبناء غير شرعيين، ويكتب التمثيليات والقصَّص ويحاول في إلحاح دائب ليفرض عبقريته علي عالم عنيد. وكُلَّما رفض منتج أو ناشر أن يقابله كان يكتفي بالابتسام للسكرتيرة قائلاً:" شكراً يا آنستي لست ممَّن تخور عزائمهم بسهولة سأمر ثانية".

وأخيراً سنحت له الفرصة بفضل إصراره وتفاؤله. فإن أحدي تمثيلياته وعنوانها " كرستيانا ملكة السويد" قد قبلت للتمثيل في المسرح الفرنسي واختير الممثلون، وبدأت التجارب، وتقرَّر النجاح للمؤلف الشاب. لكنَّه ألقي بالفرصة جانباً وقد فعل ذلك بدافع من كرم النفس، فإن مؤلفاً مسرحياً آخر.. رجل عجوز قضي طوال حياته يحاول الوصول إلي المسرح علي غير طائل قد أتمَّ الآن فقط فعل " ألكسندر ديماس".. تمثيلية عن ملكة السويد.

فقال "ديماس": فلنسمح للزميل العجوز بأن يجول جولته علي المسرح قبل أن يودع الأرض.

وسحب روايته في إيثارٍ وشهامةٍ ونبلٍ.

ثُمَّ شرع يكتب تمثيلية جديدة عنوانها: «هنري الثالث» وظفر لها بمنتج وجعل ينتظر علي أحر من الجمر حفل الافتتاح. وكانت ليلة 11 فبراير عام1828 فأخذ «ديماس» في ارتداء ملبسه استعداداً للمسرح. لقد أعد كُلّ ملابسه مقدماً.. «السرعة.. السرعة حذار من التأخر»، فلبس حذاءه وسرواله وقميصه.. وفجأة وجد أنَّه قد نسي شراء ربطة عنق فاستل مقصاً وقطع به ربطة عنق من الورق المقوي لف به عنقه، ثُمَّ هرع الفارس المورق إلي المسرح، ونظر من خلال ثقب في الستار،وقال هاتفاً: «إنَّ القاعة مزدحمة حتى الأبواب».

كانت الحفلة نصراً باهراً، واستحالت ضجة الاستحسان عند إسدال الستار إلي هذيان محموم حين ظهر المؤلّف، ورأسه مرفوع عالياً، حتى أن ناصيته غير الممشوطة كادت تشتعل من أنوار المسرح. ذلك هو الرقيق ذو الزيق الورقي قد أصبح الملك الجديد للمسرح الباريسي.

وأقبل «ألكسندر ديماس» علي مملكته كأنما قد وُلد للمُلْك، فهو يوزع الابتسامات ويتقبَّل التكريم، ويستنشق النجاح الحلو كما يستنشق نسيم الفجر. ويكتب تمثيليات جديدة ويحظي بانتصارات جديدة ويغزو معشوقات جديدة.

وفي عام 1846 ، قام ببناء منزل ريفي خارج باريس في «لو بورت مارلي»، مع مبنى إضافي لأستوديو الكتابة الخاص به.. كان في كثير من الأحيان مليء بالغرباء والمعارف الذين مكثوا في زيارات طويلة واستفادوا من كرمه. بعد سنتين، واجه صعوبات مالية، فباع كُلّ الممتلكات.

أحب «ألكسندر ديماس» المغامرات، وها هو يصير محارباً، فعندما أصدر

ملك فرنسا "شارل العاشر" (Charles X 1836 -1757) مرسوماً بخنق حرية الصحف فثار المثقفون الباريسيون علي المرسوم، انضم" ديماس" إلي الثورة، وفي هذه الثورة كان نصيبه من الصياح أكثر من نصيبه في الكفاح. وكان دوره في الحرب أشبه بدور الذبابة علي عجلة المركبة. ولكنَّه يحظي بأن يغرق وجهه في العرق البارد, يحظي بالنصيب الأوفى في التصفيق. قال له " لافييت" صائحاً وهو يعانقه: «مستر ديماس لقد ألفت أعظم رواياتك».

فشكر «ديماس» صديقه «لافييت» علي تحيته. وعرض عليه أن ينظم الفلاحين الفرنسيين، وقبل «لافييت» ما عرضه «ديماس». فازدان «ديماس» في ملابس صارخة الألوان، وحذاء لامع، وسروال في اللَّون الأزرق الملكي، وسترة قرمزية ذات أكتاف فضية، وخوذة لها ريش أحمر متموج، وشريط مثلث الألوان. ثُمَّ شرع يعمل مع مساعده وكان هذا المساعد مزوراً قد أنقذه من المشنقة. وخطب جماهير الفلاحين وأمتعهم، وفشل فشلاً أليماً في محاولة تنظيمهم.

لقد فشلت الثورة تماماً ولم ينجح الثوار إلَّا في إسقاط ملك سيئ وتتويج ملك أسوأ. فغادر «ديماس» فشله السياسي إلي نجاحه الأدبي.

في السَّادس من فبراير عام1832 ظهرت ممثلة موهوبة تدعي «إيدا فيرييه» Ida Ferrier ( اسمها الحقيقي مارغريت - جوزيفين فيرون -Marguerite Joséphine Ferrand 1859 -1811 ) في إحدى مسرحيات «ألكسندر ديماس»، وبعد التصفيق الذي أعقب إسدال الستار الأخير ألقت الممثلة بنفسها بين ذراعيه، وقالت:

ـ مسيو ديماس لقد خلقت شهرتي. كيف لي أن أرد جميلك يوماً ما ؟

فقال لها:

ـ ليس أسهل من ذلك.

وأرسل عليها ابتسامته التي لا تقاوم.

ألكسندر ديماس الابن

وظلت سنوات عدة ترد عليه جميله، ثُمَّ تزوجا في الأوَّل من فبراير 1840، الأمر الذي دُهش له الجميع، فأسلم " ألكسندر" نفسه لحياة منزلية، ورضي بالأغلال، لكن الأغلال كانت تتدلي علي ظهره، ولا تلجم قوته المتهورة. فكثيراً ما كان يترك لنفسه أن يعيش مغامراته خارج المنزل.. وكان يسمح لزوجته في سماحةٍ أن تبحث هي عن مغامراتها الشخصية في المنزل، إذ كان شعاره عش .. ودع غيرك يعش.

كان لديه العديد من العلاقات مع النساء الأخريات، وكان معروفاً أنَّه قد وُلد أربعة أطفال على الأقل من قبل زواجه، من بينهم ابنه غير الشرعي " ألكسندر ديماس الأبن " ( 1824 - 1895 ) ، ابن " ماري لور كاثرين لاباي " Marie-Laurent Catherine La Bay ( التي ولدت في عام 1794، وتوفيت في عام 1868)، وكانت تعمل في حياكة الملابس.

علي أنَّه في عام 1831 اعترف والده به قانونياً، وقام بالتأكُّد من توفير أفضل تعليم ممكن لأبنه الشاب في المؤسسات التعليمية العريقة. في ذلك الوقت كان القانون يسمح أن يحظى الأب بحضانة الابن، وبالتالي قام «ألكسندر» الأب بأخذ الابن من والدته. ولقد كان عذاب والدته مصدر إلهام لكاتبنا كي يكتب الشخصيات النسائية المأساوية. وقد أصبح الابن روائياً ناجحاً، فمن أشهر أعماله علي الروائية ذات الطابع الرومانسي «غادة الكاميليا» La Dame aux camélias التي نُشرت 1848 .

وفي عام1866 ، كان " ألكسندر ديماس" علي علاقة غرامية مع الممثلة الأمريكية

المعروفة " أده إيزاك منكين " Adah Isaacs Menken، التي كانت أقل من نصف عُمْره وفي أوج مسيرتها المهنية.

حتى آخر حياته ظل " ألكسندر ديماس "مستهتراً، ضاحكاً، مغامراً، ورغم تقدم سنه وثقل جسمه لكثرة ما أصاب من مائدة النجاح فقد ظل عقله هائجاً قلقاً علي عهده، فحيثما تنشب ثورة يقذف بنفسه وسط دوامتها، فقد استعد عام 1848 لأن يقود الحرس الوطني إلي باريس، ولكن الحرس الوطني رفض أن يتبعه.

وانضم عام 1859 إلي حركة السياسي الإيطالي «جوزيبي غاريبالدي» Giuseppe Garibaldi 1882 -1807، ولم يكتف بالمشاركة بثروته التي بلغت50 ألف فرنكاً، بل عرض أن يهب حياته نفسها دفاعاً عن الحُرِيَّة الايطالية، ووافق بعد أربع سنوات أن يتولي قيادة الثورة اليونانية ضد الأتراك، ولكن يتبيَّن له آن منظم الثورة رجل محتال !!

ويعود " ألكسندر " إلي باريس وهو في عامه الثالث والستين بعد أن زار ايطاليا للمساهمة في الثورة، فيقابله ابنه في المحطة في السَّاعة العاشرة ليلاً، ويقول له:

ـ لابد أنَّك مُتعب جدًّا بعد ما بذلت من جهدٍ يا أبي، فدعني آخذك إلي المنزل.

فصاح الأب :

ـ كلا أريد أن أري لاري جوتيير قبل أن آوي إلي فراشي.

واخذ ابنه عنوة إلي منزل صاحبه القديم. وكان المنزل موصداً حين بلغاه فأثار «ألكسندر» ضجة أيقظت " جوتيير" من نومه.

ـ ما الخبر؟

ـ أنا ديماس الأب، ومعي ديماس الأبن.

ـ لكنَّنا جميعاً في الفراش.

ـ ماذا ؟ في الفراش في تلك الساعة المبكرة اقبلوا أيها الكسالى تيقظوا جميعاً.

وكانت السَّاعة قد بلغت الرابعة صباحاً حين عاد الأب وابنه من منزل" جوتيير".

ثُمَّ قال " ألكسندر" الأب :

ـ الآن يا ألكسندر أريدك أن تأتي لي بمصباح.

ـ لماذا ؟

ـ لدي عمل أريد انجازه.

الرئيس الفرنسي جاك شيراك

ثُمَّ ترك الابن أباه أمام مكتبه وذهب لينام، فإذا صحا بعد الفجر بزمنٍ طويل وجد علي المكتب ثلاثة مقالات تامة مُعدة لثلاث مجلات، ووجد «ديماس» الأب يحلق ذقنه، ويغني أمام المرآة.

ـ كيف أنت يا أبي ؟

ـ غض منتعش يا بني، كأني اقحوانة ندية.

ثُمَّ يتبدي في عينيه بريق، وهو يقول:

ـ أترانا نحن الشباب يدركنا التَّعب في سهولةٍ كما يدرككم معشر الشيوخ !

لقد فرغ لتوه من غرامه الأخير مع الممثلة الأمريكية " أده إيزاك منكين "، وكان هذا الغرام عاصفة قصيرة سريعة انتهت بمأساة حيت ماتت الممثلة في سقوطها عن ظهر حصانها، فذهب "ألكسندر" إلي منزل ابنه.

ـ بني لقد أتيت لأموت.

ولم ينبس بعدها ببنت شفه.

فإذا هز أصحابه رءوسهم محزونين، وهم يقولون إنَّ «ألكسندر ديماس» قد اضمحل وانهار.

فيرد عليهم ابنه، بقوله:

ـ إنَّ عقلاً كعقل أبي لا يمكن أن يضمحل وينهار، ولئن رفض أن يحدثنا في لغتنا التي نعرفها ، فذلك لأنَّه أخذ يتفهم لغة الخلود.

وتوفي «ألكسندر ديماس» الأب في الخامس من ديسمبر 1870، عن عمر يناهز68 عاماً. وقد دُفن في مسقط رأسه «فيليه كوتريه».

وتكريماً للكاتب الكبير فقد أطلق اسمه في عام 1970 علي إحدى محطات المترو في باريس. كما تمَّ ترميم منزله خارج باريس، ليصبح متحفاً مفتوحاً للجمهور.

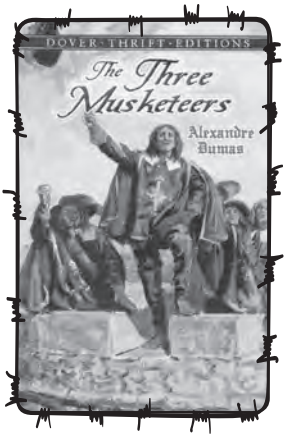

الفرسان الثلاثة

وقد تمَّ إقامة الذكرى المئوية الثانية لميلاد «ألكسندر ديماس» عام2002 ، كما أقام الرئيس الفرنسي «جاك شيراك» Jacques Chirac حفل تكريم للكاتب، وتمَّ نقل رفاته إلى ضريح مقبرة العظماء «البانثيون» Panthéon في باريس، حيث دُفِن العديد من الأعلام الفرنسيين. تمَّ بث الإجراءات على قنوات التلفزيون الفرنسي: حيث لُفّ النعش الجديد بقطعة قماش من المخمل الأزرق وحُمِل على عربة يحيط بها أربعة مشاة من قُوات الحرس الجمهوري مرتدين أزياء الفرسان الأربعة.

قال الرئيس" شيراك" في خطابه: " ألكسندر ديماس..معك كنا دارتنيان، ومونت

كريستو، وبالسامو، نجول في طرق فرنسا ونطوف ميادين المعارك ونزور القصور والحصون. معك.. استكشفنا، وفي أيدينا شعلة، دهاليز مظلمة وممرات سرية تحت الأرض.. معك راودتنا الأحلام.. معك ما زلنا نحلم".

اعترف " شيراك " بالعنصرية التي كانت موجودة في فرنسا، وقال إن المجيء بجثمان «ديماس» إلى "البانثيون" كان وسيلة لتصحيح ذلك الخطأ، حيث تمّ وضع جثمان "ديماس" جنباً إلى جنب مع زملائه من الكُتّاب الكبار مثل " فيكتور هوجو"، و" إميل زولا ".

وأشار «شيراك» أنَّه على الرغم من أنَّ فرنسا أنجبت كُتّاب كُثر، لم يكن لـ«ديماس» مثيلاً من حيث شعبيته. لقد تُرجمت رواياته إلى ما يقارب المئة لغة. بالإضافة إلى ذلك، قد ألهمت شخصياته في صناعة أكثر من200 فيلماً.

كتب «ألكسندر ديماس» العديد من القصَّص التاريخية التي تتميّز بالحس العالي للمغامرة، والتي نذكر منها:

الكونت دي مونت كريستو

- كابتن بول Le Capitaine Paul ، أوّل رواياته المسلسلة في عام1838 .
- أكتيون كورينث Acté of Corinth، أو تحوُّل القديس بولس The convert of St. Paul؛ عام 1839، وهي حكاية عن اليونان، وروما، والإمبراطور «نيرون» Nero 68 -37 والمسيحية في وقت مبكر.
- أوثون آرتشر Othon l'archer ، في عام 1840.

ـ كابتن بامفيلي Le Capitaine Pamphile ،في عام 1839 .

ـ سيّد المبارزة Le Maître d'armes ( بالإنجليزية: The Fencing Master)، في عام 1840، حيث تعاون " ديماس" مع " أوغسطين جريسير" Augustin Grisier في كتابتها, وهي تتناول أحداث ثورة هبت في روسيا، في النهاية تمّ حظر الرواية في روسيا من قِبل القيصر " نيكولاي الأوّل " 1796- 1855 Nikolai I، ومنع "ألكسندر ديماس" من زيارة البلاد حتى بعد وفاة القيصر.

ـ جورج Georges، في عام1843 ، وهي رواية قصيرة تدور أحداثها في "موريشيوس" الجزر التابعة آنذاك لفرنسا، تناول فيها الكاتب قضية العنصرية، في إشارة نادرة إلى جذوره الأفريقية.

ـ المتآمرون Le chevalier d'Harmental،( بالإنجليزية: The Conspirators) في عام 1843 ،كتبها " ديماس " بمساعدة" أوجست ماكيه" Auguste Maquet .

ـ كسّارة البندق Histoire d'un casse-noisette بالإنجليزية The Nutcracker: في عام 1844، وهي تنقيح لقصّة «أرنست هوفمان» Ernst 1776- 1822 Hoffmann،" كسّارة البندق وملك الفئران"، التي قام الموسيقار الروسي " بيتر إليتش تشايكوفسكي " 1840- 1893 Peter Ilich Tchaikovsky بتأليفها كموسيقى للباليه تسمّى أيضا بـ " كسّارة البندق" في عام 1892 .

ـ الفرسان الثلاثة Les Trois Mousquetaires (بالإنجليزية The Three Musketeers)، في عام1844 . نالت قصّة الفرسان الثلاثة وتتمتها بعد مرور عشرين سنة إعجاب الأدباء والقراء علي اختلاف أهوائهم ونزعاتهم.

وقد كتب الأديب الإنجليزي" ديكسون " Dixon عن الفرسان الثلاثة يقول: " إنَّ ديماس عندما كتب هذه القصّة، قد نقلها عن الحياة الواقعية التي عاشها الفارس دارتنيان في القرن السَّابع عشر، ولقد عرف كيف يسبغ عليها من مخيلته الخصبة

سلسلة من المغامرات وحوادث الفروسية التي خلقت من بطل القصَّة شخصية فذة خالدة في التاريخ».

وقد كتبها بالتعاون مع «أوجست ماكيه». وهي تسرد مغامرات شاب اسمه "دارتنيان"، وخلافاً لما يوحي به العنوان فإن " دارتنيان " ليس أحد الفرسان الثلاثة، بل هم في الحقيقة رفاقه، ويدعون: " آثوس "، و" بورثوس "، و " أراميس "، أصدقاء متلازمون يعيشون حسب عقيدة ومبدأ أنَّ «الواحد للكُلِّ، والكُلِّ للواحد».

تبدأ القصَّة في عام 1625 ، وتروي أنَّه قد وقع حادث في قرية فرنسية، فخيَّم الذعر والخوف علي المكان نتيجة الصراع الدامي المستمر بين حكام فرنسا ونبلائها. صعد على عرش فرنسا الملك " لويس الثالث عشر" Louis XIII 1601 -1643، الذي كان في صراع مع الكاردينال «ريشيليو» Richelieu مستشار الملك، الذي كان يخطط سراً للاستيلاء على الحكم، عن طريق تلويث سمعة الملكة " آن " Anne 1601 -1666 زوجة الملك " لويس الثالث عشر " ، وابنة ملك أسبانيا " فيليب الثالث " (1578-1621). وفي غمرة هذه الأحداث والفوضى ظهر"دارتنيان"، وهو شاب شجاع في الثامنة عشرة من عمره.

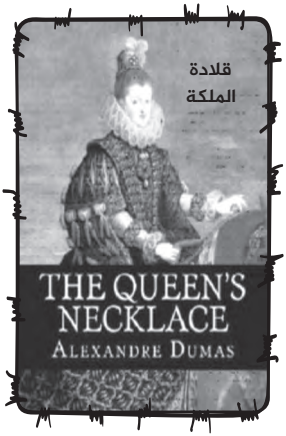


ـ الفيكونت براجيلون: بعد عشر سنوات Le vicomte Brajillo: dix ans plus tard، بالإنجليزية: The Vicente de Bragelonne : Ten Years Later، في عام 1847 .

ـ الكونت دي مونت كريستو Le Comte de Monte-Cristo ( بالإنجليزية: The Count of Monte Cristo ). وقد كُتبت في الفترة من 1844 إلي 1846 وقد كتبها "ألكسندر ديماس " بالتعاون

مع " أوجست ماكيه". وهي قصَّة مستوحاة ـ جزئيًّا ـ من أحداث حقيقية. والجدير بالذكر أنَّ الرواية المصرية القديمة " الملاح التائه "، كان لها أثر كبير في استلهام هذه الرواية.

ـ أثنين من ديانا Les Deux Diane (بالإنجليزية: The Two Dianas) في عام 1846 ، وهي رواية عن الكونت " دي مونتجومري"، الذي أصاب الملك " هنري الثاني" 1519- 1559 Henri II بجروح خطيرة؛ وكان عشيقاً لابنته " ديانا دي كاسترو".

أمَّا مؤلفات " ألكسندر ديماس " في مجال الروايات، فنذكر منها:

الزئبقة السوداء

ـ مذكرات الطبيب: جوزيف بالسامو (Mémoires d'un médecin: Joseph Balsamo)،وقد كتبت في الفترة من 1846 إلي 1848 . وتُعرف أيضا باسم "كاليوسترو" Cagliostro، أو "مدام دوباري" Madame Dubarry، أو " الكونتيسة دوباري " The Countess Dubarry، أو " إكسير الحياة " Elixir of Life. والرواية تضم حوالي ألف صفحة، وعادة ما كان يتم نشرها في مجلدين في الترجمات الإنجليزية: المجلد الأوَّل: " جوزيف بالسامو "، والمجلد الثاني: " مذكرات طبيب ".

ـ قلادة الملكة ،أو عِقْدُ الملكة Le Collier de la Reine (بالإنجليزية: The Queen's Necklace)، وقد كُتبت في الفترة من 1849 إلي 1850. تُعد هذه الرواية من أشهر الروايات التاريخية والغرامية. أحداث الرواية الشيقة للغاية تدور حول

عصر وحياة الملكة الفاتنة " ماري أنطوانيت " Marie-Antoinette 1793 -1755 التي قطعت الثورة الفرنسية رأسها الجميل بواسطة المقصلة.

أمَّا قصَّة العِقْد فيها، فهي قصَّة غرام جنوني بالملكة " ماري أنطوانيت " من قِبل أحد الأمراء. وكانت وراء هذا العِقْد والغرام كونتس مخادعة من العائلة المالكة. والملكة التي وقعت في خديعة الكونتس تلك، فقد أُغرمت هي الأخرى بأحد فرسان الملك الذي بادلها الغرام بأشد منه، لكن الملكة بقيت محافظة علي مكانتها كملكةٍ لفرنسا، والفارس بقي متهيباً الموقف كأحد رعايا زوجها الملك " لويس السَّادس عشر" Louis XVI 1793 -1754، لذلك كانت العلاقة الغرامية بين الملكة والفارس علاقة مأساوية مثيرة.

ـ سقوط الباستيل La chute de bastille ،(بالإنجليزية The fall of Bastille ) ، تعرض الرواية بالتفصيل قصَّة اقتحام سجن الباستيل، في فرنسا، والمجازر التي تمَّ ارتكابها، وقيام الثورة الفرنسية، وانتصار الديمقراطية بعد ذلك، فتدور أحداث الرواية عام1789 ، والباستيل هو عبارة عن قلعة، تعود لفترة العصور الوسطى حيث كان هو السجن السياسي في باريس، ويمثل السلطة الملكية وسط باريس . وقت اقتحام السجن كان يحتوي على سبعة سجناء فقط، ولكنَّه كان رمزًا من رموز الانتهاكات التي ارتكبها النظام الملكي، وأدي ذلك لسقوط الملكية الفرنسية، وقتل الملك والملكة، تروي الرواية تلك الأحداث التي أدت لاندلاع الثورة.

ـ الزنبقة السوداء La Tulipe noire (بالإنجليزية: The Black Tulip) في عام 1850 . تروي قصَّة رجل هولندي يدعي" كورنيليوس فان بيرل "Cornelius Van Baerle أحب الزهور، وعمل علي استنبات زنبقة سوداء للفوز بالجائزة الكبرى، ولكن تمَّ إلقاؤه فجأة في السجن بوشايةٍ من جاره " إسحق بوكستل "Issac Boxtel . وهناك يلتقي مع ابنة حرس السجن الجميلة " روزا " Rosa ، التي ستُحبّه، وبالتالي تنقذه من السجن.

ـ حرب النساء La Guerre des Femmes ، (بالإنجليزية The Women's War) في عام 1845 ، يتناول حياة جندي ساذج يقع في حُبِّ امرأتين.

فرسان سانت هيرمين

ـ فرسان سانت هيرمين Le Chevalier de Sainte-Hermine (بالإنجليزية: The Knight of Sainte-Hermine )، في عام 1869 ، هذه الرواية هي آخر أعمال " ألكسندر ديماس " وكانت على وشك الانتهاء كما كان سيتم نشرها بشكل متسلسل، ولكن وفاته حالت دون ذلك، وظل هذا العمل مفقوداً إلى أن تمَّ اكتشافه في عام 1990 من قِبَل الباحث في أعمال "ديماس"،ويدعي " كلود شوب " Claude Chop ،حيث قام بتحريره وكتب فصلين ونصف لاستكماله استناداً إلى ملاحظات «ديماس». نُشر الكتاب في عام 2005 في فرنسا، وسرعان ما أصبح من أكثر الكتب مبيعاً. نُشرت الرواية أيضاً باللُّغة الإنجليزية في عام 2008 تحت عنوان "الفارس الأخير" The Last Cavalier.

وعلى الرغم من شهرته كمؤلف روايات، اكتسب «ألكسندر ديماس» أيضاً سمعة في المسرح الدرامي. كانت مسرحية " هنري الثالث " وبلاطه Henri III et sa tuile (بالإنجليزية: Henry III and his tile ) في عام1829 أوَّل المسرحيات الرومانسية التاريخية العظيمة التي تمَّ إنتاجها على مسرح باريس، لتسبق بذلك مسرحية " فيكتور هوجو" (1802-Victor Hugo1885) «هرناني» Hernani الأكثر شهرة والتي صدرت في عام 1830. تمَّ إنتاج هذه المسرحية في المسرح الوطني الفرنسي، وحقَّق «ديماس» نجاحاً هائلاً حيث كانت انطلاقة موفقة لحياته المهنية. وقد كان

للمسرحية خمسين عرضاً خلال العام التالي مسجلة بذلك حالة استثنائية في ذلك الوقت. وتوالت النجاحات الأخرى بعد ذلك، مثل مسرحيات:

ـ أنتوني Antony، في عام 1831 ، التي تعتبر أوَّل دراما رومانسية غير تاريخية.

ـ تشارلز السَّابع Charles VII، في عام 1831، حيث تم تجسيد هذه الدراما من قِبَل الملحن الروسي" سيزار كوي" في أوبرا له.

ـ برج نيسل La Tour de Nesle، في عام 1832 ،وهي ميلودراما تاريخية.

ـ كين Kean، في عام 1836،وهي مستوحاة من حياة الممثل الإنجليزي الشهير الراحل «إدموند كين» Edmund Keane 1833 -1747، وقد لعب دوره الممثل الفرنسي الكبير "فريدريك لوميتر" Frédéric Lommeter.

ـ لصوص الذهب Voleurs d'or ( بالإنجليزية: The Gold Thieves) بعد عام 1857 ، وهي مسرحية غير منشورة خماسية المشاهد. تمَّ اكتشافها عام 2002 من قبل الباحث الكندي «ريجنالد هامل « Reginald Hamel ، الذي كان يبحث في المكتبة الوطنية الفرنسية.

تمَّ نشر المسرحية في فرنسا عام 2004 من قِبَل " أونوريه شامبيون" Honoré Champaign. وقد ذكر " هامل " أنَّ " ديماس " استوحى هذا العمل من رواية كتبتها عشيقته «سيليست دي موكادور» Celeste de Mogador عام1857 .

وبينما جيوب " ديماس " يفيض منها المال، ظلت شهرته تسمو من قمةٍ إلي قمة. فهو يتنقل من تحويل التاريخ إلي قصَّص إلي تحويل القصَّص إلي تاريخ، فإنَّ قصَّة «الكونت دي مونت كريستو»، هي من صنع الخيال الصرف، كما أنَّ شخصياته تتمتع بحيويةٍ فائقةٍ. لقد خلق «ديماس» من السحب والأبخرة قلاعاً قوية، ورجالاً أحياء.

ولم يكن «ديماس» يهدف إلي الخلق، بل كان يهدف إلي الإمتاع، فمهمة

المؤلّف أن يكتب بروح مستمتعة، حتى يحيا أشخاصه مسرورين، فما قيمة أي فنّ ما لم يبعث النَّاس علي المرح ؟

ممَّا يُحكي عن " ألكسندر ديماس " أنَّه عندما شرع في كتابة روايته التاريخية «الفرسان الثلاثة»، كان لا يعني بالحقائق التاريخية الميتة، ولكنَّه كان شديد العناية بحقائق التاريخ الحية، لذا.. فهو يقول: «لا بأس من انتهاك حرمة التاريخ بشرط أن تنجب منه طفلاً».

تمثال ديماس الخالد

وكان «ديماس» يعمل بحيث لا يدركه التَّعب، من السَّابعة صباحاً حتى السَّابعة مساءً، مرتدياً قميصاً بلا أكمام مفتوح العنق، وإلي جانبه وجبة غذاء لم يمسسها في الأغلب. وإن صادف أن مرّ به زائر في ساعات العمل، لوح له بيده اليسري محيياً بينما اليد الأخرى ماضية في الكتابة.

كان يعمل دائماً في احتشاد هائل، لكنَّه احتشاد اللاعب، فهو يعيش مع أشخاصه.. يحدثهم ويمازحهم، وقد جاء إنجليزي لزيارته فسمع ضحكة تنفجر من مكتبه، فقال للخادم:

ـ سأنتظر حتى يكون سيّدك بمفرده.

فأجاب الخادم:

ـ إنَّ سيدي بمفرده.. وإنَّما يضحك من فكاهةٍ حلوةٍ سمعها من شخص في روايته.

كان يعيش مع أشخاصه نهاراً، ومع أصدقائه ليلاً، فإذا سأله النَّاس كيف استطاع أن يشعر بالمرح والنشاط بعد كده اليومي، أجاب بأنَّ محصوله اليومي لم يكن كد علي الإطلاق " إنَّي لا أؤلّف رواياتي، بل إنَّها تؤلّف نفسها في داخلي".

وعندما يسألونه: لكن كيف ذلك ؟ يقول: " لست أدري.. سلوا شجرة البرقوق كيف حملت إليكم ثمارها ؟.

وذات يوم وجده ابنه " ألكسندر ديماس الابن " يذرف الدموع السخية وهو يكتب الفصل الأخير من قصَّة " الفيكونت براجيلون"، وعندما سأله عن سبب بكائه، أجابه بصوت متهدج: "إنَّ الأسى يحز قلبي، لأنَّني أكتب نهاية القصَّة، وبنهايتها تنتهي حياة البطل بورتوس.. ولهذا تراني لا أستطيع أن أمسك دموعي"!!

كان " ألكسندر ديماس " يتمتع بروح الدعابة والتهكم، فقد ظل ينتج مسرحياته ورواياته، ويرفل حلل المجد، ويواجه ما يلقي من نجاح وفشل بعدم اكتراث طيب كريم. يلقي المديح بهزة كتف، والاهانات بابتسامة، ولكن أن صدر القدح عن حقد بالغ فهو أحياناً يمزح بابتسامته الحلوة شيئاً من الملح. فقد كان شاب من الأشراف يباهي بأصله، ثُمَّ التفت إلي " ديماس"، وهو يقول:

ـ حدثني الآن عن أصلك !

فأجابه " ديماس" :

ـ وُلد أبي في الهند الغربية، وكان جدي زنجياً. وكان جدي الأعلى قرداً.. يبدو أن أسرتي قد ابتدأت من حيث انتهت أسرتكم !!

وقال له يوماً «أونوريه دي بلزاك» 1799 -1850 Honoré de Balzac منافسه اللدود في صالون أدبي محاولاً أن يكسر شوكة الروائي الشاب:

ـ حينما تستنزف مواهبي سأكتب التمثيليات.

ففاجأه «ديماس»، بقوله:

ـ إذاً فاكتب التمثيليات حالاً !!

لقد أوتي موهبة الخلق والابتكار، وموهبة الصداقة الغامضة والأشد ندرة. فهو يحتفظ دائماً ببيته مفتوحاً، وقلبه أيضاً. فقد كانت ساعة الغذاء بمنزل " ديماس " تمتد من منتصف السَّاعة الثانية عشرة إلي منتصف السَّاعة الخامسة. وكان يقبل ضيوف جدد دائماً.. وكان علي الخدم أن يهرعوا إلي القصَّاب يشترون شرائح لحم جديدة. وإذا استطاع " ديماس " أن يستريح من عمله فهو يختلط بضيوفه بحُرِّيَّةٍ. فكان يأتي من غير دعوة كثير منهم علي الرحب والسعة.

قال له صديق، ذات مرَّة:

ـ أتتفضل بتعريفي بالسَّيِّد الذي هناك !

فأجابه:

ـ كلا لا استطيع.. فإنَّي لا أعرفه " !!

كان كرمه أشبه بهوةٍ ليست بذات قرار. وهو أبداً يلقي فيها بكُلِّ ما يكسب، فهو دائماً مدين، حتى أصبح المحضر أشد ضيوفه مواظبة علي زيارته.

وحدث مرَّة أن طلب إليه صديق المعاونة علي دفن رجل مسكين مات لتوه. فأخرج " ديماس" من جيبه خمسة عشر فرنكاً، وسأل:

ـ ومَنْ ذلك الرَّجل المسكين الذي مات ؟

فقال الرَّجل:

ـ محضر.

فصاح " ديماس "، قائلاً :

ـ إذاً فأنت سوف تدفن محضراً.. إليك خمسة عشر فرنكاً أخري..أدفن اثنين منهما.

وروي ابنه أنَّه قال له يوماً:

ـ إنَّك يأبي كأنما ترمي أموالك من النافذة

فأجابه:

ـ لا بأس ! فهناك من يلتقطونها

وقال لصديقٍ عاتبه علي إسرافه:

ـ كيف أكون مسرفاً مع أنَّني جئت إلي باريس وليس معي سوي قطعة ذهبية واحدة مازلت محتفظاً بها حتى الآن !!

وممَّا يُذكر عنه أيضاً أنَّه عندما كتب ابنه «ألكسندر ديماس الابن» قصَّته الخالدة «غادة الكاميليا»، التي فاقت في شهرتها بعض ما كتب أبوه، فقال : «لقد أنجبت ولداً.. فاستحال إلي ثعبان».

وقد قام الكاتب المؤرِّخ الفرنسي «آلان ديكو» Allan Deco ، وصاحب كتاب «ديماس الجميل»، بإنشاء " مؤسسة أصدقاء ألكسندر ديماس " Société des Amis d'Alexandre Dumas في عام 1971. كان الغرض من إنشاء هذه المؤسسة هو الحفاظ على قلعة مونت كريستو الموجودة حالياً في موقع المؤسسة. كما تتمثَّل الأهداف الأخرى للمؤسسة في التقاء أصدقاء «ديماس» من جميع أنحاء العالم، والمضي قُدماً بالأنشطة الثقافية لقلعة مونت كريستو، وجمع الكتب والمخطوطات وغير ذلك من مواد أدبية تخص «ديماس».

**وفيه صفوت مختار**

# قبل أن تقرأ

الباستيل هو سجن أُنشئ في فرنسا بين عامي 1370 و1383 كحصن للدفاع عن باريس، ومن ثمَّ كسجنٍ للمعارضين السياسيين، والمسجونين الدينيين، والمحرضين ضد الدولة. وأصبح على مدار السنين رمزاً للطغيان والظلم، وانطلقت منه الشرارة الأولى للثورة الفرنسيَّة في14 يوليو 1789. وما تزال فرنسا حتى اليوم تحتفل بمناسبة اقتحام السجن باعتبارها اليوم الوطني لفرنسا (Fête Nationale) في الرابع عشر من يوليو من كُلِّ عام وانتهاء حقبة طويلة من الحكم المطلق.

جان دارك

كان اسمه الأصلي "الباستيد" La Bastide وليس الباستيل وتعني "الحصن" باللُّغة الفرنسيَّة. وقد وضع عمدة باريس حجر الأساس للباستيل عام 1370. وهكذا بُني الباستيل ابتداء من 1378 من ثمانية أبراج بارتفاع 24 متراً وبسمك 3 أمتار عند القاعدة، ومتر و80 سم عند القمة، واستغرق البناء 12 سنة. وكان له قائد يُدعي "كابتن الباستيل"، ومعه حوالي 20 من الحُراس المسلحين. وكان الباستيل مخزناً للبارود والمدافع والأسلحة البيضاء.

منذ البداية كان للباستيل باب جانبي يستخدمه الملك للدخول والخروج سراً

من باريس، وقد اعترضت بلدية باريس على وجود هذا الباب وحاولت إلغاءه، ولكنَّها عجزت عن ذلك.

وفي العصور الوسطي كان شيئاً مألوفاً قبل توحيد فرنسا أن يتحالف بعض أمراء الإقطاع مع بعض الملوك أو الأمراء الأجانب ضد ملوك فرنسا أو أمرائها. ومن أشهر هذه التحالفات تحالف ولاية بورجونيا مع الإنجليز. وقد احتل البرجنديون والإنجليز الباستيل، وكان قومندان الباستيل إنجليزياً لمدة 16 سنة بعد احتلالهم باريس ابتداء من1418 حتى تمَّ أجلائهم عن الباستيل في 1436. (والبرجنديون كما هو معروف هم الذين سلموا "جان دارك" Jeanne d'Arc 1412- 1431 بعد ذلك للانجليز فحاكموها وأحرقوها بتهمة إنَّها ساحرة).

الملكلويس الرابع عشر

ولم يكن الباستيل مخزناً للسلاح والذخيرة فحسب، بل كان أيضاً من القرن الخامس عشر حتى عهد" لويس الرابع عشر" Louis XIV 1638 - 1715 مخزناً لجواهر التاج وكنوزه ومقراً لخزانة الدولة. وممَّا يُذكر أنَّ "هنري الرابع" Henri IV 1553- 1610 ملك فرنسا أودع في الباستيل عام 1600 مبلغ 13 مليون جنيه ذهباً استعداداً لحربه مع إسبانيا.

لم يعتبر الباستيل قصراً إلَّا في عهد "لويس الرابع عشر" حين أصدر هذا الملك في1667 أمراً ملكياً لقومندان الباستيل باعتبار الباستيل أحد القصور الملكية وأمره بموجب هذا أن يطلق المدافع ابتهاجاً بمولد ابنته. وفي عهد "لويس الخامس عشر" كان الباستيل يطلق المدافع تحية للملك عند دخوله وخروجه من باريس.

## من أبرز السجناء في الباستيل:

ـ فوكيه Foucquet وزير مالية "لويس الرابع عشر".

ـ المفكر الكبير "فرانسوا دو لا روشفوكو" François de La Rochefoucauld 1613- 1680.

ـ المرشال "ريشليو" Richelieu ابن الكاردينال الأشهر وذو القناع الحديدي.

ـ "فولتير داميان" الذي حاول اغتيال "لويس الخامس عشر" Louis XV 1710-1774.

الملك لويس الخامس عشر

ـ القائد "ديموريه" Dumouriez بطل معركة "فالمي" Valmy ، حيث تقابلت القوات الفرنسية بقيادته مع قوات التحالف الأوروبي الساعي لاحتواء الثورة الفرنسية، المعركة وقعت قرب قرية «فالمي» في20 سبتمبر1792 ونجحت القوات الفرنسية في صد المهاجمين والذين كانوا من الجيشين البروسي والنمساوي إذ قاموا بالانسحاب ممَّا أدى إلى نجاة فرنسا، وتعتبر موقعة «فالمي» على صغرها من أهم مواقع التاريخ، لأنَّها ولدت في فرنسا وجيشها الثقة بالنفس التي جعلتهما مصدر فزع لأوربا مدة طويلة، ولأن صمود الجيش الفرنسي فيها حال دون سقوط باريس والقضاء على الثورة وأفكارها.

ـ الماركيز «دي ساد» Marquis De Sade 1710 -1774. كان أرستقراطياً ثورياً فرنسياً وروائياً. اتسمت رواياته بالسادية المُتحرِّرة من كافة القوانين الأخلاقية، وكان من دُعاة أن يكون المبدأ الأساس هو السعي للمتعة الشخصية المطلقة من دون

أي قيود تذكر سواء أخلاقيَّة أو دينيَّة أو قانونيَّة. احتجز في عدة سجون في فترات متقطعة لنحو32 عاماً من حياته (بينها10 سنوات في الباستيل).

ـ الساحر الشهير "كاليوسترو" Cagliostro .

ـ الكاردينال دي روهان Cardinal De Rohan بطل فضيحة جواهر الملكة "ماري أنطوانيت".

الملك لويس السادس عشر

أمَّا أشهر الجرائم فكانت قضية السموم في عهد "لويس الرابع عشر"، وقضية جواهر الملكة أيام "لويس السَّادس عشر" Louis XVI 1754 - 1793 وكان "لويس الحادي عشر" Louis XI 1483 -1423 الذي كان يلقب بالداهية أو العنكبوت، هو أوَّل من استعمل الباستيل سجناً للدولة وخصصه للمسجونين السياسيين المتآمرين عليه لقلب نظام الحكم ولاسيما في صراعه مع "شارل الجسور" Charles the Bold 1477 -1467 والبرجنديين، وقد أضاف "لويس الحادي عشر" إلى الباستيل "أقفاصاً" من قضبان الحديد لا تسمح بالوقوف داخلها. وكان أوَّل مَنْ ابتكرها له الأسقف " فردان " Fredan الذي زود هذه الأقفاص بسلاسل غليظة تنتهي بكرات حديدية ثقيلة تُقيّد حركة القدمين. وقد سُجن هذا الأسقف نفسه فيها14 عاماً لأنَّه تآمر على الملك، ثُمَّ أفرج عنه.

منذ تحوُّل الباستيل من قلعةٍ إلى سجنٍ كان سجناً "ملكياً" تابعاً للملك مباشرة ينفق عليه من أمواله الخاصَّة، ويجري فيه كُلّ شيء بعيداً عن رقابة القانون العام. ولم تكن تجري فيه الإعدامات، وإنما كان محطة للتحقيق والمحاكمة السياسية عن

طريق برلمان باريس، ثُمَّ التوزيع إمَّا على السجون الأخرى، مثل: سجن "فانسين" Fansin ، وسجن "مون سان ميشيل" Mon Sun Michel ، أو أحد سجون فرنسا الأربعمائة، وفي بعض الأحوال النفي أو الاعتقال مدى الحياة في الأديرة أيضاً على نفقة الملك.

أمَّا الإعدام فيتم عادة بقطع الرأس. وفي بعض الأحيان كان الإعدام يتم بتفسيخ جسد المحكوم عليه أربعاً في ميدان "الجريف" كما حدث في حالة الراهب "جاك كليمان" Jacques Clement قاتل الملك "هنري الثالث" Henri III 1551 - 1589 عام 1589 ، و"رافاياك" Ravaillac قاتل الملك "هنري الرابع" في عام1610، و"داميان" Damiens الذي حاول قتل الملك "لويس الخامس عشر" في1757.

الملك هنري الثالث

أمَّا حادثة اقتحام سجن الباستيل وقعت في باريس في الرابع عشر من شهر يوليو عام1789. وبالرغم من أنَّه لم يكن في السجن سوى سبعة أسرى وقت اقتحامه, إلَّا أن سقوطه كان بمثابة شرارة اندلاع الثورة الفرنسية، وأصبح فيما بعد رمزًا للجمهورية الفرنسية. ويُعتبر الرابع عشر من يوليو, عطلة رسمية في فرنسا.

واجهت فرنسا في عهد الملك "لويس السَّادس عشر" أزمة اقتصادية كبيرة بدأتها التكاليف التي تكبدتها فرنسا جرّاء تدخلها في حرب الاستقلال الأمريكية, و جرّاء الجهود المتواصلة لغزو بريطانيا العظمى على وجه الخصوص, وتفاقمت هذه الأزمة نتيجة النظام الضريبي غير العادل.

وفي الخامس من شهر مايو عام1789، اجتمع مجلس طبقات الأمة لبحث

هذه المسألة، ولكن الأنظمة القديمة وطبقة النبلاء أعاقوا عملهم. ثُمَّ تألفت الجمعية التأسيسية الوطنية، التي أعترف بها الملك مضطراً. وكان هذا هو الحدث الثاني لقيام الثورة الفرنسية.

كانت حادثة اقتحام سجن الباستيل وما تبعها من إعلان حقوق الإنسان والمواطن الحدث الثالث من المرحلة الأولى للثورة الفرنسية. أمَّا الحدث الأوَّل فكان تمرُّد النبلاء ورفضهم مساعدة الملك "لويس السَّادس عشر" من خلال دفع الضرائب.

وقد شُكلت الطبقة الوسطى الحرس الوطني, الذي كان يرتدي قبعات عليها أشرطة بثلاث ألوان: الأزرق والأبيض والأحمر. وهذه الألوان هي نتيجة دمج أشرطة بلدية باريس الحمراء والزرقاء مع أشرطة الملك البيضاء. وأصبحت هذه الأشرطة وألوانها الثلاثة رمزاً لفرنسا نفسها فيما بعد.

الملك هنري الرابع

في الحادي عشر من شهر يوليو عام1789, قام الملك "لويس السَّادس عشر" بتأثير من النبلاء المحافظين في مجلس الشورى، بعزل ونفي وزيره المالي "جاك نيكر" Jack Necker، والذي كان متعاطفا مع الطبقة الاجتماعية الفقيرة.

وصلت أخبار عزل " نكار "إلي باريس مساء يوم الأحد الثاني عشر من يوليو. فاجتمعت الجماهير من جميع أنحاء باريس أمام القصر الملكي, وكانت أكثر من عشرة آلاف. وكان "كاميل ديمولين" Camille Desmoulins، قد نجح في تجميع الحشود بصعوده على طاولة حاملاً مسدسه في يده، وصارخاً: «أيها المواطنون، لا يوجد وقت لنضيعه. إن عزل نيكر هو دق ناقوس الخطر .. هذه

الليلة بالذات, ستغادر جميع الكتائب السويسرية والألمانية ساحة دي مارس لإبادتنا جميعاً.. لم يبقَ لدينا سوى خيار واحد: حمل السلاح".

وكانت الفرق العسكرية السويسرية والألمانية المشار إليها من بين الفرق الأجنبية المرتزقة، والتي شكلت نسبة مهمة من الجيش الملكي, وكان يُنظر إليهم علي أنَّهم لا يتعاطفون مع قضايا الشعب الفرنسي، مقارنة مع الجنود الفرنسيين الوطنيين.

ولقد كانت الجماهير ترفع مجسمات لـ" نكار "، وكذلك لـ " لويس فيليب الثاني" Louis Philippe II Louis 1793 -1747، دوق" أورليان" Duke of Orléans، خلال المظاهرات العامَّة التي بدأت في الثاني عشر من شهر يوليو.و تصادمت حشود الجماهير مع فرقة الفرسان الملكية الألمانية.

في ذلك الوقت, كانت الاضطرابات تتزايد في صفوف سكان باريس الذين قاموا, نتيجة عدائهم للتشريعات المالية لطبقة الفلاحين, بمهاجمة المراكز الجمركية والتي تسببت في ارتفاع أسعار المواد الغذائية. وبدأ سكان باريس بسلب أي مكان يُخزّن فيه مواد غذائية وأسلحة.

صبيحة اليوم الرابع عشر من يوليو عام 1789, كانت مدينة باريس في حالة من الذعر. وكان المتظاهرون يسعون بشكل أساس إلى الاستيلاء على الأسلحة والذخائر المخزنة في سجن الباستيل ( كان يوجد أكثر من13600 كيلو جرام من البارود مخزنة هنالك).

في هذه الفترة كان سجن الباستيل فارغاً تقريباً من السجناء؛ فيه فقط سبعة: أربعة مزورون, ومجنونان, ومنحرف أرستقراطي واحد وهو الكونت "دي سولاجي" comte de Solages (وكان قد نُقل الماركيز دي ساد Marquis de Sade من السجن قبل عشرة أيام من يوم اقتحامه).

احتشدت الجماهير في الخارج في منتصف الصباح مطالبين بإعلان السجن

للاستسلام وإزالة البنادق وإخراج الأسلحة والبارود، ودُعي اثنين من ممثلي الجماهير للدخول إلى داخل الحصن, وبدأت بعدها المفاوضات؛ وفي الظهيرة سمح لآخر بالدخول حاملاً مطالب محدَّدة. طالت المفاوضات طويلاً بينما ازداد عدد الحشود ونفد صبرهم. تدفقت الحشود حوالي السَّاعة الواحدة والنصف نحو الفناء الخارجي غير المحمي, وقطعوا سلاسل الجسر المتحرك المؤدي إلى الفناء الداخلي والذي أدى إلى سحق أحد المدافعين. في هذا الوقت بدأ إطلاق النَّار, ويبدو أن الحشود شعرت أنَّها قد وقعت في فخ،فأصبح القتال أكثر عنفًا وشدةً, و تجاهل المهاجمون محاولات النواب للتوصل إلى وقف إطلاق النَّار.

لويس فيليب الثاني

استمر إطلاق النَّار،حتى ظهر محافظ السجن" دي لوناي" De Loney فجأةً وأمر بإيقاف إطلاق النار في السَّاعة الخامسة. وتمَّ تسليم رسالة يعرض فيها شروطه للمحاصِرين في الخارج عبر فتحة في البوابة الداخلية. وعلى الرغم من رفضهم لطلباته, إلَّا أن "دي لوناي" استسلم مدركاً أنَّ قواته لن تقوَ على الصمود أكثر من ذلك, وفتح الأبواب المؤدية إلى الفناء الداخلي فاندفع المتظاهرون للداخل محررين الحصن السَّاعة الخامسة والنصف.

ذهب ضحية القتال ثمانية وتسعون مهاجماً، ومدافع واحد. وأُلقي القبض على "دي لوناي" وسُحب إلى دار بلدية دفيل Hôtel de Ville وسط وابل من الشتائم. وبدأ نقاش حول مصيره خارج دار البلدية. وصاح المهزوم "دي لوناي": "كفى ! دعوني أمت !" وركل طاهي فطائر اسمه "دواليت" Dulait على فخذه, فطعنوه عدة مرَّات حتى سقط, ونشروا رأسه وثبتوه على رمح ليجوبوا به الشوارع. وقتل الحشود

أيضاً الضباط الثلاثة لحامية الباستيل الدائمة. وأعدم اثنين من المحاربين القدامى التابعين للحامية.

توقع مواطنو باريس هجوماً مضاداً, فتحصّنوا الشوارع, وأقاموا الحواجز من حجارة الرصف, وتسلحوا بكُلِّ ما استطاعوا وخاصَّة بالرماح.

وفي صبيحة اليوم الخامس عشر من يوليو, أصبحت العواقب واضحة للملك, وتنحّى عن منصبه هو وقادته العسكريين. وتشتت القوات الملكية المعسكرة حول باريس إلى مواقعهم على الحدود. وتولى الماركيز " دي لافاييت « De Lafayette السيطرة على الحرس الوطني في باريس, بينما أصبح "جان سيلفان بايي" Jean Sylvan Baiy ـ أحد قادة الطبقة الاجتماعية الفقيرة ـ عمدة المدينة تحت هيكلية الحكومة الجديدة والمعروفة باسم "بلدية باريس" Commune de Paris .وأعلن الملك أنَّه سيستدعي "نيكر" ليعود من فرساي إلى باريس.

و بعد هذا العنف, بدأ النبلاء ـ والذين لم يثقوا بالتسوية الظاهرية التي تبيَّن أنَّها مؤقتة بين الملك والشعب ـ بالفرار من البلاد كلاجئين سياسيين .

انتشر أمر نجاح التمرُّد في باريس إلى كافة أنحاء فرنسا. ووفقًا لمبادئ السيادة الشعبية وبالتجاهُل التَّام لمطالب السلطة الحاكمة, أنشأ السكان نظام مماثل في مجالس البلديات لبناء الحكومة المدنية, وحرس وطني لتقديم الحماية المدنية. وفي المناطق الريفية, ذهب الكثيرون أبعد من ذلك؛ فقام البعض بإحراق صكوك التمليك وعدداً ليس بالقليل من القصور, وهاجموا مُلاك الأراضي معتقدين أنَّ الطبقة الأرستقراطية كانت تسعى إلى إخماد الثورة, وذلك خلال انتشار "الرُعب الهائل" في المناطق الريفية في الفترة الممتدة من20 يوليو إلى 5 أغسطس.

وفيق صفوت مختار

## الفصل الأول

# مصير فتي كسول !!

## Fate of a lazy youngster !!

هناك في قلب فرنسا وفي مدينة « فيليه كوتريه » Villers - Cotterêts الصَّغيرة، وفي ظلال غابة كثيفة الأشجار، تقوم قلعة مَلكية آسرة ، وُلد على مقربةٍ منها أكبر شعراء فرنسا "جان راسين" Jean Racine [1].. وغير بعيد منها وُلد شاعرها العظيم، مبدع الأساطير "جان دي لافونتين" Jean de La Fontaine)[2].

---

(1) جان راسين Jean Racine ولد في عام 1639 ، وتوفي في عام 1699 ، شاعر وكاتب مسرحي فرنسي. ظهر نشاطه الإبداعي في عصر الملك «لويس الرابع عشر» ملك فرنسا. وكان معاصراً للشاعر والمؤلف المسرحي الفرنسي «موليير» Molière 1622- 1673 ، والشاعر والناقد الفرنسي "نيكولا بوالو" Nicolas Boileau 1636- 1711. من أشهر تراجيدياته " أندروماك " Andromack.(المُعد).

(2) جان دي لافونتين" Jean de La Fontaine( وُلد في عام1621، وتوفي في عام1695 )، وهو يُعتبر أشهر كُتَّاب القصَّص الخرافية ( أو الأساطير التي تدور أحداثها على ألسنة الحيوانات والطيور) في تاريخ الأدب الفرنسي. يقول عنه الروائي الفرنسي «جوستاف فلوبير» Gustave Flaubert 1821- 1880 : «إنَّه الشاعر الفرنسي الوحيد الذي استطاع أن يفهم تراكيب اللُّغة الفرنسيَّة ويتمكَّن من استخدامها قبل عصر فيكتور هوجو».(المُعد).

وقد بدأ في بناء هذه القلعة "فرنسوا الأوَّل" François Ier [1]، ثُمَّ أتمها من بعده "هنري الثاني" Henri II[2]. و قد شهدت القلعة غرام الكثير من الملوك بصحبة عشيقاتهم الحسناوات. وكان أخر عهدها بالغرام أنْ كانت وكر "لويس فيليب أورليان"، ومدام "دي مونتسون". فلما مات ذلك الأمير المَلَكي، وخلفه ابنه " فيليب أورليان " انزل تلك القلعة من مقر ملكي إلى" استراحة صيد".

وفي هذا الوقت الذي تبدأ فيه قصَّتنا لم يكن يُقيم في القلعة الأمير، فهي خالية من السكان فيما عدا نفر قليل من الخدم الذين لا غنى عنهم لصيانة المكان وإعداده لنزول صاحبه بين الحين والحين. ومن بين هؤلاء الخدم حارس الباب، والمسؤول عن ملعب التنس، وناظر القصر.. لهذا كانت نوافذ واجهة القلعة جميعها مغلقة على الدوام، فزاد ذلك من وحشة الميدان الواسع الذي تطل عليه، وهو ميدان المدينة الرئيس.

وفي بعض أطراف ذلك الميدان كان يقوم بيت يطل ظهره على الميدان وتطل واجهته على شارع" سواسون"، ولمدخله بوابة كبيرة كئيبة المنظر، تظل مغلقة ثماني عشرة ساعة في اليوم لحُسن الحظ.

أمَّا الجهة الخلفية المطلة على الميدان فمشرقة باسمة، ذات حديقة يانعة الشجر والثمر، تطل أغصانها محملة بفاكهتها من الكمثري والخوخ والتفاح من فوق جدار الحديقة. وعلى جانبي باب تلك الحديقة شجرتان باسقتان معمرتان، تحملان في

---

(1) فرنسوا الأوَّل «François Ier» وُلد في عام 1494، وتوفي في عام 1547 .وقد تولي حكم فرنسا في الفترة من عام 1547 إلي عام 1551 .(المُعد).

(2) هنري الثاني" Henri II وُلد في عام 1519، وتوفي في عام 1559.وقد عُيِّن ملكاً في عام1547 ، حتى وفاته.(المُعد).

أوان الربيع من الزهر الجميل ما ينتشر أريجه في المكان، وينفذ من النوافذ والكوى تحية من أمنا الأرض إلى سكان الدار.

وكانت هذه الدار اللطيفة مسكن قسيس بيعة القلعة، الذي كان يُصر رغم غيبة صاحبها الأمير على إقامة الصلاة فيها صباح كُلّ أحد بلا انقطاع. وكان لهذا القسيس معاش صغير، وإشراف تام ومطلق على بعثتين دراسيتين، فمن حقه أن يبعث في كُلِّ سنة طالباً إلى كلية " بليسي"، وطالباً آخر إلى دير سواسون، وذلك ـ كما هو غني عن البيان ـ على نفقة آل أورليان.. فكانت هاتان البعثتان مطمح أنظار كُلّ والد في المدينة، كما كانتا سبب هم ونكد كُلّ طالب فيها، لما تكلفانه من دراسة واجتهاد وامتحانات تُقدَّم كُلّ يوم ثلاثاء لينظر فيها القسيس ويُقدِّر لها الدرجات.

وفي يوم ثلاثاء من شهر يوليه عام 1789، وكان يوماً عبوساً كئيباً ساده صمت موحش، وقد دقت ساعة البرج الحادية عشرة، فُتح باب الحديقة وانطلق من داخلها جماعة من الغلمان مُهللين، فملئوا الميدان، وراحوا يلعبون فيه ألعابهم الصبيانية، في ضجة عالية.

أمَّا أهل الجد والاجتهاد من هؤلاء الصِّغار، فلم يندمجوا في اللَّعب مع أولئك التعساء الممزقة ثيابهم، المُعفرة جباههم، بل انسحبوا مبتعدين في وقارٍ وسكينةٍ، متجهين إلي بيوتهم، حيث تنتظرهم شطائر الخبز والجبن أو الفاكهة المُقدَّدة والمربى.

وثمَّة فريق ثالث من التلاميذ، لا هُم من أهل اللَّهو والعبث، ولا من أهل الجد والاستقامة . وإنما هم الكسالى الذين لم يستذكروا دروسهم، ولم يؤدوا واجباتهم ، فحبسهم مُعلِّمهم ليؤدوها في وقت فسحة زملائهم ولهوهم وطعامهم.

فإذا ما توغلنا قليلاً في مماشي الحديقة، وجدنا فناءً صغيراً، وسمعنا من هذا الفناء صوتاً أجش ينبعث من أعلى الدرج المُفضي إلى البناء، موجهاً الكلام إلى فتى

من الكسالى كان يهبط ذلك الدرج، وهو يُحرِّك كتفيه حركة لا تصدر إلَّا عن حمار يُريد التخلُّص من راكب ثقيل، أو عن طالب بليد يريد التخفُّف من وقع الجلدة التي لسعت قفاه !!

وكان الصوت الأجش الزاجر لا يزال يلاحق هذا الفتى قائلاً:

ـ أيها الوغد، أيها الخارج من رحمه الله ! أيها المحروم من نعمة الرَّب، أيها الثعبان المُرَقَّط[1]! اخرج من هنا يا ملعون، لقد تحملتك صابراً ثلاث سنين، ولكن أمثالك يستنفدون صبر الإله.. أمَّا الآن فقد انتهى كُلّ شيء. . خذ الآن ألاعيبك كُلّها.. خذ صفادعك، ودود قزك، وجنادبك[2]، واذهب إلى خالتك، أو إلى خالك إن كان لك خال، أو إلى الشيطان إن شئت، ولا تدع نظري يقع عليك أو على سحنتك المقلوبة بعد الآن .. اخرج يا ملعون خارجاً.

فأجابه صوت الفتى الصَّغير، ضارعاً متوسلاً:

ـ أيها السَّيِّد " فورتييه" الطيب، رُحماك، هل تستحق كُلّ هذه الثورة بضعة أخطاء في التعبير لا هنا ولا هناك ؟

ـ عشرة أخطاء يا هذا في خمسة وعشرين سطراً..

ـ لست أنكر هذا يا سَّيِّدي، فيوم الثلاثاء كان علي الدوام يوم نحسي وتعاستي ، فهلا غفرت لي أخطائي هذا اليوم يا سَّيِّدي الأب الكاهن ؟

ـ أيها المنكود ! لقد كرَّرت هذا على سمعي كُلّ يوم اختبار من كُلِّ أسبوع هذه السنوات الثلاث حتى أصبتني بالسأم .. والامتحان الأخير موعده أوَّل نوفمبر.. وقد حملتني توسلات خالتك "أنجيليك " على أن أكتب اسمك بين المتقدمين لبعثة

---

(1) المُرَقَّط: يُقال: جِلْدٌ مُرَقَّطٌ: أي عَلَيْه نُقَطٌ صِغَارٌ مِنْ بَيَاضٍ وَسَوَادٍ أَوْ مِنْ حُمْرَةٍ وَصُفْرَةٍ أَوْ مِنْ غَيْرِهِمَا. (المُعد).

(2) الجَنَادِب: نَوْعٌ مِنَ الجَرَادِ الصَّغِيرِ.(المُعد).

دير سواسون. وستعرضني أيها المأفون للسخرية والزراية، فيُقال في كُلِّ مكان أنَّ تلميذي" بيتو" حمار.

واستطرد الفتى المسكين يتوسل للأب" فورتييه" أن يغفر له أخطاء التعبير، وركاكة الأسلوب، والأب" فورتييه" يزداد تعنيفاً له ويُصر على التخلُّص منه.

وأخيراً.. قال الفتى بعد أخذ ورد طويلين:

ـ لقد كنت دائماً مثال الطيبة معي، ويكفي أن تذكرني بالخير عند سيدنا الأسقف حتى أنال البعثة المطلوبة يا سَيِّدي الأب !

ـ أتريدني أن أغش ضميري وأُغيِّر ذمتي يا هذا ؟!

ـ إذا كان هدفك فعل الخير، فإنَّ الله الرَّحيم يعفو عن كثير.

ـ مستحيل ! مستحيل !

ـ وهل نسيت يا سَيِّدي الأب أنَّ الممتحنين قد لا يكونون أكثر تشدُّداً ممَّن امتحنوا خالي من قبل، هو"سباستيان جلبرت"، وكان أسلوبه ضعيفاً للغاية، ومع ذلك أجازوه لبعثة باريس، مع أنَّه في الثالثة عشرة، أمَّا أنا ففي السَّابعة عشرة ؟

ـ أيها الغبي، المستحكم الغباء ! لأنَّه كان حديث السن تساهلوا معه، فحداثته تشفع له في ضعفه، وتوحي بالأمل في إصلاحه، أمَّا أنت أيها الأحمق ...

ـ نعم نعم .. ولا تنس أنَّه أيضاً نجل المسيو" أونوريه جلبرت "واسع الثراء. الذي يبلغ دخله السنوي ثمانية عشر ألفاً ! ولو كنت نجل وجيه له مثل هذا الثراء.. أذاً..

ـ آه ! كلامك هذا أكبر دليل علي الغباء، ولكنَّها فرضية لا أساس لها من الصحَّة، ومع هذا فيُخيل إليَّ أحياناً أنَّك لست من الغباء بحيث أظن ...

ـ هلا عفوت عني هذه المرَّة أيها الأب ؟

ـ هذه المرَّة فقط. . ولتكن الأخيرة..

فصرخ الغلام متهلّلاً:

ـ شكراً.. شكراً لك أيها الأب المحبوب !

ـ مهلاً ولا تتعجل بالشكر والامتنان، فأني أعفو عنك بشرط أن تجيب على سؤال واحد سأوجهه إليك الآن..

ـ باللاتينية ؟

ـ أجل

فتنهد المسكين وأذعن، وكان السؤال صعباً فلم يفهم معنى كلماته، فانهال عليه الأب بالسُباب، وأخبره بانقطاع أماله في البعثة بعد اليوم.

فقال الفتى:

ـ وخالتي يا سَيّدي الأب، التي تظنني قد غدوت قسيساً صالحاً ؟

ـ فلتعلم إذاً أنَّك لا تصلح حتى خادماً للكنيسة يصنع القربان ويكنس المكان ! أخرج من هنا إلى الأبد، وخذ مقعدك معك.

ولم يجد المسكين بُداً من حمل درجه على رأسه، والخروج به مطروداً من المدرسة، وقد أقفل في وجهه باب المستقبل السَّعيد، الذي أرادته له خالته.. عائدا إلى دار تلك الخالة.

## الفصل الثاني

# بعد وفاة الأم !!

## After the death of the mother !!

كان" لويس آنج بيتو" في هذا الوقت قد تجاوز السَّابعة عشرة من عُمْره ببضعة أشهر. وكان فتى طويلاً، نحيلاً، أصفر الشعر، أحمر الخد، أزرق العينين. وعلى شفتيه الواسعتين نضرة الشباب وحيويته، وبراءته واضحة، فإذا انفرجت شفتاه الغليظتان تكشفتا عن أسنان قوية ناصعة البياض. وله ذراعان طويلان في نهايتها يدان قويتان، وساقان فيهما التواء خفيف فيهما ركبتان ضخمتان كأنَّهما رأسا طفلين ! وقدمان كبيرتان جدًّا في حذاءٍ ضاع لونه الأصلي من طول الاستعمال. وأمَّا هندامه فخليط من ملابس الصبية وزى رجال العصر.

وقد ماتت أُمَّه وهو في الثانية عشرة، تلك الأُمّ التي طالما دللَّت وحيدها. أمَّا أبوة فمات قبل ذلك، والفتى لا يزال طفلاً لا يعي ولا يُدرك. فكانت أُمَّه تترك له الحبل على الغارب، فأفلح ذلك على صحَّته وبنيته كثيراً، ولكنَّه ساء تقدُّمه ونموّه العقلي.

وقد ولد "بيتو" في قرية "أرامون" الواقعة على مسافة فَرْسَخ[1] واحد من المدينة، وفي أحضان غابة.. ففي رحابها خطا أولي خطواته، واستكشف قدراته العقليَّة، وشن الحرب على ما فيها من حيوان وطير.. حتى صار من أمهر قناصي الطيور وهو في العاشرة من عُمْره دون تعليم أو إرشاد، اللَّهم إلَّا من وحي فطرته. ولم يكن يضارعه أحد في تسلُّق الأشجار العالية حتى القمة، بسرعةٍ ومهارةٍ، فلو كان من سكان غابات خط الاستواء لأقرت واعترفت له القردة والنسانيس بالتفوق في ذلك المضمار.

وظل الأمر على ذلك المنوال إلى أن مرضت أُمَّه وأحست قرب أجلها، وأنَّها توشك أن تترك ولدها وحيداً في العالم، لا سند له ولا كافل ولا قريب، فراحت تُفكِّر جاهدة في شخصٍ يحلّ محلَّها بعض الشيء في رعاية هذا الوالد الذي شبّ على الفطرة، لا يعرف شيئاً من أساليب الحضارة أو العلم.

وتذكَّرت عندئذ شاباً طرق بابها منذ عشر سنين في جوف الليل، حاملاً بين ذراعه طفلاً حديث عهد بالولادة، كي يدعه بين يديها ترعاه رعاية الأُمّ. وأعطاها مبلغاً لا يُستهان به أجراً لها على ذلك، ولكنَّه خصَّص مبلغاً أكبر من ذلك لمصالح الطفل، وقد جعله وديعة لدي موثق عقود معروف في بلدة "فيليه كوتريه" القريبة من القرية.

ولم تعرف الأُمّ عن ذلك الشاب سوى أنَّ اسمه"جيلبير"، ثُمَّ ظهر لها بعد سبع سنوات، أي قبل مرضها الأخير بثلاث سنوات، وقد صار في نحو الثامنة والعشرين من عُمْره. جاف اللهجة، متحفظاً، بيد أنَّ هذا كُلَّه تلاشي حين جيء إليه بالصبي في أوج الصحَّة، وقد تربى كما أمر، على الفطرة، قويًّا، ساذجاً، بوحي سجيته بلا توجيه أو تلقين، فضغط "جيلبير"على كف المرأة شاكراً، وقال لها:

ـ اعتمدي عليَّ في وقت الشدة..

---

(1) الفَرْسَخ: (الجمع: فَرَاسِخ) من مقاييس المسافة قديماً. وأصل الكلمة فارسية مُعربة. وتجمع أغلب المراجع على أنَّ الفَرْسَخ يُعادل ما بين أربعة وستة كيلومترات في النظام الدولي الحالي. (المُعد).

ثُمَّ أخذ الصبي إلى بلدة "أرمينون فيل" حيث حجا إلى قبر" جان جاك روسو" Jean-Jacques Rousseau مؤلِّف"إميل" Émile[1] ، وعادا بعد ذلك إلى بلدة "فيليه كوتريه" حيث استهواه ولا شك جمال الموقع واعتدال الهواء، عدا ما سمعه من موثق العقود من ثناء على مدرسة الأب "فورتييه"، فترك ابنه الصَّغير "جيلبير" بين يدي ذلك الرَّجل الهمام الذي استهواه منه مظهره الفلسفي، ذلك المظهر الذي كان في ذلك العصر واسع الانتشار حتى بين أترابه من رجال الكنيسة. فلما انتهى "جيلبير" الكبير من ذلك رحل وحده إلى باريس، بعد أن ترك عنوانه، لدي الأب "فورتييه".

ذلك كُلَّه طاف بذهن والدة "بيتو" وهي على فراش مرضها الأخير، سيما عبارة المسيو "جيلبير" الكبير: "اعتمدي عليَّ في وقت الشدة".

فكان ذلك بمثابة شعاع من النور بدَّد الظلمات الحالكة التي كانت تراها محيطة بمستقبل وحيدها ومصيره. فأرسلت إلى قسيس القرية كي يكتب لها خطاباً إلى الأب " فورتييه"، لأنَّها كانت أمية لا تعرف شيئاً من القراءة أو الكتابة، وبعد يوم واحد جاء عنوان المسيو "جيلبير" في باريس، فأرسلت إليه خطاباً بفحوى الحال.

وكان ذلك في الواقع تصرُّفاً جاء في وقته تماماً؛ لأنَّ المرأة المسكينة ماتت بعد إرسال الخطاب بيومين اثنين، والواقع أنَّ " بيتو" كان صغيراً جدًّا، فلم يُدرك مدى الخسارة التي لحقت به، فبكى والدته لا عن فهم لما حلّ بينهما من فراقٍ أبدي، بل لأنَّه رآها باردة كالثلج، شاحبة اللَّون، متغيرة الملامح. وكان أيضاً لا يدري بعد تلك

(1) جان جاك روسو Jean-Jacques Rousseau( وُلد في عام1712 ، وتوفي في عام 1778 ). كاتب وفيلسوف وعَالِم نبات سويسري، ويُعد من أهم كُتَّاب عصر التنوير. من أعظم مؤلفاته كتابه المعنون: " إميل، أو في التربية " Émile ou De l›éducation ،الذي صدر في عام 1762،علي هيئة قصَّة طفل، حيث يُربي علي طبيعته بدون إجباره علي حفظ العلوم والثقافات، وبذلك يتعلَّم النشء من طبيعة ميولهم وتجربتهم الشخصيَّة.(المُعد).

الأُمّ كيف يعيش يوماً واحداً بدون كفالتها ورعايتها. لذلك تبع تابوتها باكياً إلى فناء الكنيسة، حتى إذا حان أن يودع باطن الأرض انكفأ فوقه باكياً منتحباً، ثُمَّ استقر فوق غطائه جالساً، وكان يجيب على كُلِّ دعوة توجه إليه من المشيعين أن ينهض ويمضي معهم، يهز رأسه سلباً، ثُمَّ يقول:

ـ إني لم أفارق أُمّي أبداً، وسأبقى حيث بقيت.

وعلى هذه الصورة وجده الدكتور"جيلبير"، فإن كافله منذ اليوم كان طبيباً من أغنى أطباء باريس، وما وصله خطاب الأُمّ مبيناً له مدى ما أُلقي على عاتقه بسبب وعده القديم، حتى أسرع من فوره ليفي بذلك الوعد. فوصل إلى القرية بعد ثمان وأربعين ساعة من وصول الخطاب إليه.

وكان "بيتو" قد سمع من والدته كثيراً اسم الطبيب مقروناً بالثناء والإعجاب، وكان يسيراً وسهلاً على الطبيب أن يُحبّ الغلام الصَّغير فينقاد له.

فأخذه الطبيب من يده وأركبه عربة كانت تنتظره عند باب الكنيسة، ومضى به إلى بلدة فيليه كوتريه فأنزله معه في أفخم خاناتها، وذهب به إلى أحسن الحائكين فكساه، متوخياً أن تكون الملابس أطول منه وأكبر حتى تتسع لنموّه السريع، ثُمَّ صحبه بعد ذلك إلى الحي الذي كُتب عليه أن يبقى فيه بعد ذلك تحت رعاية خالته «أنجيليك».

والواقع أنَّه لم يكن في هذه الخالة" أنجيليك" ما يجذب إليها غلاماً على غرار «بيتو» نشأ وحيد أُمّ تقوم بتدليله أرق التدليل. فهي عانس قاربت على الخامسة والخمسين من العُمْر، في وجهها ذبول من إثر العبادة والسجود المتصل. وهي من ذلك النوع النسائي الذي يقترن الزهد عنده والعبادة بالتعصُّب والقسوة ونضوج الشعور الإنساني والإفراط في النظافة والتقتير.

وقد دخل عليها الدكتور" جيلبير" وهي جالسة في ذلك المقعد، وفي يده "بيتو"

الكبير، ونقول الكبير لا الصَّغير، لأنَّ الغلام كان منذ نعومة أظفاره ظاهر الطول. فما أن رأته "أنجيليك" حتى احتضنته وقبلته مترحمة على أختها المرحومة، مُعدِّدة مناقبها وحسناتها، وكيف أنَّها حزنت عليها كثيراً.

فانتهز الدكتور هذه الفرصة ليمتحن المرأة فألقى موعظة قصيرة في واجبات الخالات نحو أبناء أخواتهن اليتامى الفقراء، فإذا بالدمعة التي كانت في جانب عين "أنجيليك" العانس قد جفت، ثُمَّ بادرت الطبيب بمُجرَّد انتهائه من موعظته بأنَّ مواردها لا تسمح لها مطلقاً مهما كان حُبَّها لأختها المرحومة، وابن أختها اليتيم بالإنفاق عليه، لأنَّها هي شخصيًّا فقيرة تقتات من فيض أكف النَّاس.

وكان الطبيب لا يُريد كما قلنا سوى امتحانها، لهذا كان مستعداً لسماع جواب الرفض، وراح يصغي بصبر ولذة إلى مرافعة العانس:

ـ إنَّه سيزيد نفقاتي، فهذا الغلام الكبير يأكل على الأقل رطلاً من الخبز في اليوم. بخلاف الصابون لغسل ملابسه، يُضاف إلى ذلك ثمن ما يلزمه من الملابس نفسها.

ـ هل أفهم من ذلك أنَّكِ ترفضين كفالة ابن أختكِ ؟

فشعرت" أنجيليك" بالمأزق، وبأنَّ سمعتها في الورع والتقوى ستكون مُهدَّدة في البلدة، كما لم يفتها أنَّ كفالة هذا اليتيم ستزيد من تلك الشهرة، وتزيد من سخاء النَّاس في التصدُّق عليها. لهذا أجابت:

ـ بل سأتكفل به، ولكني أخشى أن أتضوَّر وإياه جوعاً. ولعلني أوفق إلى إلحاقه ببعض الأديرة خادماً باللقمة.

ـ ما دمتِ في هذا الضيق الشديد حقاً يا آنستي العزيزة، فلا بأس من أن أبحث عن شخص آخر يتكفل بالغلام في نظير المبلغ الذي خصَّصته لذلك. فإني مضطر للسفر إلى أمريكا.

فكانت لكلمة "المبلغ" تأثير السحر في الخالة " أنجيليك"، إذ طوَّقت الغلام بذراعيها وراحت تغمره بفيضٍ من القُبلات، وقالت:

ـ لا تنس يا سَّيِّدي أنَّك لن تجد في العالم كُلَّه شخصاً يُحبّ أبن أختي كما أُحبّه أنا.. فإذا كنت حقاً يا سَّيِّدي ستخصص له ذلك المبلغ لقضاء حوائجه..

ـ سأخصص له ذلك المبلغ ولكن بشرط واحد : أن يتعلَّم مهنة.

ـ وأقسم لك بأيماني أنَّه سيتعلَّم مهنة.

ـ ليكن إذاً..و لكن لا يكفيني القسم، بل يجب أن توقعي تعهداً أمام موثق العقود.

ـ أوقع يا سَّيِّدي ما شئت أمام مَنْ شئت.

وهكذا توجهت الخالة "أنجيليك" مع الطبيب إلى مكتب موثق العقود الأستاذ " نيجيه " ووقعت تعهداً بتعليم الفتى مهنة شريفة وإطعامه والتكفُّل به نظير مئتي فرنك تقبضها سنوياً من الموثق. وكانت مدة هذا التعاقُّد خمس سنوات. فدفع لها الطبيب السنة الأوَّلى مقدماً، ثُمَّ أودع الثمنمائة فرنك لدي الموثق.

وفي اليوم التالي غادر الطبيب بلدة " فيليه كوتريه" بعد أن سوى بعض الحسابات مع فلاحيه.

## الفصل الثالث

# الحب يقترب من قلب الصبي

*Love is approaching the heart of the boy*

لم تكن صيغة العقد تنصّ على حِرفة مُعيَّنة يوجه إليها الفتى، لهذا تخيَّرت الخالة مُتعلِّلة بصِغر سن أبن أختها أن تكون المهنة الشريفة المنصوص عليها في العقد هي العلم والإعداد للرهبانية أو الكهنوت.

وطبيعي أنَّ " بيتو" حاول في بيئته الجديدة أن يستمر في ألعابه وحياته الفطرية الطليقة التي ألفها في بيت والدته. وكان صعب المراس عنيداً، وكان أيضاً لا يخلو من مكر فطري، فصح ما رتبه في ذهنه من جشع خالته وغفرانها لعبثه بثمن من الطيور الكثيرة التي كان يصطادها، ويأتيها بها آخر اليوم. فراحت تشجعه على صيد الطيور والأرانب البرية، حيث يأكلان اللحم ويبيعان الريش والجلود.

ولم تنس الخالة "أنجيليك" في صلاتها أن تشكر الرَّبّ، مُردِّدة ألَّا يضيع أجر المحسنين، فقد كان جزاء إحسانها إلى ابن أختها أنْ وجدت فيه مصدراً للرزق والتجارة الرابحة إلى ما تحظى به من الطعام الجيد !

ولم تنس الخالة الورعة أيضاً أن تستخدم تكتيكاً بارعاً، فكانت تهدي القسيس

الأب "فورتييه" بعض الأرانب والطيور التي يصطادها "بيتو"، فكان الأب يذكرها بالخير لدى المحسنين من رعاياه، فتزيد بذلك أرباحها من كُلِّ جهةٍ.

وهكذا بدأ "بيتو" عند خالته حياة شبيهة بحياته في مسقط رأسه. واستمرت الحال على هذا النحو ثلاثة أشهر أو أربعة، إلى أن وصل خطاب من الدكتور "جيلبير" من مدينة نيويورك، يستفهم من الموثق "نيجيه" عن مدى تنفيذ شروط العقد، فذهب الموثق إلى منزل الخالة، فأحسنت استقباله واستمهلته ثمانية أيام ريثما تُفكِّر وتحزم أمرها.

وكان الشتاء قد أقبل فلم يعد هناك مجال للصيد والقنص. فاهتدت الخالة في هذه المهلة إلى الحلّ الموفق السعيد، وهو أن تحمل الأب" فورتييه" على تعليم "بيتو" وإعداده للفوز بالبعثة التي خَّصصها دوق أورليان لطالب في كُلِّ سنة يدرس في الدير الكبير. فهي مهنة شريفة، وهي في الوقت نفسه لا تكلف شيئاً من المال على الإطلاق. وخاصَّة أنَّ الوقت سيتسع لـ"بيتو" بعد الظهر وفي الليل وفي الفجر لصيد الأرانب والطيور بفخاخه ووسائله الأخرى.

وهكذا صار "بيتو" تلميذاً في معهد الأب "فورتييه" المحترم. وكان هذا الأب رجلاً فاضلاً كريم النفس يجود على الفقراء برعايته وماله. ولم يكن يعيبه إلَّا شيء واحد هو أنَّ الركاكة وسوء التعبير جريمة لا تُغتفر إذا تعلَّق الأمر باللُّغة اللاتينية. وكُلَّما اخطأ تلميذ من تلاميذه خطأ من هذا القبيل، امتدت إليه يد الأستاذ طويلة شديدة الوطأة، ولهذا كان "فورتييه" يتصوره النَّاس في صوره سَّيِّده ومولاه الراعي الأعظم، فاتحاً ذراعيه للصِّغار قائلاً:

ـ دعوا هؤلاء الصِّغار يأتون إليَّ.

ولكن مع فارق واحد أنَّ السَّيِّد المسيح كان يفتح ذراعيه في حنانٍ وعطفٍ، أمَّا الأب "فورتييه" فكان يفتحهما مليئتين يمناه بعصا، ويسراه بسوطٍ !

وتوالت الأيام على "بيتو" في معهد الأب المحترم لائذاً بالصمت أثناء الدرس، قليل الاستعداد لهضم ما يتلقاه من المعلومات أو استذكارها فلما عُقد الامتحان الأوَّل بعد أسبوع، ثُمَّ الامتحان الثاني والثالث رسخ لدى الأب "فورتييه" اعتقاد جازم بأنَّ" بيتو" لا يمكن أن يغدو يوماً ما من مفاخر الرهبانية المستنيرة.

يُضاف إلى هذا أنَّ اختلاف المعدن بين "بيتو" وسائر الأولاد في المدرسة كان سبباً في عداوة جماعه منهم له بغير سبب أو مبرر، فهو لم يقترف في حق أحدهم أساءه، فاضطر أخيراً أن يلجأ إلى المقاتلة للتغلُّب على هؤلاء الأعداء وإخضاعهم، فانذرهم ذات يوم أنَّه على استعداد لمبارزتهم واحداً بعد الآخر، فأثار هذا التحدي جميع تلاميذ الفصل، وسرعان ما وقف الجميع حلقه حول ميدان المبارزة، واصطف الفريق السداسي ثُمَّ تقدَّم أولهم فخلع سترته وانبرى لـ"بيتو".

وكانت لـ"بيتو" يدان كبيرتان لا تسران الناظر، فما أطبقتا على شيءٍ وأفلت منهما سليماً. وكان يتحرى "بيتو" أن يكيل اللكمات لعين الخصم حتى تتورَّم ولا يقدر على متابعه القتال. وهكذا انسحب المبارز الأوَّل بعد دقيقتين. وقد رسم "بيتو" بيده حول عينه دائرة لا يستطيع أبرع المهندسين أن يرسم ما هو أكمل منها استدارة ودقه، وبمِداد أسود قاتم السواد.

حلّ محلَّه مُنازل آخر كان أقل من الأوَّل قوَّةً وبأساً فلم تدم المعركة طويلاً لأن "بيتو" وجه لكمته الأولى بكُلِّ قوَّته إلى أنف ذلك الخصم الجديد، فسرعان ما تدفقت الدماء من أنفه في جدولٍ مزدوج.

وأمَّا الخصم الثالث فلم يخرج من المعركة إلَّا بلكمةٍ أطاحت أحد أضراسه !

وكان ذلك نهاية مغامرة هؤلاء الصبية، فقد أعلن الثلاثة الباقون انضمامهم لزملائهم السَّابقين مكتفين بجهودهم في إثبات بطولة " آنج بيتو".

وانسحب "بيتو" مزهواً إلى بيت خالته.

وفي الصباح التالي ذهب المهزومون الثلاثة إلى المدرسة تحمل وجوههم آثار الهزيمة، فأجرى الأب "فورتييه" تحقيقاً انتهى بوصوله إلى الحقيقة.

ولمَّا كان الأب "فورتييه" مسؤولاً عن تلاميذه في المدرسة أمام أولياء أمورهم، فقد عاقبه بالحبس في فسحه الغذاء ثلاثة أيام متوالية، يوماً للدائرة التي رسمها حول عين زميله الأوَّل، ويوماً للتورُّم الذي أصاب أنف الزميل الثاني، ويوماً ثالثاً للضرس الذي فقده زميله الثالث.

وقد كان لذلك الحبس أثر حاسم، إذ فتح عيني الآنسة " أنجيليك " إلى فكرةٍ عبقريةٍ مؤداها أن تحرمه من وجبه الغداء كُلَّما عاقبه الأب " فورتييه" بالحبس في فسحه بعد الظهر. فكان ذلك سبباً في تحرى " بيتو" الحذر والدقة حتى لا يرتكب خطأً يدفع له ذلك الثمن الفاجع.

بيد أنَّ ذلك لم يفلح في تغيير شيء واحد ظل على حاله في حياه الطالب "بيتو"، وهو فشله في إجادة الكتابة باللُّغة اللاتينية، وهى لغة العلم الوحيدة لذلك الزمان.

وكان "بيتو" يقضى أيام الآحاد في الحقول والبراري باحثاً عن الحيوانات الغريبة النادرة، والحشرات ودودة القز.

وفي بعض جولاته اكتشف مزرعة الأب "بيو"، ومن المصادفات أنَّه مرّ بباب بيته فوجد فتاه جميلة في نحو السَّابعة عشرة من عُمْرها، نادرة الحُسن، دافقة الحيوية، رشيقة، ضاحكة، مرحة، وكان اسمها "كاترين بيو".

وقد بدأ "بيتو" صلته بها بالانحناء في غدوه ورواحه من أمامها، وأخيراً تجاسر ذات مرَّة بعد أن انحنى، فابتسم لها وقال في تلعثم:

ـ طاب يومكِ يا آنسة.

وكانت "كاترين" فتاة طيبة القلب،تألف الجميع. فرحبت بالفتى كأنَّه صديق

قديم. والواقع أنَّه كان كذلك فقد قضي الأعوام الثلاثة الأخيرة يمرّ من أمامها مرَّه كُلّ أسبوع على الأقلِ. وكانت هي أكبر منه بنحو عام، فكان تأثيرها عليه قويًّا.

وقد عرفت "كاترين" لـ"بيتو" قدره ومواهبه عن طريق ما كان يُقدمه إليها من صفوه صيده من الطيور الجميلة والأرانب السمينة. ولكن كان لذلك الانعطاف على "بيتو" أثر عكسي في نفسه وفي سلوكه، فبدلاً من أن يمرّ بالبيت مر الكرام إلى حيث ينصب فخاخه وشِراكه ويقضى يومه متربصاً بفرائسه، صار يقضى اليوم متسكعاً حول بيت الأب "بيو" عساه يحظى بلمحةٍ منها ولو عابرة، فهبطت حصيلته من جلود الأرانب، وهبط إيراد الخالة "أنجيليك" فأحزنها ذلك كثيراً، وعلَّل لها "بيتو" المسألة بأن الأرانب والطيور صارت في الأيام الأخيرة شديدة المكر والحذر، فكانت الخالة" أنجيليك" تعزى نفسها بأنَّ ابن أختها سيغدو عمًّا قريب راهباً ثُمَّ قسيساً، وستتولى هي أداره بيته جزاء برها به وكانت تلك أمنيتها الكبرى في أخريات العُمُر.

ولكن هذه الأمنية ذهبت هباء حين استدعاها الأب "فورتييه" وأكَّد لها أنَّ ابن أختها ميئوس من نجاحه وفوزه بالبعثة المنشودة إلى الدير؛ لأنَّه لا يُحسن الكتابة باللُّغة اللاتينية على الإطلاق.

وبعد يومين طرده الأب "فورتييه" من مدرسته وأخذ "بيتو" طريقه إلى بيت خالته منكس الرأس، من أثر الصَّدمة المميتة، فهو لا يدرى كيف يواجه مستقبله، بل هو مشفق أكثر من هذا كُلَّه كيف يلقى ويواجه خالته " أنجيليك"، فقطع المسافة التي لا تزيد عن ثلاثمئة متر في نحو نصف ساعة متسكعاً يبحث عن مخرج من الورطة التي ألقى نفسه فيها.

وأخيراً هداه تفكيره إلى حل وقتي، فدخل البيت وبادرها بقوله:

ـ أنا مريض يا خالتي أنجيليك.

فقد وجد هذه الطريقة هي المنقذ الوحيد له من غضب خالته عليه، فأجابته الخالة:

ـ أعرف مرضك أيها الخبيث.. إنَّه، الشوق إلى الرغيف.

ـ كلا والله فلست جائعاً.

ـ إذاً ما الخبر ؟ اقترب منى واخبرني بسرعةٍ.

فاقترب منها وهو يدعك عينيه بيديه ويقلب سحنته مجتهداً في بعث الدموع إلى عينيه.

ـ آه يا خالتي العزيزة الطيبة ! لقد نزلت بي كارثة كبرى.

ـ وما هي ؟

ـ لقد طردني الأب فورتييه من المدرسة نهائياً.

ـ إذاً لم تعد هناك امتحانات ولا مسابقه ولا بعثه ولا دير ! لم تعد هناك كنيسة أنت قسيس فيها، ولست أنا إذاً مدبره بيت هذا القسيس ؟

فكان كُلّ جوابه عليها نشيج وعويل أشبه بالعواء.

ـ إذاً أيها الملعون أنت الذي جلبت ذلك على نفسك بهروبك من المدرسة وتقصيرك في دروسك، فقد شاهدك بعضهم يوم الأحد في وادي التنهدات مع بنت بيو.

ولم تكن العانس تدرى شيئاً عن الموضوع ولكنَّها استباحت لنفسها الكذب لتستدرجه إلى الإدلاء بالحقيقة، وكان ابن أختها عند حُسن ظنها، أو سوء حظها، إذ قال:

ـ لا يمكن أن يكون أحد قد رآنا عند وادي التنهدات، فقد كنا نتنزه تحت أشجار البرتقال !

ـ يا منحوس ! ها أنت قد اعترفت أنَّك كنت معها.

ـ ولكن يا خالتي لا علاقة للآنسة بيو بما حدث.

ـ ها تدعوها انسه لتغطى سلوكك الشائن. ولكنَّى سأعرف كيف أجعل قسيس اعتراف هذه المتشردة ينتزع الحقيقة منها عن مدى علاقتها بك.

ـ صدقيني يا خالتي ليس بيننا أي شيء. بل إن كاترين تدفعني بعيداً عنها دائماً.

ـ ها أنت هذه المرَّة تدعوها كاترين لا الآنسة. ها. إنَّها أيها الغبي تدفعك بعيداً عنها على مرأى من النَّاس فقط.

فحك "بيتو" رأسه وحملق بعينيه في خالته، وقال:

ـ هه.. ماذا تقولين ؟ ما أغباني فعلاً ! هذا صحيح ! تدفعني بعيداً عنها حينما يكون هناك آخرون.

ـ أترك هذه المسالة لي. فإذا كانت هذه المتسكعة مع الصبيان في حاجةٍ إلى دير يُعلِّمها الأدب فسوف أتسبب في إلقائها في دير سان ريمى المشهور بالصرامة والتأديب.

ـ رحماكِ ياخالتى رحماكِ ! صدقني أنَّه لا علاقة للآنسة بيو بطردي من المدرسة. فالسبب في هذه النكبة هو عدم صلاحيتي للكتابة اللاتينية. بحيث لا أصلح أبداً لدخول المسابقة.

ـ وماذا سيكون من أمرك ؟

ـ لا أدرى.. لتفعل العناية الإلهية بي ما تشاء.

وتجسَّم أمام العانس "أنجيليك" مستقبلها القاتم، وقد تبددت آمالها، فقفزت واقفة ثُمَّ انطلقت خارجه نحو منزل الأب "فورتييه" لتحاول معه محاوله أخيرة عسى أن يُغيِّر رأيه.

وتتبع "بيتو" خالته بعينيه حتى اختفت، فوقف على عتبه الباب ينتظر عودتها، وفيما هو كذلك مرَّت في الشارع العام من أمام الحارة فتاه شابة، فوق صهوة جواد على جانبيه سلتان كبيرتان في أحداهما دجاج وفي الأخرى حمام.

وكانت هذه الفتاه "كاترين". فلما لمحت "بيتو" واقفاً ببابه توقفت، فأحمر وجهه كعادته ووقف مفتوح الفم يتطلَّع إليها بإعجابٍ وهيام، لأنَّ الآنسة "كاترين" كانت في نظره مثال الجمال البشري المُجسَّم.

وألقت الفتاه نظره على الشارع حولها، ثُمَّ حيَّت "بيتو" بإيماءةٍ لطيفةٍ واستأنفت سيرها، تاركه "بيتو" تختلج أعضاؤه جميعاً بنشوةٍ جارفةٍ.

وقد استغرقته هذه النشوة استغراقاً تاماً، ومدة طويلة، بحيث لم ينتبه إلى وصول خالته "أنجيليك" من بيت الأب "فورتييه"، إلَّا حين تناولت يده وقد شحب وجهها غضباً، ثُمَّ جرته إلى الداخل وتناولت يد مقشة لتضربه، فانتزع يده من يدها ولاذ بالفرار.

## الفصل الرابع

# كتاب الحرية

## Freedom Book

راح "بيتو" يعدو كأن جميع شياطين الجحيم في أعقابه، فما هي إلَّا ثوان معدودات حتى كان خارج البلدة، فلما أراد أن يدور حول المقابر كاد رأسه يصطدم بمؤخرة حصان، وصاح صوت ناعم جميل يعرفه "بيتو" جيداً:

ـ أوه لماذا تعدو هكذا يا مسيو أنج ؟ لقد كدت تفزعني وتفزع حصاني.. ماذا حدث ؟

ـ آه يا آنسة كاترين، لقد حلت بي كارثة !

ـ لقد أفزعتني ! ماذا جرى إذاً ؟

ـ جرى ؟ جرى أنَّني لن أكون قسيساً يا آنسة.

ولكن بدلاً من أن تتلقى الآنسة "كاترين" هذا النبأ بالبكاء أو الإغماء، انطلقت في عاصفةٍ من الضحك، ثُمَّ قالت:

ـ ألن تصبح قسيساً أذاً ؟

ـ كلا. يبدو أنَّ هذا مستحيل.

ـ إذاً فلتصبح جندياً.

ـ جندياً ؟

ـ بلا شك. هذا ممكن جدًّا. ولا يجب أن تيأس لأمرٍ تافه كهذا. لقد خُيِّل إليَّ من أوَّل وهلة أنَّك ستخبرني أنَّ خالتك ماتت.

ـ خالتي ؟ لقد هربت منها وانتهى ما بيننا.

ـ أحسن.

ـ أنتِ تضحكين طبعاً يا آنسة بيو، فمَنْ يده في النَّار ليس كمَنْ يده في الماء.

ـ ومَنْ يدريك أنَّني لا أكترث إذا أصابتك كارثة حقيقية ؟

ـ وهذه كارثة حقيقية ! فلا مورد لي سوى خالتي.

ـ أشتغل إذاً واكفل نفسك.

ـ أشتغل ؟ وماذا أشتغل ؟ لطالما أخبرني الأب فورتييه وأخبرتني خالتي أنجيليك أنَّني لا أصلح لشيءٍ. آه لو أنَّهم علموني النجارة أو الحِدادة بدلاً من هذه العلوم العويصة.

ـ معك حق. ولكن أحسب أنَّ لك حامياً هو الدكتور جيلبير، فلماذا لا تكتب إليه ؟ فأني أحسبه لا يتخلى عنك.

ـ أفعل لو أنَّني أعرف عنوانه. ولكن أظن والدك يا آنسة يعرفه، فهو من مستأجري أراضي الدكتور جيلبير.

ـ أنا أعلم أن أبي يبعث بنصيبٍ من الإيراد إلى الدكتور في أمريكا، ويدفع الباقي إلى موثق العقود في باريس.

ـ الدكتور في أمريكا إذاً ؟ أمريكا مكان بعيد.

ـ وهل ستذهب إلى أمريكا ؟

وكانت لهجتها في السؤال تدل على فزعٍ شديد.

ـ مَنْ ؟ أنا أذهب إلى أمريكا ؟ أبداً.

وساد الصمت لحظة، والحصان يمشي علي مهلٍ بالفتاة، و"بيتو" يسير معه خطوة بخطوة، إلى أن وقف الحصان فوقف" بيتو"، وكان ذلك عند باب المزرعة. وصاح رجل عريض الأكتاف:

ـ أهذا أنت يا بيتو ؟

ـ أي والله ! أنا هو يا مسيو بيو.

وقالت الفتاة وهي تقفز من فوق الحصان:

ـ لقد حلت بالمسكين كارثة جديدة. فقد طردته خالته !

ـ وماذا صنعت بها حتى طردتك يا بيتو ؟

ـ إنَّني ضعيف جدًّا في اللاتينية وفي الإغريقية.

ـ ولماذا تُريد أن تكون قوياً في الإغريقية ؟

ـ كي أقرأ الإلياذة وتاريخ توسيديدس.

ـ ولماذا تريد أن تقرأهما ؟ ما جدوى هذه القراءة ؟

ـ أن أغدو قسيساً.

ـ وهل أعرف أنا اللاتينية أو اليونانية، حتى الفرنسية ؟ هل أعرف القراءة والكتابة ؟ وهل يمنعني هذا من البذر والري والحصاد على أحسن وجه ؟

ـ ولكنك يا مسيو بيو لست قسيساً، أنت فلاح.

ـ وهل تظن الفلاح ليس نداً لصاحب الرداء الأسود ؟

ـ طالما كرروا على مسمعي أنَّ القسيس أحسن رجل في العالم.

ـ خدعوك ! أنا أعتقد أنَّك تصلح لما هو خير من أن تصبح قسيساً عليك يا ولدي بالفلاحة، وصدقني أنَّ المستقبل ليس لِرِجال الكهنوت، فعن قريب ستهب عاصفة تقلب الدنيا رأساً على عقب، ولن يخرج منها القساوسة ظافرين سالمين، والآن خبرني ماذا تُحسن وتُجيد ؟

ـ لا شيء أكثر من نصب الفخاخ للأرانب وصيد الطيور، ومحصولي العلمي في حكم العدم.

ـ لستُ أعني هذا.. بل أعني هل أنت كسول يكره العمل ؟

ـ صدقني أنَّني لا أدري، فإنَّي لم أجرب العمل قط.

فانطلقت "كاترين" ضاحكة لهذا الجواب، أمَّا والدها فعبس وقال:

ـ يا لهؤلاء القساوسة المناكيد ! هكذا يفسدون تربية الصبيان ويربونهم على الخمول والبطالة؟ أي فائدة فيمَنْ يُربي هذه التربية لإخوانه في الإنسانية ؟

ـ لا فائدة لي على الإطلاق ولا لأخواني، ومن حُسن الحظ أنَّه ليس لي أخوان.

ـ أعني المجتمع.. فالنَّاس جميعاً أخوة.

ـ أجل. هذا مذكور في الإنجيل.

ـ وسواسية..!

ـ آه. هذا موضوع آخر.

ـ بل سواسية. وسنبرهن على هذا رغم أنف الطغاة. ودليلي على ذلك الآن أنَّني سأدخلك إلى بيتي وأقيمك فيه.

ـ تدخلني إلى بيتك ؟ أتعني ما تقول ؟ ألَّا تهزأ بي ؟

ـ كلا بل أعني هذا. والآن خبرني ماذا تحتاج إليه كي تعيش ؟

ـ رغيفاً وقطعة جبن.

ـ ما أهون هذا ! أراك أنَّه لن تكلفنا كثيراً في طعامك.

وهنا تدخلت "كاترين"، فقالت:

ـ أليس لديك ما تسأل فيه أبي ؟

ـ أنا يا آنسة ؟ لا وربي !

ـ تذكَّر. لماذا أتيت إلى هنا إذاً ؟

ـ لأنَّكِ كنتِ آتية.

ـ هذه مجاملة رقيقة منك. ولكن أُذكرك أنَّ حقيقة السبب في حضورك للسؤال عن عنوان ...

ـ آه الآن فقط تذكرت. فقد نسيت الموضوع بأكمله.. أنَّني يا مسيو بيو كنت أُريد أن أعرف عنوان الدكتور جيلبير.

ـ كنت ؟

ـ نعم كنت. فلا حاجة بي الآن إليه ما دمت ستأخذني وتضمني إلى مزارعك، ريثما يعود على مهله من أمريكا.

ـ إذا كان الأمر كذلك يا بُني فلن يطول انتظارك.

ـ هل سيعود قريباً من أمريكا إلى فرنسا ؟

ـ بل عاد فعلاً. فقد وصل منذ أسبوع إلى ميناء الهافر. وقد وصلني منه اليوم خطاب مع طرد صغير.

ثُمَّ قدَّم الخطاب إلى "كاترين"، فقرأت فيه ما يأتي:

"عزيزي مسيو بيو...

لقد عدت من أمريكا حيث وجدت شعباً أغنى وأعظم وأسعد من شعبنا. ذلك أنَّه شعب حُرّ، ونحن لسنا أحراراً. بيد أنَّنا نقترب من عهدٍ جديدٍ، وعلى كُلّ واحد

منا أن يعمل جاهداً كي يقرب ساعة بزوغ شمس ذلك العهد. وأنّي أعرف عقيدتك يا مسيو بيو ومدى تأثيرك على زملائك الفلاحين وعلى سائر الأهالي من الصُناع والأجراء، تأثيراً أبويًّا. فبث في نفوسهم التضحية والإخاء. وأني باعث إليك بطرد صغير فيه كتاب قمت بتأليفه وإن لم أطبع أسمي عليه. فأنشر ما فيه من المبادئ الإنسانية، وأحرص على أن يتلى على أسماع النَّاس والفلاحين خاصَّة في سهرات الشتاء حول النَّار. فالقراءة غذاء العقل كما أنَّ الخبز غذاء الجسد. وأعلم أنَّني سأزورك لأقترح عليك نظاماً جديداً في الإيجار هو السَّائد في أمريكا، وهو نظام المناصفة في المحصول بين المالك والفلاح، فأني أرى ذلك هو أقرب إلى المبادئ الفطرية في المجتمع الطبيعي، وهو على الخصوص أقرب إلى تقوى الله.

دامت لك الصحَّة والأخوة.

أُندريه جيلبير

مواطن من فيلادلفيا

وأبدت الفتاة إعجابها بالخطاب، أمَّا " بيتو" فصاح:

ـ كلام جميل وبيان رائع.

فقال الأب " بيو" وهو يعطيه الكتاب:

وهذا عمل قد أعده الله لك. فعليك أنت مهمة قراءة هذا الكتاب في جلساتنا المسائية.

وكان عنوان الكتاب: " استقلال الإنسان وحُرِيَّة الشعوب"

## الفصل الخامس

# الرقصة الأولي !!

## The first dance !!

نزل "بيتو" في بيت المسيو "بيو" على الرحب والسعة، ووجد في زوجته سَيِّدة رحيمة طيبة القلب نفذت إلى قلبه بسهولةٍ جراء ما وفرته له من طعام جيد وفير.

أمَّا "كاترين" فزاد أنساً بها وراحت تفتح عينيه على أمور الحياة التي كان يجهلها في بيت خالته، وفي معهد الأب " فورتييه "، فعرف قيمة الأناقة والرشاقة، وأصول الكلام، وأهمية الرقص، وأدرك مبلغ ما ينقصه كي يكون إنساناً متحضراً.

وعرف من الأب " بيو " نفسه أنَّ الدكتور " جيلبير " كان قد دفع عن السنوات الخمس الماضية ألفا ذهباً لخالته، فأدرك وهو الذي تعلَّم بالمجان، وأكل الكفاف أنَّ هذه الخالة أصبحت ثرية من ورائه، حتى إذا انقضت السنوات الخمس المنصوص عليها في العقد ألقت به في عرض الطريق.

وعرف شيئاً آخر أكثر من هذا أهمية، فإنَّ الألفة بينه وبين " كاترين " جعلتها تدقق النظر في خلقته، فصارحته أنَّها تجد تقاطيعه غير منتظمة، ويديه أكبر ممَّا

يجب، وركبتيه أضخم ممَّا ينبغي، وساقيه طويلتين طولاً يمنعه من أجادة الرقص. ولكنَّها عقبت على هذه الملاحظات بقولها في تلطف باسم:

ـ ولكنَّي أراك رائعاً كما أنت على العموم.

وكان هذا الكلام عقب ظهوره بملابسه الجديدة صباح الأحد، ثُمَّ انصرفت الفتاة وأُمَّها لحضور صلاة القداس في الكنيسة، أمَّا المسيو " بيو " فأخذ " بيتو " من يده قائلاً:

ـ تعال معي، فهناك مَنْ ينتظرنا.

فانحنى «بيتو» بوقارٍ شديدٍ لمدام «بيو»، والآنسة «كاترين»، ثُمَّ تبع المسيو «بيو» في وجهته الغامضة مرفوع الرأس مزهواً بأن يُعامل لأوَّل مرَّة في حياته معاملة الرِّجال فلا يصحب النساء إلى الكنيسة.

وكان في انتظارهما جمعٌ كبيرٌ من الفلاحين في الجرن. فالمسيو " بيو " كان محل احترام أجرائه وجيرانه، فبادروا إلى تلبية دعوته، يُضاف إلى ذلك أنَّ الخواطر في هذا الوقت قَلِقة، فالجماهير تنتابها قبيل الحوادث الجسام أعراض كأعراض الحُمَّى تجعلها غير مستقرة على حال، تتلمس وجهة تحسها في أعماقها ولكنَّها لا تدري على وجه التحديد ما هي هذه الوجهة.

وكانت قد شاعت في النَّاس كلمات ومعان جديدة يتفق شيوعها وانتشارها دائماً عند نشوء «وعي جديد». وكانت هذه الكلمات التي تناولتها الأفواه والأسماع لذلك العهد، هي: الحُرِّيَّة، والاستقلال، والمساواة.

ومن العجب الشديد أنَّ هذه الكلمات قد سارت أوَّل مسارها لا على ألسنة العامَّة والدَهْماء[1]، بل على ألسنة النبلاء في أوَّل الأمر، فهم الذين تطوعوا متحمسين

(1) دَهْماءُ: أي عامَّةُ النَّاس.(المُعد).

في حرب الاستقلال الأمريكي، وساهموا بسيوفهم ودمائهم في إقامة صرح تلك الجمهورية الحُرَّة بلبنات متماسكة من الأشلاء والدماء.

ففي ذلك اليوم الموعود إذاً كان قد اجتمع في الجرن نحو خمسة وعشرين رجلاً كُلَّهم من الأجراء الذين يعملون لحساب مسيو «بيو» ويحفظون له العهد شاكرين له ما يجزل لهم من عطاء وما يتكرم به عليهم من طعام أضافي وهبات.

فلما دخل عليهم المسيو «بيو» يتبعه «بيتو» وقفوا جميعاً حاسري الرؤوس ولوحوا بقبعاتهم مرحبين، وقد بدا على وجوههم واضحاً أنَّهم على استعداد لمواجهة الموت واقتحام النَّار إذا بدرت من المسيو «بيو» أقل إشارة.

وقد بدأ المسيو " بيو" فذكر لهم أنَّ الكتاب الذي سيتلوه عليهم «بيتو» من تأليف الدكتور "جيلبير"، وكانوا جميعاً يعرفونه ويحبونه ويجلونه.

وبدأ «بيتو» يقرأ، وهم يصغون إليه في انتباهٍ شديدٍ، على قلة محصولهم من الفهم والعلم. بيد أنَّ كثرة تكرار كلمات الحُرِّيَّة والاستقلال والمساواة كانت بمثابة انبثاقات من النور في ظلام جهلهم الدامس، فكانوا يصفقون لها بحماسةٍ شديدةٍ هاتفين بحياة الدكتور "جيلبير".

وأتم «بيتو» في هذه الجلسة قراءة ثلث الكتاب، وتقرَّر قراءة الثلثين الباقيين في يومي الأحد التاليين، ودُعي الحاضرون فوعدوا جميعاً بتلبية الدعوة.

وكان " بيتو" قد أحسن القراءة فأثنى الجميع عليه وصفقوا له، وشعر المسيو «بيو» نفسه نحوه بشيءٍ من التقدير، ولم يُكدِّر عليه ذلك المجد سوى أمل واحد، أنَّ الآنسة «كاترين» لم تكن هناك لتشاهد ذلك المجد وتُساهم في الإعجاب به. ولكن عوضه عن ذلك أنَّ المسيو «بيو» قصّ الموضوع كُلَّه على زوجنه وابنته بمُجرَّد عودته إلى البيت مع «بيتو».

ولم تعلق زوجته بشيءٍ على ما سمعت، فقد كانت امرأة ساذجة قصيرة النظر، أمَّا " كاترين" فابتسمت ابتسامةً حزينةً، وقالت:

ـ أخشى يا والدي أن تكون مُقِدماً على اللَّعب بالنَّار. فقد قيل لي أنَّ عيوناً تترصد حركاتك.

ـ ومَنْ الذي قال لكِ هذا ؟

ـ إنَّه شخص من المفروض أنَّه مطلع علي بواطن الأمور،هو المسيو «دي شارني»، الذي جمعني به حفل الأحد الفائت.

ـ هل لكِ أن تنقلي إليه من جانبي نصيحة، أن تُحسن جماعته من النبلاء السلوك في الجمعية الوطنية، و سيما أخوه «أوليفر» الذي يُقال أنَّه على أوثق الصلات بالمرأة النمساوية التي يدعونها «ماري أنطوانيت»!

ـ أنَّه لم يقصد سوءاً بنصيحته، وأنت حُرّ في تصرُّفاتك على كُلِّ حال.

وختم الموضوع عندئذ، ثُمَّ قُدم طعام الغداء. وكان اليوم هو الثاني عشر من يوليه، وفي السَّاعة الرابعة خرج «بيتو» وقد تأبطت ذراعه فاتنة قلبه الآنسة «كاترين»، والأرض لا تكاد تسعه من فرط الزهو والسرور.

ولمَّا كانت حلقة الرقص لا تبدأ قبل السَّاعة السَّادسة، فقد اتسع أمامهما الوقت للتنزه في وادي التنهدات، ومشاهدة السَّادة من الشبان يلعبون التنس تحت إشراف مُدرِّب صاحب السمو دوق أورليان.

وهناك انفتحت الفرصة أمام «كاترين» لتعرض ثوبها الجديد الجميل، وراق أيضاً في نظر "بيتو" أن يعرض بذلته الزرقاء الجديدة وقبعته الأنيقة. ولمَّا كان روَّاد هذا المكان لم يروا "بيتو" من قبل، فقد ظنوه شاباً زائراً من أقرباء «آل بيو»، وذهب بعضهم إلى القول أنَّه خطيب "كاترين"، بيد أنَّ «بيتو» بدَّد هذه الشبهات حين عرَّفهم بنفسه، فسرعان ما تناقلت الأفواه اسمه مقروناً بالدهشة لما طرأ عليه من تغيُّر

في الشكل والملبس والظروف الاجتماعيَّة. وقد وصل ذلك الهمس سريعاً إلى سمع خالته «أنجيليك»، فحدَّقت فيه ثُمَّ أكَّدت أنَّه ليس «بيتو»!

وبعد قليل بدأ الرقص داخل البناء، ومرّ بقربهما عند المدخل شاب ممَّن كانوا يلعبون التنس في الخارج، فانحني لـ" كاترين " باسماً، فأجابته بانحناءةٍ وقد اكتسي وجهها باللَّون الأحمر. وفي الوقت نفسه شعر برجفةٍ.

فقال «بيتو» لـ«كاترين»، بعد أن ابتعد الشَّاب:

ـ هذا هو مسيو " دي شارني" ؟

ـ أجل، أنت تعرفه إذاً ؟

ـ كلا، ولكني ظننت فصدق ظني.

وكان ذلك الشَّاب أنيقاً جدًّا في نحو الرابعة والعشرين من عُمْره، وسيماً، معتدل القامة، حلو القسمات، رشيق الحركات شأن جميع الذين نشئوا في كنف الأرستقراطية منذ نعومة أظفارهم، فرضعوا لبنها تربيةً وسلوكاً، حتى اصطبغوا بصبغتها في كُلِّ شيءٍ. يُضاف إلى ذلك أنَّ المسيو "دي شارني" كان مشهوراً بين النبلاء أنفسهم بأناقته المثالية وذوقه الرفيع.

وهو الشقيق الأصغر للكونت[1] " دي شارني " عضو الجمعية الوطنية. وقد أثرت فيه برغم حداثة سنه كثرة السهر والمقامرة والانهماك في اللذات، فتركت في صحَّته ووجهه آثاراً مبكرة.

(1) الكونت: لقبٌ يُطلق على النبلاء أو الشخصيات ذات الثراء والمركز الاجتماعي المرموق في البلدان الأوروبيَّة في العصور الوسطى، حيث استعمل هذا اللقب منذ أواخر عصر الإمبراطورية الرومانيَّة باشتقاقه من مصطلح Comes ،أو باللاتينية comitis ويعني "الرفقة الإمبراطورية"، أو "الحاشية". (المُعد).

أمَّا صاحبنا "بيتو" فقد ترك في نفسه مظهر الشاب أثراً من الحسرة والارتباك والأسى، فلاذ بصمتٍ حزين.

وتقدَّم الشَّاب بعد قليل فأومأ إلى " بيتو " محيياً، ثُمَّ سأل "كاترين" عن صحَّتها وصحَّة والدها، وطلب منها أن تمنحه الرقصة الأولى، فقبلت مسرورة. وكان «بيتو» قد لاحظ عند اقتراب الشَّاب منهما أنَّ وجهها كان يزداد احمراراً بمقدار إقباله نحوها، فزاد ذلك من شعوره بالتعاسة والحسرة على نفسه، فراح يحملق في الشَّاب الارستقراطي وهو يكاد يلتهم لهجته ووقفته وإشاراته التهاماً.

وكانت لحظات الرقصة الأولى من أحلك لحظات حياة «بيتو». ولكن «كاترين» لم تكن تدري شيئاً عمَّا يدور في نفسه، فقد كانت بادية السرور والخيلاء لمراقصة أوسم الراقصين في الجماعة كُلِّها. والواقع أنَّه كان راقصاً بارعاً جدًّا، حتى أنَّ «بيتو» أعجب به برغم أنفه.

فلما انتهت الرقصة وعادت إليه «كاترين» وجدته شاحب الوجه جدًّا، فانزعجت وسألته عن حاله، فقال:

ـ حالي أنَّني لن أجرؤ على مراقصتكِ بعد أن رأيتكِ تراقصين المسيو دي شارني الآن.

ـ يجب ألَّا تثبط عزيمتك على هذا النحو، فتتعلَّم الرقص وسترقص معي كأحسن ما يكون.

ـ إنَّكِ تخدعينني لتغريني، فأنا أعلم أنَّكِ تسرين سروراً خاصاً بمراقصة المسيو دي شارني النبيل.

ولم تجب «كاترين»، لأنَّها لا تحب الكذب. ولكنَّها أدركت أنَّ شيئاً غير مألوف يدور في أعماق هذا الفتى المسكين، فزادت في التلُّطف والتودُّد إليه. لكن هذا لم يثمر في رده أو عودته إلى البشاشة المفقودة.

ورقصت " كاترين " بعد ذلك خمس مرَّات كانت آخرها مع الفيكونت «دي شارني»، وقد تتبعهما «بيتو» بأنظاره ولاحظ تهامسهما. فلما انتهت تلك الرقصة أعلنت "كاترين" عن رغبتها في العودة، فأدرك " بيتو" أنَّها لم تنتظر إلى الآن إلَّا لكي تحظى بهذه الرقصة الثانية مع الفيكونت.

وفي الطريق ظلّ «بيتو» واجماً، صامتاً فلما استفسرت منه، قال:

ـ أعذرني ألَّا أكلمكِ لأني لا أحسن أن أتكلم على نحو ما يتكلم المسيو دي شارني، ثُمَّ ماذا عساي أن أقول بعد الكلام اللطيف الذي لا شك أنَّكِ سمعتِه منه أثناء الرقص بصوته الهامس.

ـ أراك تسرف على نفسك وعلى النَّاس. فقد كان حديثنا عنك.

ـ عنى أنا يا آنسه ؟ وكيف كان ذلك ؟

ـ الموضوع أنَّك إذا لم تجد سبيلاً إلى حماية الدكتور «جيلبير» حاميك القديم، فينبغي أن تجد لك حامياً آخر يُمهد لك سبيل المستقبل.

ـ ولماذا يا آنسه ؟ هل ثبت عدم صلاحيتي لامساك الحسابات !

ـ بالعكس. فحسابات المزرعة هي التي أثبتت عدم جدارتها بتوليك شأنها. فقد ظهر للجميع أنَّك متعلم، تستحق مستقبلاً أفضل.

ـ لستُ أدرى لماذا أصلح، ولكنى على كُلِّ حال أرفض كُلّ تحسين يصل إلىَّ عن طريق الفيكونت دي شارني.

ـ ولماذا ؟ إن شقيقه الكونت ذو مكانه مرموقة في البلاط، وهو متزوج من صديقةٍ حميمةٍ للملكة. وقد أكَّد لي الفيكونت الآن أنَّه يستطيع توظيفك في الجمارك إذا راق لك ذلك.

ـ شكراً لعواطفكِ وعواطفه. فبقائي في المزرعة أفضل لي إلَّا إذا كان والدكِ راغباً في أبعادي. .. وفزع الشابان حينئذٍ بصوتٍ أجش يصيح في الظلام:

ـ ولماذا بحق الشيطان أرغب في إبعادك !

فهمست "كاترين" مرتاعة في أُذن «بيتو»:

ـ أرجو منك ياعزيزى بيتو ألَّا تذكر اسم الفيكونت على لسانك.

فاستطرد الصوت الأجش، يقول:

ـ لماذا لا تُجيب ؟ وما الذي يدعوك إلى الظن أنَّني أُريد إبعادك ؟

ـ لا أدرى ربما كانت حساباتي غير دقيقه.

ـ هراء أنت دقيق الحساب، وقراءاتك رائعة، وأحسبك جديراً أن تكون أستاذاً لمُعلِّم المدرسة في فنِّ القراءة، كلا يا بيتو. لقد دخلت بيتي بإذن الله وستبقى فيه ما شاء الله.

فأثلج ذلك المديح صدر "بيتو"، ولكنَّه شعر أنَّه فَقَد وضاع منه شيئاً كان يملكه قبل ذهابه إلى المرقص، وذلك هو الثقة في نفسه والأمل في غدٍ أفضل.

وظل «بيتو» تلك الليلة يتقلَّب في فراشه مسهداً إلى قرب الفجر، فصحا في السَّاعة التاسعة من الضحى، واختلى على درجات سُلم خلفي مواجه لنافذة «كاترين»، وأخرج الكتاب من جيبه ليتم لنفسه قراءته.

وغنى عن البيان أنَّ عينيه كانتا تقفزان فوق السطور أكثر ممَّا تستقران عليها، ولكن لم يظهر للحسناء أثر في النافذة فاستسلم للقراءة، وإن كانت أنامله قد أغلقت تقليب الصفحات ! فتشتيت ذهنه منعه من استيعاب ما يقرأ. وأخيراً لاحظ ظلاً فوق الصفحات طارئاً، فرفع عينيه ليرى رجلاً في نحو الخامسة والأربعين أطول من

«بيتو» نفسه وانحف، وكان يقرأ من الكتاب من فوق كتفي «بيتو» بإمعانٍ شديد. ورأى «بيتو» على وجهه ابتسامة رقيقه كشفت عن ثنايا حمراء خاليه إلَّا من أربع أسنان. ثُمَّ قال الرَّجل:

ـ كتاب مطبوع في بوسطن بأمريكا عام1788 من تأليف الدكتور" جيلبير". هل لي أن أعرف يا سَّيِّدي مَنْ مالك هذا الكتاب ؟

وفى هذه اللَّحظة ظهرت في النافذة من وراء ظهر الرَّجل الآنسة «كاترين»، وقد راحت تُشير لـ«بيتو» بإشاراتٍ غريبةٍ، ففهم وقال:

ـ إنَّه ملكي أنا..

ـ إذاً يا صاحبي أنا أقبض عليك !

وصفر الرَّجل فظهر شرطيان كأنما انشقت عنهما الأرض، فقيدا معصمي «بيتو» بحبلٍ، وبين كفيه كتاب الدكتور «جيلبير»، ثُمَّ ربطاه إلى حلقةٍ كانت في الجدار تحت النافذة، ثُمَّ دخل الشرطيان المزرعة ليحضرا مائدة يكتبان فوقها المحضر، ودخل معهما الكهل لأمرٍ ما.

وما غابوا داخل البيت حتى ظهرت " كاترين " في النافذة تهمس له:

ـ أرفع يديك إلى أعلى ما تستطيع.

فلم يرفع يديه فقط بل ورأسه أيضاً، فرآها تطل وفي يدها سكين قطعت به الحبل، فتحرَّرت يداه وبقى مربوطاً إلى الحلقة، فأعطته السكين كي يقطع ذلك الحبل وينجو بنفسه، وأعطته جنيهاً ذهبياً، قائلةً في لهفةٍ:

ـ أجر بآخر ما تستطيع، فهذا أوان استغلال طول ساقيك، وأذهب فوراً إلى باريس وابلغ الدكتور بما حدث.

وفي هذه اللحظة ظهر الشرطيان وكان «بيتو» قد قطع الحبل الذي يربطه إلى الحلقة، فلما رآهما عند الباب وقف شعر رأسه، ثُمَّ قفز قفزةً رائعةً من فوق السور المنخفض، فصرخ الشرطيان وأسرعا خلفه عن طريق البوابة لأنَّهما لا يستطيعان القفز من فوق السور كما فعل «بيتو»، ولكن «بيتو» قد تمكَّن من النجاة نهائيًّا.

## الفصل السادس

# سر الصندوق !!

*The secret of the fund*

كان ذلك المفتش قد دخل البيت من قبل، ومعه الشرطيان، ولم يكن ثلاثتهم من رجال المنطقة، بل حضروا خصيصاً لذلك من باريس، فوصلوا في السَّادسة صباحاً واسترشدوا برِجال بوليس البلدة حتى دلوهم على مزرعة «بيو».

وكان «بيو» نفسه أوَّل مَنْ لقيهم، فقال له الرَّجل العجوز بصوتٍ ناعم موسيقى الجَرْس:

ـ أهلاً بك يا صاحبي. لدينا أمر بتفتيش مسكنك.

فقال «بيو» غاضباً في دهشةٍ شديدةٍ:

ـ عجباً ! كنت أظن أنَّنا وقد صارت لنا "جمعيه وطنيه" منتخبه تعقد جلساتها في باريس، لم نعد مُعرضين لهذه الإجراءات التعسفية، التي صارت في ذمه العهد البائد. ثُمَّ ماذا تريدون منى؟ أنى رجل مسالم.

فتنهد الشيخ مظهراً أسفه وعطفه، ثُمَّ أشار بيده إشارة خفيه إلى الشرطيين،

فتقدما نحوه، فقفز «بيو» نحو بندقيته المعلقة على الحائط، بيد أنَّ يديه شلتا عن الحركة، بقبضتين صغيرتين بضتين تعلقتا بهما في ذعرٍ شديدٍ..

وكانت هاتان القبضتان قبضتا "كاترين"، التي أدركت سوء مغبة الإقدام على هذا الفعل الذميم، في مقاومه رجال الحكومة، لأنَّه يُتيح لهم ـ دون أي مسائلة أو لوم ـ أن يقتلوه تحت ستار الحجة المعروفة «قاوم فقتل».

وقد أدرك «بيو» من فوره دوافع ابنته الوحيدة، فأذعن مستكيناً، وساقوه إلى حجره مخزن المأكولات فأغلقوا عليه بابها، وانصرفوا إلى تفتيش جميع أنحاء البيت تفتيشاً دقيقاً، آمنين من هربه، لأنَّ جميع نوافذ ذلك الطابق الأرضي كانت محصنه بقضبان الحديد.

وأمَّا "كاترين" فحبسوها في غرفةٍ بالدور العلوي، تاركين أُمَّها في المطبخ تعمل لأنَّهم أدركوا أنَّه لا خطر منها على الإطلاق.

ورأي «بيو» المفتش ومعاونيه يقلبون كُلّ شيء رأساً على عقب،ولا يتركون شاردة ولا واردة غلَّا دققوا النظر فيها.. فثار غضبه مرَّة أخري وصاح من وراء الباب وهو يدق بقدميه ويديه:

ـ خبروني ما معنى هذا كُلَّه ؟!

فأجابه المفتش بصوته الموسيقى العذب هادئ النبرات:

ـ ها أنت ترى أنَّنا نبحث عن شيءٍ لم نجده بعد، ولهذا نستمر في التفتيش !

ـ ومَنْ يُدريني أنَّكم لستم من قطاع الطرق أو اللصوص !

ـ معاذ الله ! كيف تقول هذا ياعزيزى الفاضل ؟ نحن قوم شرفاء مثلك تماماً، وكُلّ ما هناك من فرق بيننا أنَّنا في خدمه صاحب الجلالة، ونقبض منه رواتبنا وأعطياتنا، لهذا لم يكن لنا بد من تنفيذ أوامره الملكية ورغباته.

ـ الملك ! جلالة لويس السَّادس عشر هو الذي أمرك بتفتيش منزلي ومزرعتي ؟ وهل أمرك أيضاً أن تفسد كُلّ نظام، وتقلب كُلّ موضع ؟

ـ أجل ؟

ـ وهل انقلب جلالته الآن ضدنا، يفسد حاصلاتنا وبيوتنا، بعد أن أكل الجفاف والقحط حاصلاتنا في العام الماضي حتى كدنا نهلك جوعاً فلم يحرك ساكناً ؟ إنَّ جلالته والله لعجيبٍ أمره ؟

ـ سَّيّدي أرجو منك أن تراعى ظروفي، فلو علم مولانا أنَّك تتحدَّث عنه بهذه اللهجة، فإنَّه لا شك سيغضب. لهذا أرجو ـ وإن كنت لا تعرف جلالته معرفه شخصية ـ أن تتقبَّل بشكرٍ وامتنانٍ ذلك الشرف الذي أولاك جلالته إياه، إذ دعني أقوم بتفتيش مزرعتك وبيتك.. وأن تستقبل رجال جلالته المكلفين بهذا الأمر أكرم استقبال...

فلاذ "بيو" بعد ذلك بالصمت، وتركهم يفتشون كما يريدون. مكتفياً بعقد يديه على صدره في غضبٍ كظيمٍ. وقد أيقن أنَّ الذي جر عليه ذلك البلاء، هو كتاب الدكتور «جيلبير». وتذكَّر نصائح ابنته "كاترين" وهو يسمع صوت تأوهها في الغرفة التي تعلو غرفته، حيث حبسوها.

وطال زمن التفتيش، وأخيراً عاد «بيو» يسألهم نافد الصبر:

ـ أهلا خبرتموني عمَّ تبحثون، فقد أفيدكم بشيءٍ يُغنيكم عن هذا العناء ؟

فاخبره الشيخ أنَّهم يبحثون عن كتاب للدكتور «جيلبير» حُرم تداوله الرقيب.

فقال له «بيو» إنَّه لا يدرى عن ذلك الكتاب شيئاً سوى أنَّ الدكتور أرسل إليه نسخة واحدة. ولمَّا كان يجهل القراءة فقد أعطاها لفتى يُقيم في المزرعة اسمه «بيتو». ولا علم له عدا ذلك بشيءٍ !

وأصغى المفتش إلى هذا الكلام في اهتمامٍ ثُمَّ استأنف التفتيش في صمتٍ وتدقيقٍ كأنَّه لم يسمع شيئاً.

وأخيراً فتحوا دولاباً للملابس والمفارش، فأخرجوا كُلّ ما كان بداخله ونكثوه على الأرض، فعثروا في قاعه علي صندوق صغير من خشب البلوط، ما أن رآه الشيخ حتى لمعت عيناه وبرقت أساريره، وتناوله في لهفةٍ فدسه تحت معطفه وانصرف مع رجليه مسرعاً، إلى الفناء الداخلي، حيث فر «بيتو» على النحو الذي بيناه في الفصل السَّابق، ومعه الكتاب العتيد وقد أحطنا القُرَّاء في ذلك الفصل بهربه ومطارده الشرطيين له.

ولكن الجديد في الموضوع أنَّ المفتش ما أن وثق من ابتعاد «بيتو»، حتى أمر رجاله فكفوا عن المطاردة، وساروا في الاتجاه المضاد، كأنَّهم يبغون الفرار بدورهم.. ثُمَّ جلسوا ليستريحوا في الغابة، وقال المفتش متنفساً الصعداء:

ـ إنَّنا لمحظوظون ! فلو كان الذي فر به الفتى هو الصندوق، لا هذا الكتاب الملعون، لخرجنا بصفقة المغبون ! ولكن عجباً لهذا الغلام ! إنَّ له ساقين سريعتين كأنَّهما ساقا غزال !

ـ ولكنَّه لم يظفر بالصندوق يا سَيِّدي، لأنَّك الذي ظفرت به.

ـ طبعاً.. طبعاً، وهذا هو تحت ثيابي. ولذلك فلنا الحق جميعاً في المكافأة الجزيلة التي وُعدنا بها..

ـ ليحيا مفتش البوليس !

ـ أصمت ! ليس لمفتش البوليس في هذه المكافأة شأن.. وإن كان لا بأس من الهتاف باسم مفتش البوليس على كُلِّ حال.. فليس ذلك المفتش هو الذي سيدفع..

ـ مَنْ إذاً ؟

ـ إنَّه سَيِّد، أو بالأحرى سَيِّده من أصدقائه، له أو لها مصلحه في الحصول على

ذلك الصندوق بأي ثمن.. ولكن ينبغي أن نذكر أنَّ المكافأة لم تصل إلى جيوبنا بعد..

ـ هذا صحيح وحق الشيطان !

ـ لهذا يجب أن نبذل أقصى الجهد كي نخرج من هذا الجوار بأسرع ما يستطيع راجلين، ثُمَّ نركب عربات البريد إلى باريس كي نسلم البضاعة، ونتسلم المكافأة الموعودة.. قبل أن ينتبه ذلك الفلاح اللعين لفقد هذا الصندوق، فيجد في أعقابنا كالمجنون. وإنَّه ليس من الواعدين الهين أمرهم، فإنَّه فيما يبدو ماهر في أصابه الهدف مهارةً لا يباريه فيها حرس الملك !

وما سمع صحبه هذا الكلام، حتى خفوا مذعورين، وولوا على وجوههم مسرعين..

والواقع أنَّ ذلك الحذر جاء في وقته، فإن «بيو» ما أن علم بالحقيقة حتى راح يصيح كالمجنون:

ـ الصندوق ! فتشوا جيداً عن الصندوق ! لقد أخذوا الصندوق !

فقالت ابنته" كاترين" متعجبة لأمره وهى تحاول تهدئه ثائرته:

ـ ماذا جرى يا أبى ؟ أنى لا أجد الصندوق الذي تتحدَّث عنه. ولماذا تضطرب هكذا ؟ ماذا كان يحويه هذا الصندوق إذاً ؟

ـ لا أدرى بحق السماء ! ولكنى أعني أنَّني تعهدت بشرفي للدكتور جيلبير أن أحافظ عليه كما أُحافظ على حياتي حتى أسلمه إلى يده سليماً مصوناً. فكان خيراً لي إذاً أن أُقتل، من أن اسمح لهم بالاستيلاء على الصندوق، هاتوا حصاني. حصاني أيها النَّاس، ولن أعود إلَّا بالصندوق !

وانطلق على صهوة جواده كالمجنون بحثاً عمَنْ سرقوا الصندوق !

## الفصل السابع

# الرحلة إلي باريس

## The trip to Paris

ولنعد الآن إلى «بيتو».

والحق أنَّ هذا المسكين كان يجد في الهرب مدفوعاً بأقوى دافعين في الوجود ألَا وهما الخوف والحُبّ.

أمَّا الخوف، فكان يهمس له في أعماق قلبه قائلاً: «إن أنت وقعت في أيديهم قبض عليك، أو نلت عقاباً ساخناً مؤلماً، فخذ حذرك، وحافظ على جلدك وعظامك يا بيتو».

فكان هذا الهمس كافياً لبث الحرارة في ساقيه كُلَّما همتا بالفتور.

وأمَّا الحُبّ، فكان يحدثه من وراء قناع، متمثلاً له في صوت «كاترين» الحنون: «أهرب بسرعةٍ وانج بنفسك يا عزيزي بيتو».

وكانت هذه التوصية الرقيقة كافيه لا لكي يجرى بأقصى سرعة فحسب، بل لأن يطير في الهواء طيراناً، فلو أن له جناحين لطار !

وما انقضت على فراره ساعة، وهو يخترق الحقول والدروب والمسالك التي يحفظها عن ظهر قلب، حتى كان قد وصل إلى الطريق الكبير المؤدى إلى باريس. وكان قد قطع في هذه السَّاعة أكثر من أربعه فراسخ. فوقف «بيتو» على رأس الطريق العام، وألقى نظرة إنسان متوجس على جهتيه فلم ير أحداً، فهدأت نفسه.

وجلس يستريح برهة، وقد صاحت عصافير بطنه تلح عليه في طلب الطعام. وتذكَّر ذلك اللحم المُقدَّد المملح السمين الذي كانت تصنعه بيديها الماهرتين تلك السَّيِّدة الكريمة مدام «بيو»، والده «كاترين».

وذلك الخبز اللذيذ الذي كانت تُقدّمه إليه «كاترين» في كمياتٍ ضخمةٍ ثلاث مرَّات كُلّ نهار، حين تطلع الشمس، وحين تتوسط كبد السماء، وحين تميل إلى الغروب. وصعد آهة عميقة حسرة على ذلك الخبز، وأسفاه.. فهو يعلم علم اليقين قيمة ذلك الخبز، وكيف أنَّه صار غالياً في تلك الأيام بسبب القحط الذي أكل محصول العام الفائت من القمح، فهو إذا وُجد بيع بأغلى الأثمان، ولكنَّه في الغالب غير موجود ولا مطروح في الأسواق.. أمَّا في بيت "بيو" فكان يُقدَّم هذا الخبز إليه في كمياتٍ وافرةٍ، فيأكل حتى تشبع بطنه. وإنَّه لمصنوع صناعة جيدة، يشبه ذلك البسكويت الذي يُعزى أو يعود إلى " دوقه بولنياك ".. إنَّها نصحت الباريسيين بأكله حين شكوا إلى الملك والملكة أنَّهم لا يجدون الخبز ولا الدقيق الخام !!

واغرورقت لهذه الذكريات عينا «بيتو» بالدمع، وخُيِّل إليه أنَّ الآنسة «كاترين بيو» أجمل وأكرم أميرة في الدنيا، وأنَّ مزرعة والدها الفاضل أفخم قصر في الوجود! ومال بعينيه نحو تلك الجنة المفقودة في تحسرٍ، وأطلق زفرة أخرى كاد ينشق لها صدره، ثُمَّ استأنف طريقه في خطوةٍ سريعةٍ منتظمةٍ، بمتوسط فرسخين في السَّاعة الواحدة.. فلم تنقض ساعتان أخريان حتى كان قد تجاوز «نانتى» واقترب من «دامرتان».

وعندئذ طرق سمع" بيتو" المرهف وقع حوافر جواد مسرع يضرب سنابكه[1] أرض الطريق المفروشة بالحصباء[2]، فنظر وراءه محملقاً، ولكنَّه لم ير شيئاً، فتناسى الموضوع وانطلق في طريقه مستغرقاً في خواطره وأحلامه عمَّا فارقه من نعيم، وعمَّا سيستقبله في باريس من غدٍ مجهول.

وتساءل مَنْ عساه يكون ذلك الشيخ ذو الثوب الأسود الذي سأله عن الدكتور "جيلبير"، ثُمَّ أوثق يديه بالحبال،وطارده بمعاونة رجاله الذين برزوا له فجأة من وسط الطريق كأنما انشقت عنهم الأرض..

ثُمَّ تساءل مرَّة أخرى: لماذا يقيدونه ؟ وكيف عرفوه مع أنَّه لا يعرفهم ؟ وأي شر فعل حتى استحق ذلك كُلَّه ؟

وحيرته هذه الأسئلة، فتساءل مرَّة أخرى: ولماذا أوصته «كاترين» أن يتوجه إلى باريس ؟ ولماذا أعطته ذلك الجنيه الذهبي الكبير البراق ؟ أي ما يكفى لشراء مئتين وأربعين رطلاً من الخبز، برغم ارتفاع أسعار الخبز. وهى كميه تكفيه ثمانين يوماً أو ربما ثلاثة أشهر إذا تحرى سياسة التقشف. فهل معنى ذلك أنّ «كاترين» تُقدر أنَّ غيبته في تلك الرحلة ستطول حتى تبلغ ثلاثة أشهر ؟ وهل يحتمل الغياب عن المزرعة وعنها ذلك الزمان الطويل ؟

وأجفل «بيتو» منتبهاً من أفكاره فجأةً، فقد عادت حوافر الحصان التي طرقت سمعه أوَّل مرَّة إلى طرقه مرَّة أخرى بصورةٍ أوضح. فقال في نفسه: «لستُ مخطئاً في هذه المرَّة.. فهذا ولا محالة صوت جواد مسرع».

والتفت وراءه فرأى حصاناً على بعد أربعمئة متر، وأيقن من أوَّل وهلة أنَّه أحد الشرطيين اللذين يُطاردانه، امتطى صهوة جواد ليلحق به ويقبض عليه،

---

(1) السنبك: طرف الحافر و جانباه من القدم.(المُعد).

(2) الحصباء: صخر رمليٌّ حبيباته صغيرة.(المُعد).

فاستولى على المسكين الذعر الشديد، وازدادت خطواته اتساعاً وسرعةً حتى كاد يسابق الريح..

وأبصر على البُعد مجموعه أشجار، أدرك أنَّها طلائع غابه، فقال في نفسه: " لو أنَّني بلغت هذه الغابة لنجوت، لأنه بإمكاني أن اختفى بين الأشجار".

وكان عليه في هذه الحالة أن يسبق جواداً يعدو بأقصى سرعته، فأعاره الخوف جناحين وراح يطير بهما نحو شاطئ الأمان.

ولم يكن أشد ما يزعجه وهو يهرب وقع حوافر الحصان وهو يجرى في أثره بأقصى سرعة، بل صيحة تحملها الريح إلى إذأيه: " او..او..او...".

فكان ذلك حافزاً أكبر على التفاني في الجري.. ولكن لم تنقض عشر دقائق حتى أحس المسكين أنَّ صدره يكاد ينشق لسرعه دقات قلبه.. وقلّ مُعدل سرعته، وسرعان ما نقصت المسافة بينه وبين مُطارده..

وحينئذٍ تبيَّن أنَّ ذلك الصياح لم يكن إلَّا المقطع الأخير من كلمة كان يصرخ بها راكب الحصان.

وكانت تلك الكلمة هي" بيتو"..

آه.. لقد ضاع كُلّ شيء ! ولم يبق أدنى شك في أنَّه مُطارد عنيد، وأنَّه واقع لا محالة بين أيدي الشرطة.

وتعثر المسكين لشدة ارتباكه فسقط على الأرض سقطة بطحته أرضاً على وجهه، فأدركه الفارس، وترجل عن جواده ورفعه عن الأرض.

ولم يكن ذلك الفارس، إلَّا المسيو «بيو»!!

وأركبه المسيو «بيو» وراءه، وقصدا معاً إلى المجهول، في باريس.

## الفصل الثامن

# شرارة الثورة

*The spark of revolution*

وشارف الراكبان ضواحي باريس من جهة "فييت" وقد خيم الظلام فلاحظ المسيو «بيو» نيراناً كثيرةً موقدةً في الأرض، ومنتشرة هنا وهناك، فلفت نظر «بيتو» متسائلاً عن هذه الظاهرة، فقال الفتى:

ـ ألم تلاحظ يا سَيِّدي أنَّ هناك جنوداً كثيرين منتشرين في الناحية ؟ وهذه نيرانهم وقد عسكروا على أبواب باريس، وكأنَّهم جيش حصار.

وأدرك «بيو» أنَّ ملاحظه «بيتو» في محلها، ولاحت له الأسلحة براقة في ضوء النيران الساطعة.. فانتهز أوَّل فرصه صادف فيها أحد هؤلاء الجنود وراح يسأله عن سبب وجود الجنود في ذلك المكان وعلى هذه الصورة، فأجابه ذلك الجندي بلهجةٍ أجنبيةٍ، تظهر فيها اللكنة الجرمانية بوضوحٍ شديدٍ:

ـ إنَّهم أصحابك الحمقى أهل باريس، ركبوا رؤوسهم مصممين على رجوع «نكار»إلى تولى الوزارة..

ـ رجوع " نكار " ؟ وهل ترك الوزارة ؟

ـ طبعاً. فقد طرده الملك منها.

ـ طرده الملك ؟ هل طرد الملك حقاً ذلك الرَّجل العظيم ؟

ـ هذا ما حدث، وأكثر من هذا فأنَّ ذلك الرَّجل العظيم كما تسميه أنت، في طريقه الآن إلى بروكسل[1].

وعندئذ لكز «بيو» جواده وانطلق به مسرعاً فدخل باريس، وإذا جموع حاشدة، وأنوار ساطعة، وحركه وضجيج وصيحات في كُلِّ مكان. وإذا مظاهرات رائحتها غادية، سيما من جهة "الباستيل" إلى جهة " سان كلو"، فقد كانت مظاهرة كبيرة تحمل في مقدمتها مائدة عليها تمثالان كبيران، أحدهما تمثال «نكار»، والآخر تمثال دوق أورليان.

وكان «بيو» من أهالي منطقه من مناطق الريف التي تتوارث الإعجاب والولاء لبيت دوقات أورليان جيلاً بعد جيل، منذ أكثر من قرن ونصف من الزمان.

كما كان «بيو» أيضاً ينتمي إلى المدرسة الجديدة التي تتيمن بحُبِّ " نكار" ولا ترى فيه رجلاً عظيماً فحسب، بل رسولاً من رسل الحُرِّيَّة ومبشراً من كبار المبشرين بالإنسانيَّة. فلا عجب أن يكون لهذه المظاهرة صدى جميل جدًّا في نفس " بيو"، فشعر أن باريس بلد جميل يوافق هواه، فاندمج في هذه المظاهرة، وأجتهد أن يقترب من المائدة التي تحمل التمثالين، لعله يفلح في المشاركة في حملها إرضاء لحماسته المتقدة.. وكان طول الوقت يهتف مع الهاتفين: «يحيا نكار»! لا وزير إلَّا «نكار»! لا فرق أجنبية بعد اليوم !

---

(1) بروكسل :هي عاصمة بلجيكا، كما هي عاصمة الاتحاد الأوروبي بحكم الأمر الواقع، تتألف من19 بلدية. يبلغ عدد سكانها حوالي مليون نسمة. وتستضيف بروكسل مؤسسات الاتحاد الأوروبي الرئيسة، ومقرات حلف شمال الأطلسي، وقد كانت بروكسل المركز الرئيس للسياسة الدولية منذ نهاية الحرب العالمية الثانية. (المُعد).

واستمرت المظاهرة في طريقها مندفعة نحو الشمال تارة، ونحو اليمين تارة أخري حتى انحدرت في شارع "مونمارتر"، ثُمَّ نحو ميدان النصر.. فلما صارت المظاهرة إزاء " الباليه رويال" وقفت عن المسير بسبب طارئ: فقد اعترضت الطريق حتى سدته مظاهره يحمل أفرادها أوراق أشجار خضراء في قبعاتهم، حتى كأنَّهم يبدون من بعيدٍ كغابةٍ متحركةٍ ! وكانوا يصيحون بأعلى أصواتهم هاتفين: «إلى السلاح ! إلى السلاح !».

فكان من الضروري أن يتبيَّن المتظاهرون من أنصار" نكار"، ودوق أورليان كنة أو صفة هؤلاء " الخُضر"، وهل هم أعداء أم أصدقاء..

والسبب في تلك الريبة والشك واضح، ذلك أنَّ اللَّون الأخضر كان شعار الكونت " دارتوا"، شقيق جلالة الملك لويس السَّادس عشر.. فلابدّ من معرفه معنى هذه الشارات بنوعٍ من التحقيق.. ومن المعروف أنَّ الكونت " دارتوا " من المعسكر المُعادي لابن عمه دوق أورليان.

وبدأت المباحثات. ولكنَّها لم تستغرق إلَّا دقائق معدودات، تكشف بعدها كُلّ شيء:

فإنَّه ما إن ذاع في ذلك اليوم خبر اقله «نكار»، وسمع الخبر شاب كان حتى اليوم نكره مغموراً لا يدرى اسمه أحد، كان جالساً في مقهى " فوي"، حتى خرج من المقهى كالمجنون وقفز فوق منضدة في حديقة " الباليه رويال"، ثُمَّ أخرج من صدره غدارة[1] وصاح:

ـ إلى السلاح ! إلي السلاح !

فتكاثر النَّاس من حوله وهم يرددون هتافه:

(1) غدارة: آلة لإطلاق القذائف أكبر من المسدس وأصغر من البندقية ، سميت بذلك لأنَّ العدو يغدر بها غدارة سريعة الطلقات / الطلق.(المُعد).

ـ إلى السلاح ! إلى السلاح !

وكان قد انتشر بين أهالي باريس حضور الفرق الأجنبية ولاسيما النمساوية وإقامة معسكراتها حول باريس، فخيُّل إلى النَّاس أنَّ في الأمر غزوة أجنبية، مهد لها الملك بعزل "نكار" من الوزارة..

وراح ذلك الشاب المتحمس يذكر أسماء الفرق الأجنبية، وهى كُلَّها أسماء ذات طابع أجنبي ظاهر أثار النفوس وجعل الجميع يتوهمون الخيانة الوطنية وخطر الاحتلال.. كما أعلن أنَّ الجنود السويسريين عسكروا في «الشانزلزيه» ومعهم أربع بطاريات من المدافع، وأنَّهم سيدخلون باريس نفسها تلك الليلة ولو عنوة، ثُمَّ اقترح أن يتخذ الوطنيون شعاراً يتعارفون به ويحملون السلاح، حتى يتبيَّن العدو من الصديق. ثُمَّ مدّ يده إلى شجرةٍ كانت أغصانها تتدلى فوق رأسه فأنتزع منها ورقه خضراء غرسها في قبعته، فحذا السامعون حذوه،وما هي إلَّا لحظات حتى كانت جميع أشجار حدائق " الباليه رويال " قد فقدت ورقها الأخضر الجميل كأن عاصفة من عواصف الشتاء طافت بها في جوف الصيف.. واستحالت قبعات النَّاس إلى خضرةٍ زاهيةٍ كأنما قد مستها يد الربيع !

وهكذا أصبح اسم ذلك الشاب الذي كان مجهولاً منذ ساعات على كُلِّ لسان، ودخل التاريخ من بابه الواسع.

لقد كان ذلك الشاب هو : " كاميل ديمولان".

وتعارفت المظاهرتان، وتآخى الجمعان، وتعانق النَّاس من هنا وهناك على غير سابق معرفه، كأنما أصابهم مس خفت له عقولهم، وتجاذبت أرواحهم حماسة ونشوة بالوطنية والفداء.. ثُمَّ اتحدت المظاهرتان في موكبٍ واحدٍ إلى ميدان «فاندوم».. حيث اعترضتها عقبه غير منظورة.

ولم تكن تلك العقبة الكؤود الشاقة سوى الجنود الألمان، وقد وقفوا كالأطواد

أو الجبال الراسية في ميدان «فاندوم» ثابتين في سرج جيادهم. فلما رأوا تدفق الجماهير المتحمسة كالطوفان حتى ملأ عليهم الميدان، أطلقوا لجيادهم العنان، لا منسحبين، بل مُهاجمين في حنقٍ وعنفٍ على تلك الجموع..

وكان طبيعياً أن يتلقى حاملو المائدة التي يحملها التمثالان الصدمة الأولى، فوقعوا على الأرض، وكان أوَّل من ثاب لرشده فنهض منهم رجل من السافوا كان أمام " بيو" مباشرة.. نهض وفى يده تمثال دوق أورليان، وراح يهتف بجنون:

ـ يحيا دوق أورليان !

وهو لم يره في حياته..

ـ يحيا المسيو نكار..

وهو لم يتشرف بمعرفته أبداً. ولكنَّها الحماسة للحُرِّيَّة اتخذت من هذين الشخصين رمزاً..

وهمّ «بيو» أن يحذو حذو ذلك الرَّجل فيما يختص بتمثال «نكار»، لولا أنَّ شاباً جميلاً وسيماً في نحو الخامسة والعشرين كان أسبق من «بيو» إلى ذلك الصنيع.

وفجأةً اهتز الميدان بصوت إطلاق النَّار من جهاتٍ مُتعدِّدة، وطارت رصاصة بجوار أُذن «بيو»، فأصابت الشاب حامل تمثال «نكار»، وتناثر دمه على وجه «بيو» وثيابه وشعره.. ذلك أنَّ تمثال " نكار " كان قد سقط على أم رأسه فأصابه بجرحٍ، فأطلق «بيو» صرخة غضب ورعب.. ثُمَّ دوى الرصاص من جديد، لأنَّ المتظاهرين عادوا إلى هتافاتهم المألوفة.. وشعر «بيو» بيدٍ قويَّةٍ توضع على كتفه وتأمره بالانبطاح أرضاً. وتلك كانت يد «بيتو»، فأطاع، فكانت في ذلك نجاته، لأنَّ الرصاص راح ينهمر على النَّاس كالمطر من حوله، فيسقطون صرعى.. أو يتفرقون شيعاً. حتى خلا الميدان من حول «بيو»، و«بيتو»، فقال «بيتو» لـ«بيو»:

ـ يبدو أنَّنا وصلنا باريس في الوقت المناسب !

ـ طبعاً. تعال ساعدني في حمل هذا المحتضر على ظهري. فلا ينبغي أن نتركه فريسة في أيدي هؤلاء الألمان قُساة القلب.

وأعانه «بيتو»، فحمل ذلك الجريح على ظهره وانطلق به، ووراءه «بيتو» إلى حدائق «الباليه رويال».

## الفصل التاسع

# ليلة دامية !

*A bloody night !*

بدا الشارع لأوَّل ولهة خالياً من النَّاس، لأنَّ الفرسان كانوا قد تعقبوا المظاهرة المتفرقة. ولكن عندما تقدَّم " بيو" نحو " الباليه رويال "، وهو يصيح غاضباً:

ـ الثأر.. الثأر !

بدأ النَّاس يبرزون ويظهرون من منعطفات الشوارع ومن أبواب البيوت حيث كانوا مختبئين. وتبعوا تلك الجنازة الصاخبة التي قادها " بيو"، إلى أن وصل هذا الموكب إلى الميدان الواقع أمام " الباليه رويال " حيث كان أُناس كثيرون يتدارسون الموقف ويرون وجوب تدخل الجنود الفرنسيين للوقوف في وجه الجنود المرتزقة. وكان في ذلك الاجتماع عددٌ كبيرٌ من جنود الحرس الأهلي، فما أن رآهم " بيو" حتى هتف:

ـ مَنْ هؤلاء ؟

فأجابته أصوات كثيرة:

ـ إنَّهم الحرس الفرنسي.

ـ آه ! أأنتم فرنسيون حقاً، وتسمحون أن نقتل أمام أعينكم بأيدي هؤلاء الألمان ؟

فتراجع الحرس مأخوذين وقد تركزت أعينهم في الجثة التي يحملها " بيو"، وصاح صائح من بين صفوفهم:

ـ أهو ميتٌ ؟

ـ بل قتيل. وهناك آخرون مثله قتلى.

ـ ومَنْ الذي قتله ؟

ـ الحرس الملكي الألماني. ألم تسمعوا الصراخ وإطلاق الرصاص ؟

وعندئذ صاح الجمهور الواقف في الميدان:

ـ أجل سمعنا. لقد كانوا يذبحون النَّاس في ميدان " فاندوم".

فقال " بيو" مخاطباً جنود الحرس:

ـ ومع هذا فأنتم من الشعب. أي وحق السماء أنتم من الشعب. فمن الجبن أن تتركوا إخوانكم يذبحون بين سمعكم وبصركم.

ـ من الجبن ؟!

ـ أجل من الجبن. قلتها وأُكرِّرها. ولعلكم تفكرون في قتلى الآن لكي تنفعوا عن أنفسكم تهمة الجبن التي أرميكم بها.

فأجابه أحد الجنود قائلاً:

ـ ما نحن إلَّا جنود. وأنت فتى شجاع أيها الصديق، ولكن ماذا نستطيع أن نصنع ؟ فإنَّه لا يسعنا إلَّا أن ننفذ ما يصدر إلينا من الأوامر.

ـ هل معنى هذا أنَّه إذا صدرت إليكم أوامر بإطلاق النَّار علينا، ونحن رجال عزل من السلاح، لم تترددوا في إطلاقها ؟ وهل أنتم حقاً ورثة جنود فرنسا من أبطال

فونتنوى الذين حاربوا الانجليز، فرفضوا أن يبدأوا بإطلاق النَّار، ودعوا الإنجليز إلى إطلاق الرصاصة الأولى ؟

وعندئذ صاح صائح من بين صفوف الجنود:

ـ أمَّا أنا فلن أطيع مثل هذا الأمر.

ـ ولا أنا.

ـ ولا أنا.

ـ ولا أنا.

ـ ولا أنا.

حتى شملت وانتظمت الصيحة جميع الجنود.

وفى هذه اللَّحظة سُمعت أصوات جياد ثقيلة تقترب من بعيد، ومن أمامها أصوات المتظاهرين المطاردين يهتفون:

ـ إلى السلاح ! إلى السلاح !

فوجم واندهش كُلّ مَنْ في الميدان.

فصاح " بيو " بجنود الحرس:

ـ أعطونا بنادقكم على الأقل لنستعملها ما دمتم مصممين على عدم استعمالها بأنفسكم.

فصاح أحدهم:

ـ بل سنستعملها بحق السماء. هيا أيها الرفاق ولنهيئ طلقاتنا ونعدها، حتى إذا بدا لهؤلاء النمساويين أن يحتكوا بهؤلاء الشجعان، كان لنا معهم شأن و أي شأن..

فسرت الحماسة في صفوف الحرس الفرنسي، وأقبلوا على طلقاتهم يعضونها بأسنانهم، كما كان ينبغي في بنادق ذلك العصر..

وصاح " بيو":

ـ ما انكدني لأني لم أحضر من القرية معولي او فأسى. ولكن لا بأس فعسى أن ينفق ويموت أحد هؤلاء النمساويين فاستولى على بندقيته.

وإذا صوت يقول له من خلفه:

ـ وحتى ذلك الحين، ها هي بندقية حاضره مُعدَّة للانطلاق.

ودس صاحب ذلك الصوت المجهول في يد " بيو" بندقية مزركشة فاخرة.

وأقبل في هذه اللَّحظة إلى الميدان جماعة الفرسان الألمان بآخر سرعة، وهم يُطاردون الجماهير ويقتلون كُلّ مَنْ يلقونه في طريقهم.

فتقدَّم ضابط الحرس الفرنسي أربع خطوات إلي الأمام، ثُمَّ صاح:

ـ أيها الفرسان.. قفوا حيث أنتم.

ولسنا ندرى هل لم يسمع حضرات الفرسان أو هم قد تصنعوا عدم السماع. أو أنَّهم لم يستطيعوا إيقاف خليهم وهى تعدو مُطلقة الأعنة.. فالمهم على كُلِّ حال أنَّهم أوغلوا في الميدان. وقتلوا امرأة ورجلاً مسناً تحت سنابك خيلهم..

فلما رأى " بيتو" ذلك صاح كالمجنون بالحرس الفرنسي:

ـ أطلقوا النَّار أيها الفرنسيون. أطلقوا النَّار.

وكان " بيو" في هذه اللَّحظة واقفاً إلى جوار ضابط الحرس الفرنسي، فربما حسبوا أنَّ الضابط هو الذي أمر بإطلاق النَّار.

وانطلقت الرصاصات من أفواه البنادق.. فتوقف الفرسان وصاح أحدهم وقد عقدت الدهشة البالغة لسانه:

ـ يا حضرات الحرس.. أتعلمون أنَّكم تطلقون علينا نحن نيرانكم ؟

فأجابه " بيو " برصاصةٍ صرعته وهو يصيح:

ـ أترانا حقاً لا نعلم ؟

وأطلق الحرس دفعة أخرى من الرصاص، ولى على أثرها الفرسان الألمان الأدبار، فقد وجدوا أنَّهم لم يعودوا أمام جماهير عزل..

واستبدت الحماسة بالنَّاس فصاحوا هاتفين:

ـ يحيا الحرس الفرنسي !

ـ يحيا جنود الوطن !

أمَّا " بيو" فإنَّه راح يفحص البندقية التي في يده بأناةٍ، وقال:

ـ ولكن لمَنْ هذه البندقية الثمينة يا ترى ؟

فأجابه الصوت الذي كان قد تحدَّث إليه من وراء ظهره، قائلاً:

ـ إنَّها لمولاي.. وإن مولاي ليظن أنَّك تُحسن استخدامها، بحيث لا حاجة به إلى استردادها منك..

فالتفت «بيو» فرأى صاحب الصوت في ثياب حاشية دوق أورليان، فسأله قائلاً:

ـ وأين مولاك ؟

فأشار الرَّجل إلى نافذةٍ نصف مغلقه كان الأمير واقفاً بها يرقب الحالة، فقال «بيو» للرَّجل عندئذ:

ـ هل مولاك في جانبنا إذاً ؟

ـ إنَّه مع الشعب قلباً وروحاً..

ـ ما دامت الحالة كذلك، اهتفوا معي أيها الأخوان.. يحيا دوق أورليان ! دوق أورليان مع الشعب !

وأشار " بيو" بيديه إلى النافذة، فانحنى الدوق شاكراً بعد أن فتحها على مصراعيها، ثُمَّ أقفلها مرَّة أخرى واختفى عن الأنظار. فكان ذلك كافياً لإلهاب حماسة النَّاس وهتافهم له بحرارةٍ شديدةٍ.. ثُمَّ أخذت الأصوات ترتفع بالاقتراحات العملية.

ـ هيا بنا نكسر محلات بيع الأسلحة !

ـ بل هيا إلى الأنفاليد ففي مخازنه عشرون ألف بندقية.

ـ بل إلى دار البلدية، فإنَّ هناك مفاتيح مخازن الحرس الأهلي، وبها طلقات وبنادق لا تحصى..

ـ إلى البلدية ! إلى البلدية !

واتجه النَّاس إلى دار البلدية من طرق ثلاثة.

أمَّا " بيو " فلم يتجه وجهتهم، فقال له " بيتو" متسائلاً:

ـ ونحن إلى أين سنذهب يا مسيو بيو ؟

ـ كان بودي أن أذهب مع هؤلاء الأبطال. ولكنَّني لم آت إلى باريس كما تعلم لكي أقاتل، بل لأحصل على عنوان الدكتور جيلبير. لهذا يجب أن أذهب أوَّلاً إلى كلية لويس الكبير حيث يتعلَّم ابنه.. حتى إذا لقينا الدكتور، ألقينا بأنفسنا من جديد في المعركة، بقلبٍ خالصٍ وذهنٍ متفرغ. فأذهب الآن أوَّلاً و أحصل على بندقية أحد القتلى، وها أنا أحمل البندقية التي أهداني إياها دوق أورليان، وهيا بنا إلى كليه لويس الكبير.

ولم يحتج " بيتو" إلى تكرار الأوامر، بل انقض على اقرب قتيل من فرسان الحرس الألماني فتقلد سيفه الطويل وبندقيته، ثُمَّ تبع المسيو «بيو».

ولم يصادفهما في طريقهما أي عائق في بادئ الأمر. إلى أن بلغا الأرصفة، فإذا الحرس الألماني قد عاد بنجداتٍ وإمداداتٍ قويَّة لكي يأخذ الثأر لقتلاه، فاضطرا

للهرب بين أشجار التويلرى حتى الفجر، ثُمَّ تسربا متسللين قاصدين كليه لويس الكبير.

وفي الطريق كانت جموع النَّاس تملأ كُلّ ركن، وفي وسط كُلّ مجموعة من الرِّجال والنساء واحد من جنود الحرس الفرنسي يُدرِّبهم على كيفيه أطلاق البندقية.. والجميع في حماسةٍ شديدةٍ وتصميم راسخ، يتدربون ويقيمون المتاريس بأمتعة البيوت والأحجار.

وأخيراً وصل صديقانا إلى كليه لويس الكبير، فإذا بها في حاله فوضى تامة، فقد هاج التلاميذ وصاروا ضد الأساتذة وطردوهم من البناء واقفلوا البوابة..

وقد صادف لحظه وصول "بيو"، و«بيتو» أن كان الأساتذة الأفاضل يهاجمون البوابة ويهزونها صائحين متوعدين، فصاح " بيو" بصوتٍ جهوري من خلال قضبان البوابة :

ـ مَنْ منكم هو الطالب سباستيان جيلبير ؟

ـ أنا.

وكان صاحب هذا الجواب فتى في الخامسة عشرة، جميل الخِلقة يكاد يحسبه الناظر إليه فتاة. فقال «بيو» :

ـ اقترب مني يا ابني.

ـ ماذا تُريد مني ؟

وصاح مدير الكلية وقد رأى " بيو"، و" بيتو" يحملان السلاح وقد تلطخا بالدَّم:

ـ أتريد أن تأخذاه معكما ؟

ـ نأخذه ؟ أنأخذ ابن الدكتور جيلبير لنُعرضه لكُلِّ هذه الكوارث ؟ مستحيل !

فصاح المدير:

ـ هل سمعت هذا الكلام يا سباستيان ؟ هؤلاء أصحابك أنفسهم لا يوافقون على خروجك في هذا الظرف..

ـ كلا يا سَيِّدي. احتجز زملائي إذا شئت، أمَّا أنا فلا بد لي من الخروج للاشتراك في الثورة.

ـ أرجو منك يا سباستيان ...

ـ كلا ! لستُ مثل سائر تلاميذك، فإن لي أباً بين أيدي الطغاة، ولا بد لي من تخليصه .

فصرخ " بيو" صرخةً عظيمةً مدويةً، قائلاً:

ـ بين أيدي الطغاة ؟ تكلم يا ولدي ! أين أبوك ؟

فصاح كثيرون من التلاميذ قائلين:

ـ إنَّه يُقتِر الحقيقة.. فوالده مقبوض عليه. ولما كان الشعب بصدد فتح السجون، فهو يأمل أن يفتح الشعب سجن أبيه ويطلقه أيضاً.

## الفصل العاشر

# مع عمدة باريس

## with the Mayor of Paris

انطلق " بيو"، وراح يختلط بالجماهير يُحمسها ويوجه أنظارها إلى حصن الباستيل وما يرمز له من الطغيان والمظالم. حتى إذا كان صباح يوم 14 من يوليه شُوهد "بيو" يتقدَّم حوالي ثلاثة آلاف باريسي من الدهماء مُسلحين بالسكاكين والحراب والبنادق. فقد كان معظمهم من الجزارين والتجار في سوق خضر باريس. وكانوا جميعاً يصيحون:

- إلى الباستيل ! إلى الباستيل !

أمَّا «بيو»: نفسه فكان يقلب الأمر في رأسه على وجوهه المختلفة. فهو يدرك مبلغ ما في هذه المجازفة من خطورةٍ. وكم سمع ضحكات سخرية ممَّن عرض عليه فكرته، فالباستيل معروف عنه أنَّه حصن من أمنع الحصون، فهو بمنأي على أي قوَّة مهاجمة مهما كانت قويَّة مستعدة.. فما بالك بجماعةٍ من الغوغاء ؟

لذلك كان أوَّل ما فكَّر فيه هو الحصول على الأسلحة الكافية، فوجه الجماهير أولاً إلى ميدان البلدية، وهناك عيَّن مساعدين ونواباً ترك لهم قيادة الشعب أو

بالأحرى كبح جماحه فلا يُقدم على تصرُّفات حمقاء، ريثما يُقابل رئيس مجلس البلدية وعمدة باريس..

وصعد " بيو" بكُلِّ جسارة سُلم البلدية الضخم، وقال لأحد الحُجاب:

ـ مَنْ هو الرئيس هنا ؟

ـ إنَّه عمدة باريس المسيو " دي فليسيل"...

ـ المسيو دي فليسيل ؟! هو من أعداء الشعب إذاً !

ـ إنَّه رجل ممتاز موهوب يا سَيِّدي..

ـ إذاً قدني إليه.. فإني أُريد مقابلته..

ـ مستحيل يا سَيِّدي، فهو مشغول جدًّا في هذه السَّاعة.

ـ مشغول ؟ وفيم الانشغال ؟

ـ إنَّه يُعد الآن قائمة بالقوَّة المُسلحة " المليشيا" التي ستؤلِّفها المدينة.

ـ عظيم جدًّا ! أنا أيضاً أؤلِّف الآن ميليشيا من المدينة. وبما أنَّ تحت أمرتي ثلاثة آلاف رجل فعلاً، فأنا في موقف لا يقل عن موقف المسيو دي فليسيل الذي لم يجند إلى الآن جندياً واحداً.. فاسمح لي بمقابلة المسيو دي فليسيل فوراً.. وأنظر من النافذة إذا كنت في شكٍ من أمري.

وألقي الحاجب نظرة سريعة من النافذة، فرأى الميدان يموج بالنَّاس الثائرين، فأسرع يبلغ المسيو " دي فليسيل " حقيقة الموقف، وأشار له على القوَّة المتجمعة في الميدان، فامتلأ العمدة بشعور الاحترام للرَّجل الذي تحت قيادته كُلّ هذه الجماهير ، فغادر حجرة المكتب وخرج إلى البهو ليقابله بنفسه، فلما رأى " بيو" أدرك أنَّه هو، وابتسم له قائلاً:

ـ أنت الشخص الذي طلب مقابلتي. أليس كذلك ؟

ـ أنت المسيو فليسيل عمدة مدينة باريس فيما أعتقد ؟

ـ أجل يا سَيِّدي. فهل من خدمةٍ أستطيع أن أؤديها لك ؟ وكُلّ ما أرجوه أن تتكلم باختصار، لأنَّ ذهني مشغول.

ـ يا سَيِّدي العمدة الصالح. كم قوَّة في فرنسا ؟

ـ أظن يا سَيِّدي العزيز أنَّك تُريدني أن أُجيب على هذا السؤال من وجهة نظر الشعب. أليس كذلك ؟

ـ بل من وجهة نظرك شخصياً.

ـ لو أنَّك يا سَيِّدي سألت مسيو «بايي» رئيس الجمعية الوطنية هذا السؤال لأجابك أنَّ في فرنسا قوَّة واحدة هي الجمعية الوطنية. وإذا سألت المسيو «دي درو بريزيه» مدير التشريفات لأجابك أنَّ في فرنسا قوَّة واحدة أيضاً، ولكن هذه القوَّة هي الملك.

ـ وأي هذين الرأيين رأيك يا سَيِّدي العمدة ؟

ـ إنَّ رأيي سيما في اللَّحظة الراهنة أنَّ هناك قوَّة واحدة. وهذه القوَّة ليست الملك وليست الجمعية الوطنية، وإنما هي الشعب.

ـ الشعب ؟

ـ نعم الشعب. وأعني بذلك حضرات السَّادة الموجودين الآن في الميدان ومعهم العصي والسلاح.

ـ قد تكون على حق يا مسيو فليسيل. ويبدو أنَّ مَنْ قال لي أنَّك رجل ممتاز لم يكن مخطئاً.

فانحنى مسيو " دي فليسيل" شكراً لهذه التحية، ثُمَّ قال:

ـ وأي قوَّة من هذه القوى الثلاث تريد أن تفاوض ؟

ـ أعتقد يا حضرة العمدة أنَّه إذا كان لدي المرء طلبات، فالأولى به أن يتوجه بها إلى الله لا إلى أوليائه.

ـ هل أفهم من هذا أنَّك تريد التوجه لمقابلة الملك. وماذا ستقول له ؟

ـ سأطلب منه إطلاق سراح الدكتور جيلبير الموجود حالياً في الباستيل.

ـ الدكتور جيلبير ؟ إنَّه مؤلِّف كتب سياسية. أليس كذلك ؟

ـ بل قل أنَّه فيلسوف يا سَيِّدي.

ـ كلاهما واحد. وأظن أنَّ الفرصة التي أمامك ضعيفة جدًّا فليس من المحتمل أن يجيبك جلالة الملك إلى هذا الطلب.

ـ ولماذا ؟

ـ أولاً لأنَّ الملك ما دام قد أرسل المسيو جيلبير إلى الباستيل، فلابدّ أن لديه من الأسباب ما جعله يفعل ذلك.

ـ معقول. فعلى جلالته أن يبسط لي أسبابه ويوضحها، وسأبسط له أنا أسبابي لطلب إطلاق سراحه.

ـ يا عزيزي السَّيِّد بيو، الملك مشغول جدًّا في الوقت الحاضر، وأشك كثيراً في أنَّه سيسمح لك بالمقابلة.

ـ أوه ! إذا لم يسمح لي بالمقابلة، فسأجد طريقة أقابله بها بدون استئذان جلالته.

ـ جائز. ولكن بمُجرَّد دخولك، فستجد المسيو دي درو بريزيه مدير التشريفات الذي سيتولى إلقاءك من فوق السلالم.

ـ آه. يلقيني أنا من فوق السلالم ؟

ـ طبعاً. فقد صرح بأنَّه يُريد أن يفعل هذا بالجمعية الوطنية مجتمعة، صحيح

أنَّه لم ينجح في تنفيذ هذه الأمنية بالنسبة للجمعية الوطنية مجتمعة، ولكن هذا يا صاحبي سبب أقوى لاشتداد غيظه، فيصب انتقامه على رأسك.

ـ إذاً سألجأ في هذه الحالة إلى الجمعية الوطنية في فرساي.

ـ ولكن الطريق إلى فرساي مسدود.

ـ سأذهب واقتحمه برجالي الثلاثة آلاف.

ـ احذر يا سَيِّدي العزيز. فستجد في ذلك الطريق على استعداد لمقابلتك أنت ورجالك حوالي خمسه آلاف جندي سويسري، وفي صحبتهم نحو ثلاثة آلاف جندي نمساوي، يلتهمونكم في لقمةٍ واحدةٍ وفى غمضه عين.

ـ يا للشيطان ! ماذا ينبغي أن أصنع إذاً ؟

ـ أصنع ما بدا لك، ولكن أرجو منك أن تسحب رجالك من الميدان فإنَّهم يدقون الأرض ببنادقهم وعصيهم، ومن تحت أرجلهم قبو البلدية وفيه ثمانية آلاف رطل من البارود تلتهب لأقل شرارة، فتنسفنا جميعاً.

ـ في هذه الحالة لن أتجه إلى الملك ولا إلى الجمعية الوطنية.

ـ إلى مَنْ ستتجه إذاً ؟

ـ إلى الأمة، لنستولي على الباستيل مباشرة.

ـ وبماذا تستولي عليه يا سَيِّدي ؟

ـ بالثمانية آلاف رطل من البارود الموجودة في قبو البلدية.

ـ أنَّك تمزح ولا شك !

ـ لستُ مازحاً. المفاتيح من فضلك وإلَّا استدعيت رجالي.

فاصفر وجه" دي فليسيل "، ولكنَّه كظم غيظه، وقال:

ـ الواقع أنَّك تسدى إلىَّ خدمه جزيلة بتخليصي من هذه المسؤولية الثقيلة. وما

دامت هذه رغبتك فإني سآمر بتسليم المفاتيح إليك إذا كنت مصمماً على أخذ هذا البارود.

ـ أنَّى مصمم جدًّا.

ـ وهل ستوزعه بنفسك ؟

ـ بنفسي.

ـ ومتى ؟

ـ في هذه اللَّحظة.

ـ لنتفاهم من فضلك، لدىَّ الآن عمل قد يستغرق ربع ساعة وأرجو ألَّا تبدأ في توزيع البارود إلَّا بعد خروجي من هنا. فقد تنبأ لي فلكي أنني سأموت ميتة عنيفة، وأنا أعترف لك أنني لستُ ميالاً إلى أن يكون ذلك بانفجار البارود.

ـ لك ما تريد. سننتظر ربع ساعة إذاً. ولكن لي مقابل رجائك رجاء.

ـ ما هو ؟

ـ أن تقترب معي من هذه النافذة.

ـ ولماذا ؟

ـ إني أُريد أن أجعل لك مكانة شعبية.

ـ وبأي وسيلة ؟

ـ سترى...

وصحب " بيو" العمدة إلى النافذة التي كانت مفتوحة، ثُمَّ صاح في الجمهور المجتمع في الميدان بصوته العريض، قائلاً:

ـ أيها الرفاق ألَّا تزالون مُصرين على الاستيلاء على الباستيل ؟

فأجابه ثلاثة آلاف صوت كالرعد:

ـ إلى الباستيل ! إلى الباستيل !

ـ ولكنكم بحاجةٍ إلى بارود.. أليس كذلك ؟

ـ نريد البارود.. نريد البارود..

ـ ها هو حضره العمدة قد منحكم كُلّ البارود الموجود في أقبية البلدية.

فتعالت الهتافات بحياة حضرة العمدة حتى اغرورقت عينا مسيو «دي فليسيل» بالدموع، فالتفت إليه " بيو " هامساً بلهجةٍ ذات مغزى:

ـ والآن يا حضرة العمدة إذا خطر لك أن تلعب بنا، فهؤلاء الذين هتفوا لك بطول الحياة هم الذين سيتولون تقصيرها بأيديهم.. مفهوم ؟

ـ هاك المفاتيح يا سَيِّدي.. فإنَّ لديك طريقة حاسمة في الإقناع.

ـ هناك طلب آخر بسيط جدًّا.

ـ ما هو يا ترى ؟

ـ هل لك معرفه بحاكم الباستيل المسيو " دي لوناى"؟

ـ أنَّه من أصدقائي..

ـ في هذه الحالة لا شك أنَّه يهمك ألَّا يحدث له سوء..

ـ طبعاً..

ـ إذاً في يدك أن تمنع عنه هذا السوء.

ـ وكيف ذلك ؟

ـ بأن تحاول إقناعه بأن يُسلِّم لنا حصن الباستيل دون مقاومة، أو على الأقل يطلق سراح الدكتور جيلبير.

ـ لا أظنك تتصوَّر أنَّ لي من التأثير على المسيو «دي لوناى» ما يجعله يسلم إليك قلعته أو سجيناً من سجنائه.

ـ سأتولى أنا الإقناع. وكُلّ ما أطلبه منك أن تعطيني خطاب تقديم إلى المسيو دي لوناي كي أتمكَّن من مقابلته.

ـ ولكن تدخل الباستيل وحدك ؟

ـ نعم وحدي..

ـ وأنذرك إذا دخلت وحدك فربما لن تخرج أبداً.

ـ قبلت على مسؤوليتي الخاصَّة.

ـ إذاً سأكتب لك الآن خطاب التوصية.

وتناول العمدة ورقه وكتب فيها هذه السطور:

" حضره الحاكم..

نحن رئيس تجار مدينه باريس، ورئيس بلديتها، نبعث إليك حامل هذا المسيو " بيو"، للتباحث معك في أمور تهم مدينتنا.

دي خليل

14 يوليه سنة1789 ".

وما أن تسلَّم " بيو" الورقة، حتى أسرع العمدة بركوب عربته والابتعاد عن الحي، وبدأ "بيو" في توزيع البارود على رجاله الثلاثة آلاف.

## الفصل الحادي عشر

# مع زعيم العمال

*With the leader of the workers*

كان" دي فليسيل" صادقاً في قوله أنَّ في أقبية البلدية ثلاثة آلاف رطل من البارود. وقد تولى " بيو" هو و"مارا" ـ الذي كان قد تعرَّف به في اليوم السَّابق أثناء ارتياده المجتمعات الثورية ـ عمليه توزيع البارود على الجنود.

وقد نجحا في ضبط عواطف النَّاس وإلزامهم بالهدوء ومراعاة النظام وأن ينتظر كُلّ واحد منهم دوره. وقد خصّ كُلّ مواطن نصف رطل من البارود وحوالي أربعين طلقه.

ولما انتهى التوزيع على هذه الصورة أتضح أنَّ البنادق قليله العدد جدًّا بالنسبة للمواطنين فلم يكن هناك إلَّا نحو خمسمئة يحملون بنادق صالحه للاستعمال.

وأثناء عمليه التوزيع تسرب عدد من المواطنين المتحمسين في طلب السلاح إلى حجرات البلدية العليا حيث وجدوا النواب يتباحثون في تكوين الحرس الأهلي. وكانوا قد قرَّروا أن يكون عدده ثمانية وأربعين ألفاً.. وكان هذا الجيش غير موجود إلَّا على الورق، ومع هذا قد شرع النواب يتشاجرون على اسم القائد العام..

وفي هذه اللَّحظة عاد العمدة، لأنَّه لم يُسمح له بالذهاب إلى فرساي حيث كان يعتزم، فالتفت النَّاس حول عربته هاتفين:

ـ السلاح يا عمدة. نريد السلاح !

ـ ولكن ليس عندي سلاح.. اذهبوا إلى الترسانة.

وذهب نحو ستة آلاف إلى الترسانة فوجدوها خاوية، فعادوا ثائرين إلى دار البلدية، ففتح لهم جميع الأبواب فلم يجدوا شيئاً..

وكان توزيع البارود والطلقات قد انتهى فقال "مارا"، لـ" بيو":

ـ أسمع يا صاحبي. توجه أنت إلى الباستيل، أمَّا أنا فسأذهب إلى مكانٍ ما، وسأبعث إليك هناك بعشرين ألف مواطن.

ثُمَّ خرج " مارا" إلى النَّاس، فوقف على مقعدٍ وصاح بهم :

ـ أنا مارا فاستمعوا لي !

فساد الصمت واشرأبت الأعناق..

ـ أتريدون أسلحه تستولون بها على الباستيل ؟

ـ أجل. أجل. أجل. نريد السلاح..

ـ إذاً تعالوا معي أعطيكم السلاح..

ـ إلى أين ؟

ـ إلى الأنفاليد أيها الرفاق.

فتعالت هتافات الجماهير:

ـ إلى الأنفاليد ! إلى الأنفاليد ![1]

ومال " مارا" على أُذن " بيو"، قائلاً:

ـ اذهب أنت الآن. ولكن ربما احتجت إلى مدد قبل وصول رجالي، وفي هذه الحالة أعط هذه الورقة للمواطن " جونشون..." يُقدِّم لك المساعدة المطلوبة..

ـ جونشون ؟ ومَنْ هو ؟

ـ لستُ بحاجةٍ إلى أكثر من ذكر أسمه لأوَّل عامل تُقابله، فإنَّه زعيم العمال.. ولترافقك عناية الثورة وبركات الحُرَّيّة.

وسار " بيو" مع " بيتو" نحو الباستيل، فوجدا في الطريق جماعات صاخبة ثائرة، فلما وصل إلى الحصن هاله منظره، وما فيه من بنادق مصوبة بالآلاف من ثقوبه نحو الجماهير، فقال بصوتٍ مسموع:

ـ لقد صدق قولهم.. لن نستطيع دخول هذا الحصن..

وإذا بصوتٍ من خلفه يقول له:

ـ ولماذا لا يمكن ذلك أيها المواطن ؟

فالتفت " بيو" ليرى وراءه شخصاً غريب الشكل، وحشي السحنة، لباسه عبارة عن أسمال بالية، ولعينيه بريق خاطف كأنهما جمرتان، فقال له :

ـ لماذا ؟ لأنَّه لا يبدو ممكناً أن يستولى أحد على كتله صماء قويَّة مثل هذه عنوه واقتداراً..

---

(1) الأنفاليد: واحدٌ من أعرق مؤسسات الجمهورية الفرنسية يجله الشعب الفرنسي بدرجةٍ كبيرةٍ، لكونه يحتوي على مقابر الجنود وكبار رجال الحرب، ورُفات الزعماء التاريخيين لفرنسا أمثال نابليون بونابرت،ويحوي كذلك العديد من النُصب التذكارية.(المُعد).

ـ يا صاحبي، إن الاستيلاء على الباستيل ليس عملاً حربياً، وإنما هو مسألة إيمان.. آمن يكن لك ما تريد..

فهز " بيو" رأسه وتحسَّس جيبه باحثاً عن خطاب العمدة الذي يمكن أن يُقدمه لحاكم الباستيل، وقال:

ـ صبراً.. صبراً..

ـ آه ! أنت بدين.. ويبدو أنَّك فلاح.. لهذا تريدنا أن نصبر.

ـ أنا فلاح فعلاً..

ـ إذاً لا عجب. فقد كنتم دائماً تنعمون بتغذيةٍ جيدةٍ أيها الفلاحون، فلا بأس عليكم من الصبر والانتظار. أمَّا نحن فانظر وراءك لترى هذا الجيش من الجياع الذين جفت عروقهم، فأنَّك تستطيع أن تحصى ضلوعهم من ثقوب ثيابهم المهلهلة.. ثُمَّ سلهم بعد ذلك هل يطيقون الصبر، أو يفهمون معزي تلك هذه الكلمة البغيضة البلهاء.

فلما سمع " بيتو" هذا الكلام الموجه إلى" بيو"، همس في أذنه قائلاً:

ـ هذا والله كلام صادق، ولكنَّه يخيفني..

ـ ولكنَّه لا يُخيفني أنا !

ثُمَّ التفت إلى الرَّجل الغريب، قائلاً:

ـ إني أقول صبراً، ولكنى لا أسألك الصبر إلَّا ربع ساعة فقط.

ـ ربع ساعة ؟ .. ولكن ماذا تُراك تصنع من الآن إلى نهاية هذه الربع ساعة ؟

ـ في هذا الوقت أكون قد زرت الباستيل وعرفت عدد رجال حاميته، ونوايا حاكمه.. وأكون كذلك قد عرفت مداخله.

ـ هذا إذا عرفت بعد ذلك مخارجه !

ـ وهبني لم أستطيع الخروج، فإنَّ هناك مَنْ سيأتي لإخراجي.

ـ ومَنْ هو هذا الرَّجل الذي سيخرجك ؟

ـ إنَّه جونشون، زعيم العمال وميرابو[1] الشعب.

فتراجع الرَّجل الغريب مأخوذاً وألتمعت عيناه، وصاح به:

ـ هل تعرف جونشون ؟

ـ كلا.. لم أقابله بعد..

ـ إذاً ماذا تعنى بكلامك هذا ؟

ـ سأتعرف به الآن. فقد قيل لي أنَّ أوَّل مَنْ أصادف من العمال في ساحة الباستيل يستطيع أن يدلني عليه.. فخذني إليه من فضلك.

ـ وماذا تريد منه ؟

ـ أُريد أن أسلم إليه هذه الورقة..

ـ ممَّن ؟

ـ من مارا، الطبيب.

ـ من ماذا ؟ أتعرف مارا ؟

ـ لقد فارقته منذ لحظةٍ.

ـ أين ؟

ـ في دار البلدية.

---

(1) ميرابو،المقصود به " أونوريه جابرييل ريكويتي"، المعروف بالكونت " دي ميرابو" (المولود في عام1749 ، والمتوفي في عام1791) وهو ثوري فرنسي، وكاتب، وصحفي، ودبلوماسي، وسياسي، وخطيب الثورة الفرنسية. خلال الثورة الفرنسية كان ميالاً لنظام ملكي دستوري مبني على نموذج المملكة المتحدة. أدار مفاوضات سرية فاشلة مع النظام الملكي الفرنسي في محاولة للتوفيق بينه وبين الثورة.(المُعد).

ـ وأين ذهب بعد ذلك ؟

ـ إلى الأنفاليد كي يُسلِّح عشرين ألف مواطن ويرسلهم إلينا هنا.

ـ في هذه الحالة أعطني الورقة.. أنا جونشون !

فبهت " بيو"، وسأله مُفكِّراً

ـ أأنت حقاً جونشون ؟

فصاح " جونشون" في النَّاس من حوله:

ـ أيها الرفاق.. إن هنا إنساناً لا يعرف جونشون ! فقولوا له مَنْ يكون جونشون !

فصاح الجميع هاتفين بصوتٍ كالرعد:

ـ يعيش جونشون !

وأعطاه " بيو" الورقة فقرأها، ثُمَّ قال:

ـ أيها الرفاق ! إن الطبيب مارا يوصينا بهذا الرفيق، فيجب أن نثق به. وسنحقق متعاونين عملاً عظيماً..

فصاح بعض الواقفين:

ـ وماذا تنويان أن تصنعا ؟

ـ سنستولي على الباستيل !

فُسر " بيو" لتصميمه، وقال له:

ـ بكم تستطيع أن تمدني ؟

ـ بثلاثين ألفاً أو نحو ذلك.

ـ ومعنا الآن عشرة آلاف، وسيأتينا من مارا مدد قوامه عشرين ألفاً.. فالمجموع خمسين ألفاً.. هذا والله عدد كاف للنجاح. وإلَّا فلن ننجح على الإطلاق.

ـ بل سننجح حتماً.

ـ أعتقد هذا. وسأذهب الآن وحدي لمقابلة حاكم الباستيل كي أفاوضه في التسليم. فإذا سلَّم الحصن حقن الدماء، وإذا لم يسلمه فدماء الآلاف التي ستسيل أنهاراً ستكون على رأسه..

ـ اتفقنا.. أذهب الآن وصاحبك التوفيق..

## الفصل الثاني عشر

# مع حاكم الباستيل

*With the pastet governor*

حاولوا عند المدخل الأوّل للباستيل أن يمنعوا " بيو"، بيد أنَّه أبرز التصريح الذي أعطاه إياه عمدة باريس، فتركوه يمرّ. ولكنَّه لاحظ أنَّ" بيتو" يتبعه، فتوقف، وقال له:

ـ أنت لا تحمل تصريحاً، فابق في الخارج كي تُذكِّر بي الشعب إذا طالت غيبتي وتدفعهم إلى الثأر إذا حدث مكروه لي.

ـ هذا معقول. وكم من الوقت يجب أن انتظر قبل أن أُثير الشعب ؟

ـ ساعة كاملة.

ـ والصندوق ؟ صندوق الدكتور جيلبير ؟

ـ لقد ذكرتني. إذا لم أخرج من الباستيل فقل للدكتور جيلبير أنَّ الصندوق قد سرق، واذكر له جهودي في سبيل البحث عنه، وإنَّني لم أضع خطه اقتحام الباستيل إلَّا من أجل إطلاق سراحه.

وافترقا بشجاعةٍ وتجلد، فاجتاز " بيو" أوَّل نطاق من الحراس فلما وصل إلى

القنطرة المتحركة كان عليه أن يبرز الترخيص مرَّة أخرى كي يسمحوا له بالدخول، فلما أبرزه فتحوا البوابة الداخلية، فوجد من ورائها الحاكم واقفاً بنفسه لمراقبه الحالة في الفناء المُخصَّص عادةً لنزهه السجناء. وتطل على ذلك الفناء ثمانية أبراج صماء خاليه من النوافذ تماماً.. وظلال الأبراج تمنع الشمس عن أرض الفناء، فهي شديدة الرطوبة كثيرة الأوحال، كأنَّها بئر متسع .

وكان المسيو «دي لوناي» حاكم الباستيل رجلاً في الخامسة والأربعين من عُمْره، مرتدياً حلة رمادية اللَّون مُحلاة بوشاح القديس لويس الأحمر اللَّون، وفي يده عصا تخفى بداخلها سيفاً.

والمسيو «دي لوناي» هذا رجلٌ شريرٌ يكن النَّاس له من البغض والحنق مثل الذي يكنونه للسجن نفسه ! وقد توارث " آل دي لوناي " وظيفة حاكم الباستيل أباً عن جد، حتى صار السجن مقترناً باسمهم.

والواقع أنَّ وظيفة حاكم الباستيل وظيفة تجارية، فالحاكم فندقي وبائع طعام يرتدى الزى العسكري.. فهو يتناول من نزلائه المساجين أجراً على طعامهم، يختلف بحسب ثروتهم ومركزهم، ومعظمهم من أغنياء النَّاس.

وهو كذلك يبيع وظائف السجن لمَنْ يدفع أكبر ثمن، وعلى الموظف بعد ذلك أن يحصل على رأس المال والفائدة الدسمة من دم المساجين ! ولهذا يبلغ إيراد حاكم الباستيل من مرتبه ومكاسبه الأخرى أكثر من مئة وعشرين ألفاً ذهباً.. و"دى لوناي" الحالي أبخل أهل بيته وأكثرهم شحاً وتقتيراً، لهذا هو أبغضهم وأغناهم.

ومن نوادر بخله وتدبيره، أنَّ له بحكم وظيفته الحق في استيراد مئة برميل نبيذ إلى باريس وبدون جمارك، ليُقدِّم الشراب للسجناء. فكان «دي لوناي» يبيع ذلك الحق لتاجر نبيذ يستورد بها أحسن الأنواع، ويشترى هو بعشر المكسب مئة برميل من الخل يُقدِّمها للسجناء تحت اسم النبيذ !!

وكان المتنفس الوحيد للسجناء حديقة صغيرة يتمتعون فيها بالشمس والهواء والأزهار، فأجرها المسيو " دي لوناي" لبستاني نظير خمسين جنيهاً في السنة، وحرم بذلك السجناء هذه المتعة الوحيدة.

يُضاف إلى هذا أنَّه كان يفعل أي شيء لمرضاة سجنائه الأثرياء ما داموا يدفعون ثمن ما يريدون.. فهو مثلاً كثيراً ما يقود بنفسه بعض سجنائه إلى بيوت عشيقاتهم ويجلس في الانتظار حتى يفرغوا من غرامياتهم فيعود بهم إلى الزنزانات.. نظير مبلغ محترم !!

ولكن رغم كُلّ هذه النقائص، كان الرَّجل شجاعاً ! فهو منذ اليوم السَّابق يشعر بهدير العاصفة من حوله، ولكنَّه مع هذا بقى هادئاً، وإن كان شاحب الوجه..

وهو الآن سيواجه مندوب الشعب الثائر أعزل من السلاح ـ لأنَّ " بيو" كان قد أعطى "بيتو" بندقيته قبل أن يفترقا ـ في حين أنَّه يملك تحت إمرته في الباستيل أربع بطاريات مدافع مستعدة للإطلاق في أي لحظةٍ، عدا حامية كبيرة من السويسريين.

وكانت عين " بيو" كعين النسر فتلاحظ وتسجل كُلّ شيء، فلاحظ نذر الشر في وجه الحاكم، ولاحظ إقبال رجال المدفعية على إعداد القذائف بحماسةٍ وهمةٍ، وأن الحراس كانوا على أهبة الاستعداد للضرب.

ووقف " دي لوناي" في مكانه، إلى أن وصل إليه" بيو"، فقال له:

ـ ماذا تريدون منى هذه المرَّة أيضاً ؟

ـ هذه المرَّة أيضاً ؟ ولكن لا أعتقد أنني قابلتك قبل الآن..

ـ لقد فارقني منذ قليل مندوب مثلك من البلدية.

ـ وماذا كان سبب حضوره ؟

ـ طلبوا منى وعداً ألَّا أكون البادئ بإطلاق النَّار..

ـ وقد وعدت بذلك طبعاً..

ـ أجل..

ـ وهل هذا كُلّ ما طلبوا ؟

ـ طلبوا أيضاً أن أسحب المدافع إلى الداخل لتهدئة روع الشعب.

ـ وقد أجبت هذا الطلب أيضاً، أعلم ذلك، فقد رأيته بعيني وأنا قادم.

ـ والآن. أتظنون أنني فعلت ذلك خوفاً منكم ؟ وماذا تريد الآن ؟

ـ لقد أتيت إلى هنا نيابة عن الشعب.

ـ وماذا تريد او ماذا يريد حضرة الشعب ؟

ـ بكُلِّ بساطه يريد أن تسلم لنا الباستيل.

ـ ماذا تقول ؟!

ـ أقول أنني جئت باسم الشعب أطلب أن تسلموا الباستيل للشعب.

فهز" دي لوناي" كتفيه ونظر إلى ضباطه قائلاً:

ـ الحق أنَّ الشعب حيوانات غريبة الأطوار ! وماذا يريدون أن يصنعوا بالباستيل بعد أن يتسلموه ؟

ـ يريدون هدمه ومحوه من الوجود !

ـ ولماذا بالله ؟ ماذا فعل الباستيل بالشعب حتى يكرهه ؟ هل هذا سجن شعبي ؟ لو عقل الشعب لبارك كُلّ حجر في الباستيل. إذ من الذين يضمهم سجن الباستيل: الفلاسفة، والعلماء، والقواد والأرستقراطيون، والوجهاء، والوزراء، والأمراء.. وهم أعداء الشعب.

ـ آه ! هذا يدل يا حضره الحاكم أن الشعب ليس أنانياً.

ـ اسمع يا رجل ! أعلم أوَّلاً، وليعلم الشعب معك أنَّ لدىَّ من البارود ما يكفى لا لنسف الباستيل وحده، بل ولنسف نصف حي سان أنطوان على الأقل. فلن أُسلم الباستيل سليماً.

ـ كُلّ هذا معلوم لنا جيداً.

ـ وانظر الآن إلى هذه البطاريات الأربع. إنها محمية داخل برج، يحميه خندقان عليهما قنطرتان متحركتان، ومن ورائهما بوابة حديدية.

ـ أنا لا أزعم يا حضرة الحاكم أنَّ الباستيل سيء التحصين، ولكنى أقول فقط أنَّه سيهاجم هجوماً عنيفاً جدًّا.

ـ ثُمَّ انظر إلى هذه الجدران والأسوار، إنَّ سمكها أربعون قدماً عند الأساس، وخمسة عشر قدماً عن القمة.. فمهما كانت أظافر الشعب قويَّة حادة، فلن تستطيع هدم الباستيل !

ـ أنا لم أقل أنَّ الشعب سيهدم الباستيل قبل أن يستولى عليه، ولكن سيستولى عليه أوَّلاً ثُمَّ يهدمه بعد ذلك..

ـ ثُمَّ انظر إلى هذه المدافع. إنَّها لم تسحب من مواضعها كما ظننت، بل سحبت إلى الوراء فقط، ويمكن دفعها إلى أماكنها في أي وقت بغير عناء.

ـ سأخبر الشعب أنَّ المدافع لم تنزل عن مواضعها..

ـ أخبره. ولكن ثق بأن مدافع الملك هنا بأمر الملك، ولن تزال عن مواضعها إلَّا بأمرٍ من جلالته.

ـ يا مسيو دي لوناي إنَّ جلالة الملك الحقيقي هو الذي أفاوضك الآن باسمه. وهو واقف هناك في الميدان..

ـ سَيِّدي ! قد تعترف أنت بملكين، أمَّا أنا دي لوناي حاكم الباستيل فا أعرف

أنَّه في فرنسا ليس سوي ملكاً واحداً، هو لويس السَّادس عشر، الذي كُلّ شيء وكُلّ إنسان هنا باسمه وتحت أمره.

ـ أنت إذاً لست مواطناً يا مسيو دي لوناي..

ـ أنا نبيلٌ فرنسيٌ.

ـ آه ! لقد نسيت أنَّك جندي وتتكلم بلغة الجنود.

ـ صدقت فأنا جندي ولا أعرف إلَّا تنفيذ الأوامر.

ـ أمَّا أنا يا سَّيِّدي فمواطن.. وواجبي كمواطن يتعارض مع أوامرك كجندي. فيجب على أحدنا أن يموت، إما الجندي وإما المواطن.

ـ هذا كُلَّه محتمل يا سَّيِّدي.

ـ أنت إذاً مصمم على إطلاق النَّار على الشعب ؟

ـ كلا، لن أطلق النَّار إلَّا إذا أطلقوا هم النَّار أوَّلاً، فعندما تصدر أوَّل طلقة من جانبكم ستعود المدافع فوراً إلى أماكنها وسأصوبها بيدي هاتين وأشعلها.

ـ أنت ؟

ـ أجل أنا.

ـ لو تأكَّدت من هذا لما سمحت لك بالبقاء إلى أن تقترف هذه الجريمة.

ـ ألم أقل لك يا سَّيِّدي أنني جندي لا يعرف إلَّا أوامره ؟

ـ أنظر إذاً إلى الميدان فسترى الذين ستتلقى منهم الأوامر بعد اليوم.

وأشار" بيو" بيده إلى الجموع الحاشدة التي كانت تسد الميدان، فقد وصل في هذه الأثناء الطبيب " مارا" على رأس عشرين ألفاً مسلحين من الأنفاليد، كما وصل " جونشون" على رأس ثلاثين ألفاً آخرين. فلما رأى " دي لوناي" ذلك أصفر وجهه، وصاح:

ـ إلى مدافعكم !

ثُمَّ اتجه نحو " بيو" متواعداً، فقال:

ـ وأنت أيها التعس. لقد أتيت لتضيع الوقت معي في مفاوضةٍ حمقاء ليكسب زملاءك الوقت فيتكتلوا وينظموا صفوفهم. إنَّك تستحق أن أقذف بك من فوق الأسوار. ولكن لن أدنس يديَّ بدمك. فأخرج إلى أصحابك وبشرهم بسوء المصير

وفي هذه اللَّحظة تقدَّم ضابط ووجه الخطاب إلى " بيو"، قائلاً:

ـ أرجو يا سيدي أن تطل على الجماهير بنفسك ليشاهدوك، فقد شاع بينهم أنَّه قد حاق بك سوء. وهو يصيحون باسمك.

فقال " دي لوناي":

ـ أطل عليهم يا سَيِّدي ليعلموا أنني رجل شريف لا أخدع ولا أغتال الرسل.

فأطل عليهم " بيو" ولوح لهم بيده. فتعالى الهتاف باسمه مقروناً بالتهليل. ثُمَّ أمره «دي لوناي» بعد ذلك، قائلاً:

ـ والآن باسم الملك يا سَيِّدي آمرك بمغادرة الباستيل !

ـ وأنا باسم الشعب أناشدك التعقُّل والتسليم !

ـ سحقاً للشعب.

ـ باسم إخوانك في الوطن والإنسانية أناشدك حقن الدماء.

ـ إخواني ؟ هؤلاء الذئاب المعتدية، والكلاب النابحة إخواني ؟ أنَّهم قد يكونون إخوانك أنت، أمَّا أنا فليسوا لي بإخوةٍ.

ـ إنَّها آلاف الأرواح يا سَيِّدي الحاكم !

ـ وإنَّه شرفي العسكري.

فالتفت " بيو" إلى الحرس وجنود الحامية وصاح بهم:

ـ خلصوا أنفسكم وسلموا الحصن، فبعد عشر دقائق تكون الفرصة قد انقضت.

فثارت ثائرة «دي لوناي" وصرخ في وجهه، قائلاً:

ـ اخرج فوراً وإلَّا فأنى أقسم بشرفي أن آمر بإطلاق النَّار عليك.

فعقد " بيو" ذراعيه فوق صدره، وتبادل مع "دي لوناي"نظرة حانقة نارية، ثم انصرف من البوابة إلى الخارج.

## الفصل الثالث عشر

# سقوط الباستيل

## The fall of Bastille

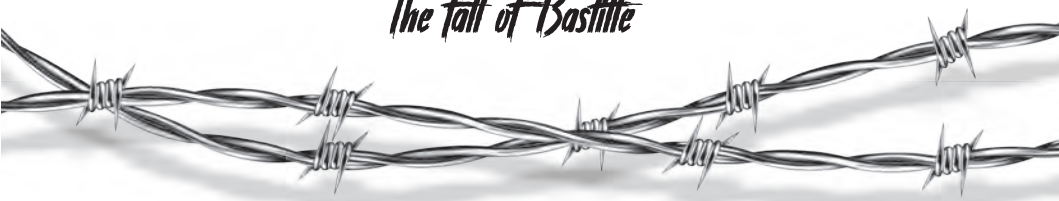

كان الجمهور منتظراً على أحر من الجمر، وقد أرسلت عليه شمس يوليه المحرقة حرارتها الحامية، فوق ما كان يتأجج في صدورهم من نيران الحماسة والقلق.

وكان " جونشون" هو الذي يتولى زمام القيادة. أما " مارا" فقد اختفى عن الأنظار. وتقدَّم "جونشون" نحو " بيو" عندما أبصر به خارجاً من الحصن، وقال له:

ـ ما وراءك ؟

ـ الحق أنَّ هذا الرَّجل شجاع حقاً.

ـ شجاع ؟ ماذا تعني ؟

ـ أعني أنَّه عنيد.

ـ هل لا يُريد أن يسلم الباستيل ؟

ـ لن يسلمه..!!

ـ وهل سيصمد للحصار ؟

ـ أجل سيصمد للحصار.

ـ وهل تظن أنَّه سيصمد طويلاً ؟

ـ حتى الموت.

ـ ليكن له ما يريد، موتاً شنيعاً.

ـ ولكن يهولني العدد الضخم جدًّا من المواطنين الذين ستذهب أرواحهم هدراً في سبيل اقتحام الباستيل. فأني لا أستحمل لنفسي ذلك الحق الذي يخوله القواد لأنفسهم أن يتسببوا في سفك الدماء بلا حساب في سبيل تحقيق غاياتهم العسكرية.

ـ أفٌّ لك ! إنَّ في العالم من النَّاس أكثر ممَّا ينبغي. بدليل أنَّه لا يوجد في الدنيا من الخبز ما يكفي جميع أهلها.

ـ والخندق ؟

ـ هذه ليست عقبة ذات بال. فإنَّنا سنحصل من بين صفوفنا على عددٍ هائلٍ من الجثث يكفي لردم موضع كبير منه.

فلم يسع " بيو" أمام هذه الحجج الجريئة سوى أن يقتنع. وفي هذه اللَّحظة أطل " دي لوناي" وثلاثة من معاونيه من فوق الأسوار، فصاح به " جونشون" قائلاً:

ـ ابتدئ !

فلم يجب " دي لوناي"، وأعطاه ظهره.

وكان " جونشون" شخصاً قد يحتمل التهديد والوعيد، ولكنَّه لا يمكن أن يحتمل الاحتقار، فرفع بندقيته إلى كتفه، وفي اللَّحظة التالية كان أحد مرافقي حاكم الباستيل قد خر صريعاً.

وكأنما كانت هناك آلاف من البنادق على أهبة الاستعداد في انتظار تلك الإشارة

من بندقية "جونشون"، فانطلقت دفعة واحدة وتركت آثارها الحمراء في جدران أبراج الباستيل رمادية اللَّون من فعل السنين.

وأعقبت ذلك بعد لحظات إنفجارات ضخمة ونيران قويَّة، فقد بدأت مدافع الباستيل تفتح أفواهها، وسمعت بين صفوف الجماهير صيحات الألم الفظيع والرعب الهائل.

لقد قذف الباستيل أوَّل قنابله، وتدرجت بأوَّل بقعة من الدماء أرض ساحته. وبدأت المعركة الهائلة.

وكان التأثير لدي جماهير الشعب تأثيراً غريباً، لأنَّ الأمة كانت تعودت في تلك الأيام أن تفتح لها جميع الأبواب وتجاب إلى جميع المطالب. فكانت تلك القنابل بمثابة تذكير حي بأن قلعة الباستيل حصن لا ينال.

وسرعان ما أعقبت تلك القنبلة عشرات من طلقات البنادق أطلقها الحرس السويسري في دقةٍ وإحكامٍ على هدف مكوَّن من كتلةٍ بشريةٍ قوامها خمسون ألف نسمة.

وساد الصمت لحظة، لا تعكره إلَّا بضع صرخات وأنات تنبعث من هنا وهناك، وتحرُّكات بين الجموع، فقد كان النَّاس يلتقطون من على الأرض قتلاهم وجرحاهم ويجمعون أشلاءهم المتناثرة.

بيد أنَّ الشعب لم يفقد أعصابه وحضور بديهته. فما كانت تظهر فوق الأبراج رأس جندي سويسري إلَّا وتوجه إليها مئات الطلقات، فتصيب في الغالب أحجار السور الذي يحتمي وراءه ذلك الجندي. وأخيراً سئم النَّاس تصويب قذائفهم إلى تلك الحجارة التي لا يؤثر فيها شيء. وهم يريدون أن يشبعوا شوقهم برؤية الدماء، لا برؤية التراب !

وبدأت الاقتراحات تتوالى وتتناثر هنا وهناك، و" بيو" يصغى إليها ويرى مبلغ ما

فيها من بلاهة وتفاهة. ثُمَّ لمح فأساً في يد أحد النجارين، فانتزعه منه واحتمي تحت باب رفعه فوق رأسه وتقدَّم نحو القنطرة المتحركة، ثُمَّ أعمل الفأس في سلاسلها حتى تحطمت، والرصاص يئز من حوله، فسقطت القنطرة فوق الخندق في دويٍ هائلٍ، وأرتفع صياح الفرح من أفواه الألوف الهائلة، ثُمَّ اندفعوا نحو الفناء الخارجي مهللين. فكان ذلك الهتاف هو الذي أعلم " دي لوناي" نبأ ذلك الانتصار الشعبي الأوَّل.

وكانت سرعه ذلك الهجوم كبيرة ومتدفقة بحيث لم تسنح الفرصة للحراس بمحاوله منعهم .

وأمر" دي لوناي" بطارياته الأربع فاكتسحت ذلك الفناء الأوَّل بنيرانها، فسقط أكثر من عشرين قتيلاً. وبذلك دخلت المعركة في مرحلتها الحاسمة فصارت معركة حياة أو موت. وكانت أكثر من عشرة آلاف بندقية تُطلق في وقتٍ واحدٍ حول جدران الباستيل فتُحدث دوياً مرعباً. ثُمَّ لم تلبث بطارية من المدافع أن وصلت إلى الميدان مع فريق من الحرس الوطني، فاشترك دويها مع دوى البنادق في إرعاب المحاصرين، بحيث شعر الضباط أن جنودهم قد أخذت روحهم المعنوية في الانهيار، فراحوا ينتزعون البنادق من أيدي الجنود ويتولون هم أطلاقها على الجماهير.

وفي هذه اللَّحظة ظهرت عند أبواب الباستيل جماعة من المواطنين المسالمين عزلاً من كُلِّ سلاح، لا يحميهم إلَّا علم أبيض. فلما أبصرهم الحاكم " دي لوناي" علم أنَّهم وفد جاء للتفاوض في الهدنة أو وقف القتال. فأسرع يأمر جنوده بالحذر.

وقد كان هذا الوفد مكوناً من نواب الأقسام في بلديه باريس، إذ أنَّهم عندما علموا ببداية القتال قرَّروا التوسط لحقن الدماء.

وكانت المقترحات التي يحملونها، أن يأمر " دي لوناي" بوقف إطلاق النَّار،وأن يضمن سلامة أرواح المواطنين، في مقابل سلامة حياته وحياه جنود حاميته.

وفي الفرصة التي هدأ فيها إطلاق النَّار حتى يدخل الوفد إلى الحصن، قسَّم

النَّاس أنفسهم جماعات على وجه السرعة لنقل الجرحى وجمع أشلاء القتلى. وقال " بيو" لـ"جونشون":

ـ لقد أوقفت القلعة إطلاق النَّار، فمرّ رجالنا أن يتوقفوا.

ـ لا جدوى من ذلك، لأنَّهم لن يطيعونا.

ـ ليكن، ولكن واجب الشرف يحتم علينا أن نصدر ذلك الأمر احتراماً لأصول الحرب، ما دمنا قد صرنا مُحاربين.

ـ ليكن لك ما تُريده.

ثُمَّ كلَّف " جونشون" جماعة من مُساعديه أن يتولوا تنفيذ هذه الأوامر بأنفسهم، فساد الصمت لحظة. ودقت ساعة الباستيل الثانية بعد الظهر. وكان الهجوم قد بدأ في السَّاعة الثانية عشرة. فمعنى ذلك أنَّه استمر حتى الآن ساعتين

وتعلَّقت الأنظار جميعاً وفي مقدمتها أنظار " جونشون"، و" بيو". وأستبد القلق حتى فرغ صبر النَّاس،سيما " جونشون". فلما رأى ذلك " بيو" سأله، قائلاً:

ـ ماذا يزعجك ؟

ـ يزعجني أنَّنا إذا لم نستول على الباستيل في مدة ساعتين ابتداء من هذه اللَّحظة، فإن كُلّ هذه الجهود تكون قد ضاعت عبثاً، ونكون قد خسرنا كُلّ شيء.

ـ ولماذا هذا الظن ؟

ـ لأنَّ البلاط الملكي يكون قد أُحيط علماً بما حدث، فتحضر النجدات من الجنود الألمان والسويسريين ونصير محاصرين بين ثلاثة نيران.

فلم يسع " بيو" إلَّا أن أعترف بوجاهة ذلك المنطق.

وأخيراً عاد وفد الهدنة، وقد ظهر على وجوه أفراده جلياً أنَّهم لم يصلوا إلى شيءٍ من التوفيق. فلما لاحظ " جونشون" ذلك تهلل وجهه وصاح مبتهجا:

ـ ألم أقل لك ؟ أنَّ هذا الحصن ملعون مكتوب عليه التدمير.

ثُمَّ قفز من مكانه دون أن ينتظر حتى يستوضح أعضاء وفد الهدنة، وصاح بالجماهير في صوتٍ كالرعد القاصف:

ـ إلى السلاح أيها الرفاق ! إلى السلاح ! لقد رفض الحاكم حقن الدماء والإصغاء لصوت العقل.

والواقع أنَّ الحاكم ما أن قرأ الرسالة التي حملها إليه الوفد من عمده باريس المسيو" دي فليسيل"، حتى قال لهم:

ـ يا حضرات السَّادة الباريسيين ! لقد أصررتم على القتال. أمَّا الآن فقد فات وقت المفاوضة والكلمة للسيف والمدفع دون غيرهما.

فألح أعضاء الوفد عليه، وناشدوه الوطنية والإنسانية، بيد أنَّه أبى ورفض صائحاً بهم في حنقٍ شديدٍ:

ـ اخرجوا من هنا او أمرت بإطلاق النَّار عليكم !

فأسرع أعضاء وفد الهدنة بالخروج. وكان" دي لوناي" هو البادئ هذه المرَّة بالعودة إلى إطلاق النَّار، وكانت القذيفة الأولى كافية لقتل ثلاثة أشخاص، أحدهم جندي في الحرس الفرنسي، والآخر من أعضاء وفد الهدنة أمَّا الثالث فمن الجمهور.

فلما رأى الشعب مصرع عضو وفد الهدنة، وهو الذي تجمع كافه الشرائع المدنية والعسكرية على أن ذاته مصونة لا تمس وشخصيته ذات مكانة مرموقة، اشتدت الحماسة بين صفوفه، وعاد إطلاق الرصاص من الجانبين أعنف ممَّا كان.

وفي هذه اللَّحظة تقدَّم نائب الحاكم نحو" دي لوناي"، قائلاً:

ـ سَّيِّدي. ليس لدينا مئونة كافية.

ـ أعلم هذا.

ـ وليست لدينا أيضاً أوامر بإطلاق النَّار على الجماهير.

ـ عفوك يا" دي لوم". إنَّ الأوامر التي لدىَّ أن أحافظ على أبواب الباستيل مغلقة. وعلى هذا الأساس سلموني مفاتيح تلك الأبواب. أليس كذلك ؟

ـ إن المفاتيح يا سَّيِّدي قد تستعمل للفتح كما تستعمل للغلق. وتذكَّر يا سَّيِّدي أنَّه يجب عليك ألَّا تتسبَّب في هلاك جميع الحامية دون أن تنقذ الحصن. انظر إلى الميدان ترى النَّاس كما النمل، ومَنْ تقتله منهم لا يؤثر في ضخامة عددهم.

ـ إنَّك لا تتكلم كجندي يا مسيو دي لوم !

ـ ولكنى أتكلم كفرنسي يا سَّيِّدي، وأُكرِّر عليك أنَّ جلالة الملك لم يعطنا أوامر بإطلاق النَّار سيما المدافع. وكنت أرى أن تقبل شروط عمدة باريس التي أرسلها عن طريق وفد الهدنة.

ـ هل أفهم من كلامك هذا يا مسيو دي لوم أنَّك تعتبر شعب باريس هو القوَّة التي نتلقى عنها أوامرنا ؟

ـ في حاله عدم وجود أوامر صريحة من جلالة الملك.

فانتحى" دي لوناي" بنائبه جانباً وأبرز إليه ورقة مطوية هي خطاب عمدة باريس" دي فليسيل" الذي حضر به وفد الهدنة.

فقرأ" دي لوم" في الورقة ما يأتي:

" اثبت ! إني أُلهى الباريسيين بالوعود الخلابة، فقبل انتهاء النهار سيصلك مدد من لدن جلالة الملك.

«دي فليسيل».

فقال " دي لوم" متعجباً:

ـ وكيف وصلك هذا الخطاب يا سَّيِّدي ؟

ـ داخل الخطاب الذي حضر به وفد الهدنة. فقد ظنوا أنَّهم سلموني طلباً بالتسليم، مع أنَّهم في الواقع سلموني طلباً بالثبات بل أمراً بالاستمرار في الدفاع. والآن يا مسيو دي لوم اذهب إلى الموضع المخصَّص لك ولا تبرحه حتى أرسل إليك.

وأطاع " دي لوم". في حين طوي " دي لوناي" الخطاب ودسه في جيبه، ثُمَّ اتجه نحو رجال المدفعية وقال لهم أن يطلقوا القنابل منخفضة، وأن يحكموا تسديد الهدف لتكون الإصابات قاتلة.

وأطاع رجال المدفعية مثلما أطاع المسيو " دي لوم". بيد أنَّ مصير الحصن كان قد تقرَّر. فكُلّ قذيفة مدفع كانت تقابل من الشعب بهتاف صاخب:

ـ سنستولي على الباستيل !

وفي الوقت الذي كانت ألسنتهم فيه تطلق هذا الهتاف، كانت أيديهم تعمل في همةٍ ونشاطٍ في إطلاق البنادق.

وتفتقت قريحة " بيو" عن حيلةٍ طريفةٍ، فقد صرخ فجأةً:

ـ هاتوا لي عربه يد !

فتصايحت عشرات الأفواه، ثُمَّ جيء له بعربتين، فصاح:

ـ هاتوا القش.

فسرعان ما امتلأت العربتان بالقش، ودفعهما أمامه محتمياً من الرصاص من تحتهما حتى لصقهما بالبوابة الخشبية الكبرى، ثُمَّ أشعل النَّار فيهما، فاحترقت البوابة وتدفق النَّاس إلى الداخل مهللين.

فلما رأى" دي لوناي" ذلك ! وكان يدرك مبلغ ما يكنه النَّاس له من الكراهية، خطف الشعلة من يد أحد رجال المدفعية وأسرع نحو أقبية الباستيل، فتصايح الجنود:

ـ البارود ! البارود ! سيشعل النَّار في البارود وينسفنا جميعاً.

وأسرع جنديان فسدا عليه الطريق بألسنة الحِراب، فانثنى وأطل على المهاجمين والشعلة في يده:

ـ إنَّني سأشعل أقبية البارود وأنسفكم جميعاً، وعلىَّ وعلى أعدائي يا رب !

فسرت رعدة خوف شديدة بين النَّاس، وصاحت به عده أفواه:

ـ ماذا تريد ؟ ما شروطك ؟

ـ التسليم المشرف.

وكان أوَّل ما تبادر إلى ذهن النَّاس أنَّها خدعة، فهو رجل لا يوثق له بوعدٍ، فهموا أن يرفضوا هذا الطلب. ولكن " بيو" تذكَّر أنَّ الدكتور " جيلبير" داخل السجن، وأن نسف الباستيل سيقضى عليه، فوقف في النَّاس خطيباً:

ـ تمهلوا وفكروا في إخوانكم السجناء.

فعادت الأصوات تسأل" دي لواي":

ـ وما شروط هذا التسليم المشرف ؟

ـ أطلب أوَّلاً أن تنسحبوا إلى خارج الأسوار ثُمَّ تبدأ المفاوضة. وأتعهد بشرفي ألَّا أُغيِّر شيئاً ولا أستغل الوقت للتحصين.

ووثق النَّاس بهذا الوعد فانسحبوا، وراح" دي لواي" يكتب أمامهم على ركبته وثيقة التسليم، وجنود الحامية يرمقونه بأعين قلقة، لأنَّهم كانوا يعلمون أنَّ حياتهم معلقه بمصير ما يكتب.

وفي هذه اللَّحظة انطلق من بين الجماهير صوت غريب:

ـ هل وثقتم بالطغاة ؟

فكأن لهذه الكلمة وقع أشد من وقع القنابل، فاندفع النَّاس داخل الباستيل كأنَّهم الطوفان وشعارهم كلمة واحدة:

ـ ويلٌ للمغلوب.

وفيما كان النَّاس يقتحمون القلعة صارخين صراخ الغضب والفرح معاً، كان هناك رجلان يقاومان الأوحال في قاع الخندق، وهذان الرجلان هما " بيو"، و" بيتو" وسرعان ما ألقيت الحبال فخرجا سالمين، وحملهما الشعب على الأعناق غير ملق بالاً إلى الطين و الوحل. أمَّا هما فقد راحا يصيحان بالنَّاس:

ـ إلى السجناء أوَّلاً ! أطلقوا سراح السجناء.

واندفع النَّاس إلى الزنزانات يحطمونها و يخرجون أهلها. وبدأت في نفس الوقت عملية وحشية اشمأز لها جميع الشرفاء وأوَّلهم " بيو". فقد كانت المحافظة على الأرواح هي أساس التسليم البديهي. ولكن هذه الجماهير الرعناء منذ وقع بصرها على أوَّل جندي وقد ألقى سلاحه ذبحته ذبح الشاة، ثُمَّ استولت عليهم ضراوة الدَّم فامنعوا في الذبح حتى أفنوهم عن آخرهم.

ولمح "بيو"حاكم الباستيل" دي لوناي" واقفاً أمام باب سكنه الخاص بهدوء وشموخ معتمداً بقبضه يده على عصا ذات مقبض ذهبي. فقد كان الرَّجل ينتظر بإباءٍ مصيره المحتوم. فلما أبصر "بيو"، رمقه بنظرةٍ معناها: " أهو أنت الذي سيضرب الضربة الأولى".

وأحب " بيو" أن يطمئنه، ولكنَّه قال في نفسه:" إن أنا كلمته فكأنني دللت النَّاس عليه فيفتكون به".

ثُمَّ أن تفكيره كُلَّه كان منحصراً في كيفيه العثور على الدكتور " جيلبير"، فوقف متردِّداً، فلمح " دي لوناي" حيرته،فقال له هامساً:

ـ ماذا تريد ؟

ـ لا شيء. أريد فقط أن أعثر على الدكتور جيلبير.

ـ الطابق الثالث.

وفي هذه اللَّحظة وصل " جونشون" فصاح مشيراً إلى" دي لوناي".

ـ وهذا هو الحاكم.

وكانت هذه الكلمة هي القاضية، فقد نهش الرَّجل نهشاً وسحق سحقاً، و«بيو» لا يستطيع إنقاذه، فمشى منكس الرأس ليتجه إلى الطابق الثالث. وهناك وجد السجان على أتم استعداد لتقديم فروض الطاعة والولاء وفتح أبواب الزنازين.

ووجد الدكتور " جيلبير" وقد طالت لحيته وفي يده عامود من أعمده السرير ليدافع به عن نفسه، لأنَّه لم يكن يدرى ماذا وراء هذه الضجة.

ووجد الرَّجل صعوبة شديدة في تصديق نبأ سقوط الباستيل، ولكنَّه لم يلبث أمام الأمر الواقع أن عاونه " بيو" مبتهجاً في تأثُّر شديد، وهو يقول:

ـ هذا هو اليوم الذي طالما تمنيته.. الشعب إذاً قد انتصر على الطغاة.

ـ نعم يا سَّيِّدي.

ـ وقد أتيت إلى هنا كي تحارب في صفوفه ؟

ـ بل جئت من بلدي لأطلق سراحك يا سَّيِّدي.

ـ وكيف علمت أنَّه قبض علىَّ ؟

ـ أخبرني نجلك هذا الصباح.

ـ سباستيان المسكين ! وهل رأيته ؟ وهل بقي في الدراسة ساكناً وباريس ثائرة ؟

ـ لقد رأيته هو وإخوانه يحاولون الخروج بالقوَّة للانضمام إلى الثوار.

ـ آه ! وماذا قلت له ؟

ـ قلت له ما دام الدكتور جيلبير في الباستيل، فيجب أن نستولي على الباستيل، وها قد استولينا على الباستيل. ولكن ليس هذا كّل شيء. فهناك أمر مهم آخر.

ـ وما هو ؟

ـ الصندوق. لقد سرقوا الصندوق يا سَّيِّدي.

ـ الصندوق ؟ ذلك الصندوق الذي استأمنتك عليه ؟ ومَنْ الذي سرقه ؟

ـ رجلٌ عجوزٌ في ثياب سوداء، جاء مع بعض الشرطة بحجه تفتيش مسكني بغيه العثور على منشورات وكتب ثوريه فحبسني في حجره وراح يقلب البيت بحجة تفتيش مسكني بغية العثور علي منشورات وكتب ثورية، فعثر على الصندوق فأخذه وانطلق به.

ـ إذاً لابد أن هناك علاقة وثيقة بين اعتقالي وبين سرقه الصندوق.

ـ وماذا يمكن أن تكون هذه العلاقة يا سَّيِّدي ؟

ـ إنَّ الشخص الذي تسبَّب في صدور الأمر باعتقالي، هو نفسه الذي سعى إلى سرقه الصندوق. فإذا عرفت اسم الشخص الذي تسبَّب في القبض علىَّ عرفت مَنْ دبر هذه السرقة.

ـ معقول يا سَّيِّدي.

ـ فأين أرشيف الباستيل ؟

ـ لا أدري يا سَّيِّدي، ولكن يمكن أن نعرف ذلك بسهولةٍ.

وأسرع " بيو" نحو أحد السجانين الذي كان يرتعد خوفاً ممَّا ينتظره بعد أن رأى مصير زملائه الجنود، فسأله:

ـ أين أرشيف القلعة ؟

ـ إنَّه يا صاحب السعادة في فناء بيت الحاكم.

فصاح الدكتور " جيلبير" بصاحبيه:

ـ إذاً هيا أيها الرفيقان إلى الأرشيف.

فقال السجان:

ـ اسمح لي يا صاحب السعادة أن آتى معكم، حتى أدلكم على الطريق واحتمى بكم من حضرات السادة.

ـ وهو كذلك.

ـ هيا بنا بسرعةٍ يا صاحب السعادة، لأني أخشى أن يكون المهاجمون قد بدأوا في إحراق الأوراق.

ـ هيا بنا إذاً بسرعةٍ، فالوقت ثمين.

فلما وصلوا إلى باب مكتب الأرشيف لاحظ الدكتور " جيلبير" أنَّ كومة كبيرة من الأوراق القديمة كانت قد أحرقت فعلاً. فسرت في نفسه المرارة لأنَّ حماقة النَّاس تجعلهم على أثر إحرازهم أي انتصار يعمدون قبل كُلّ شيء إلى الفوضى والتدمير والتخريب. لهذا كان من أوَّل ما صنعه المهاجمون أن راحوا يمزقون الوثائق أو يحرقونها. ولكن لحسن الحظ أنَّ السجلات والدفاتر الكبيرة كانت في رفوف عالية فلم يمسسها سوء.

وراح الدكتور" جيلبير" يفتش بينها عن آخر سجل. وفيما هو يفعل ذلك أبصر " بيتو" غلام صغير من شياطين الأنس يحمل فوق رأسه أحد هذه السجلات الكبيرة ويجرى مسرعاً كي يلقى به في النَّار، فجرى خلفه مستغلاً موهبة طول ساقيه، وانتزع من فوق رأسه السجل، فإذا به آخر سجل سُجل سنة 1789.

ولولا أنَّ " بيتو" كان قد أظهر نشاطاً في قياده الهجوم بحيث عرفه الجميع معرفة جيدة لحدثت مشاجرة، ولكن الغلام هز كتفيه قائلاً:

ـ لا بأس فالغنائم كثيرة. وفي وسعى أن أحرق سواه.

ولم يطل البحث في ذلك السجل. إذ سرعان ما وجد " جيلبير" اسمه مكتوباً أمامه:

" في هذا اليوم التاسع من يوليه سنة1789 أُحضر إلينا السَّيِّد جيلبير وهو فيلسوف وكاتب سياسي، وشخص خطر جدًّا، على ذمه التحفُّظ عليه بغاية السرية والحذر ".

وراح " جيلبير" بعد ذلك يفتش عن اسم مَنْ أمر بالقبض عليه، فإذا به يكتشف أنَّ ذلك الشخص هو الوزير " نكار" دون سواه، فصاح:

ـ عجباً لابد أنَّ في الأمر غلطة او مؤامرة !

فسأله الواقفون حوله، وكُلَّهم يُحبون " نكار":

ـ هل نكار صديقك ؟

ـ نعم أيها الأصدقاء، وأنا أجزم أنَّ المسيو نكار لم يكن يدرى أنَّني في السجن. وسأذهب فوراً إلى مقابلته حتى أستوضحه المسألة.

فقال له" بيو":

ـ تذهب لمقابله نكار ؟ وأين ؟

ـ في فرساي طبعاً.

ـ إنَّ المسيو نكار ليس في فرساي. إنَّه منفى في بروكسل.

ـ وابنته ؟

ـ إنَّها في بيتها الريفي في سان أوان.

ـ عظيم. سأذهب لمقابلتها إذاً.

والتفت نحو الجماهير التي عادت إلى الإحراق وتمزيق الوثائق، فقال:

ـ أناشدكم باسم التاريخ ألّا تعدموا هذه الوثائق، لأنَّها بمثابة أحكام تدين الطغاة. حطموا الباستيل حجراً حجراً، ولكن ابقوا على السجلات واحترموها لأنَّها نور للمستقبل.

وأخلد الجمهور للسكينة مذعناً لهذه الرغبة، ثم قال الدكتور لصاحبيه:

ـ والآن أيها الصديقان هيا بنا.

واتجهوا نحو باب الخروج، فإذا في طريقهم جمع حول جثه الحاكم المقتول «دي لوناي» وهم يتصايحون بما يفهم منه العجب والاهتمام. فاقترب الدكتور وصاحباه منهم، واستوضحوهم الأمر. فاتضح أنَّهم بعد أن مثلوا بجثة " دى لوناي" الذي مات بشجاعةٍ فائقةٍ محتملاً أسوأ أنواع العذاب دون أن يختلج له جفن، راحوا يفتشون جيوبه، فوجدوا فيها الخطاب الذي أرسله إليه" دي فليسيل" عمدة باريس يحضه فيه على الثبات والدفاع وعدم التسليم ويمنيه بقرب وصول المدد قبل الغروب !!

## الفصل الرابع عشر

# لقاء مدام دي ستايل

## Meet Madame De Style

وبعد ساعات قليلة كان الدكتور " جيلبير" قد ركب عربة راح يجوب بها شوارع باريس.. وأحب في الطريق أن ينفس عن صدره ما يدور فيه من الهواجس والاحتمالات، فقال يُحدِّث "بيو":

ـ لقد ذكرت لي يا عزيزي المسيو بيو أنَّ الملك أقال المسيو دي نكار.

ـ هذا ما حدث فعلاً يا سَيِّدي.

ـ وأنَّ المظاهرات قامت في باريس على إثر تلك الإقالة.

ـ أجل يا سَيِّدي.

ـ وأضفت إلى هذا أنَّ المسيو دي نكار غادر فرساي فوراً.

ـ لقد تلقى خطاب الملك وهو يتناول طعام الغذاء. وبعد ساعة واحدة كان في طريقه إلى بروكسل حيث يقيم الآن، أو هكذا ينبغي.

ـ الم يترام إلى سمعك أنَّه توقف في الطريق ؟

ـ أجل. بلغني أنَّه توقف عند ضيعة " سان أوان" حيث تقيم ابنته البارونة " دي ستايل"..

ـ وهل ذهبت مدام ستايل مع والدها ؟

ـ بل بلغني أنَّه رحل مع زوجته فقط.

ـ حسناً. أيها الحوذي.. توقف بنا عند أقرب حائك يبيع الملابس..

فقال " بيو" متسائلاً:

ـ وهل تريد تبديل ثيابك ؟

ـ نعم. فهذه الحلة تفوح منها رائحة الجدران الرطبة.. فهي لا تصلح لزيارة سَيِّدة محترمة ابنة رئيس وزراء سابق.. والآن فتش في جيبك عن بضعة جنيهات تقرضني إياها.

ـ أظنك نسيت كيس نقودك في الباستيل.

ـ إن كُلّ ما هو ذو قيمة يؤخذ منك عند دخول الباستيل يا صاحبي.

ـ إذاً هاك هذه الجنيهات العشرين..

ووقفت العربة أمام حائك يبيع كافة أنواع الملابس الجاهزة. فلبس الدكتور «جيلبير» سترة جديدة متقنة الصنع سوداء اللَّون، كتلك التي يرتديها نواب الطبقة العامَّة في الجمعية الوطنية. ثُمَّ بعد ذلك تولى حلاق ماهر تهذيب شعره ولحيته، وأتم تلك الأناقة ماسح أحذية، حتى صار الدكتور "جيلبير" على تمام الأهبة لمقابلة أي شخصية محترمة دون حرج.

وبعد أن تمَّ هذا كُلَّه أمر الدكتور " جيلبير" الحوذي بأن يقوده إلى " سان أوان" من ضواحي باريس. وهناك ترجل الدكتور " جيلبير" عند البوابة الكبرى من منزل نكار الصيفي، وكانت السَّاعة في ذلك الوقت السَّابعة مساء.

وكان السكون المطبق يخيم حول ذلك البيت الذي طالما كثرت حوله الحركة واشتد الرواح والغدو وصاحبه في مراكز السلطان. فالبوابة مقفلة، وممرات الحديقة مقفرة، ممَّا يدل على أن رب البيت غائب عنه. ولكن لم يكن هناك فيما عدا ذلك أي دليل على الاضطراب أو التعاسة التي تقترن غالباً بزوال السلطان.

ولاحظ الدكتور " جيلبير" أنَّ جناحاً كاملاً من أجنحة القصر، هو الجناح الشرقي، لا تزال نوافذه مفتوحة. فتقدَّم الدكتور " جيلبير" نحو ذلك الجانب، فلقيه خادم يرتدي ملابس خدمة المسيو " دي نكار". فدار بينهما الحوار التالي:

ـ أليس المسيو دي نكار موجوداً في البيت أيها الصديق ؟

ـ كلا فقد غادر البارون سان أوان يوم السبت الماضي قاصداً بروكسل.

ـ وصاحبة العصمة البارونة ؟

ـ صحبت صاحب السعادة.

ـ ومدام دي ستايل ؟

ـ لقد بقيت مدام دي ستايل هنا، ولكني لا أدري إذا كانت المدام على استعداد لاستقبال أي إنسان في هذه اللَّحظة، فهي ساعة نزهتها اليومية قبل العشاء.

ـ أرجوك أن تدلني على موضع نزهتها وأن تعلن إليها حضور الدكتور جيلبير .

ـ سأذهب أوَّلاً وأسال إذا كانت المدام لا تزال في البيت أو خرجت للنزهة. فإذا كانت في البيت لا شك أنَّها ستستقبلك يا سَيِّدي، أمَّا إذا كانت في النزهة فإن أوامرها القاطعة ألَّا نقطعها عليها لأي سبب من الأسباب.

ـ حسناً. أذهب بسرعة من فضلك.

ففتح الخادم البوابة ودخل الدكتور «جيلبير» الحديقة. وفيما كان الخادم يفعل ذلك ألقى نظرة استرابة على العربة التي حضر فيها الدكتور وعلى السحنتين الغريبتين اللتين في العربة، وهما سحنتا «بيو»، و«بيتو».

ثُمَّ ذهب وهو يهز رأسه ليقضي مهمته. وبقي الدكتور " جيلبير" وحده ينتظر عودته.

وبعد نحو خمس دقائق عاد الخادم، وقال:

ـ البارونة دي ستايل في نزهتها.

ثُمَّ انحنى أمام " جيلبير" كأنما يصرفه إلى حال سبيله. ولكن الدكتور لم يكن التخلص منه بسهولةٍ كما كان يعتقد ذلك الخادم، فقد انثني يقول له بهدوءٍ وإصرارٍ:

ـ أيها الصديق أرجو أن تسمح في هذه المرَّة بفتح ثغرة بسيطة في الأوامر الصادرة إليك، فتتطفل على البارونة بالاستئذان لي عليها وأن تقرن اسمي عند إعلانه بأنَّني صديق الماركيز "دي لا فاييت".

وكانت اللهجة مقنعة، وزاد في إقناعها حتماً ذلك الجنيه الذهبي الذي دسه في راحة يد الخادم، فصادف لديه ارتياحاً لقضاء هذه المهمة الثقيلة. ويظهر أنَّ اسم الماركيز " دي لا فاييت" كان له بعض الشأن في الموضوع، لأنَّ الخادم ما أن سمعه حتى قال:

ـ تفضل بمتابعتي يا سَيِّدي.

وتبعه الدكتور " جيلبير"، لا إلى البيت، ولكن إلى الحديقة.

ـ هذا هو الجانب الأثير لدي سَيِّدتي البارونة. فأرجو أن تنتظرني هنا لحظة حتى أدخل هذه الحديقة فأستاذن لسيادتكم.

وانقضت عشر دقائق سمع على أثرها الدكتور حفيف أوراق الأشجار، ثُمَّ ظهرت امرأة شابة تتراوح سنها بين الثالثة والعشرين والرابعة والعشرين من العُمُر، تغلب عليها أمارات النبالة أكثر ممَّا تبدو عليها سمات الجمال.

وظهر على البارونة حين وقعت عيناها على الدكتور " جيلبير" شيء كثير من الدهشة، لأنَّها وجدته يبدو أصغر سناً ممَّا توقعت بكثير.

ـ أهو أنت يا سَيِّدي الدكتور جيلبير ؟

ـ نعم يا سَيِّدتي.

ـ أنَّك تبدو صغير السن برغم ما حصلت عليه من شهرة واسعة وصيت ذائع. هذا إذا لم تكن تلك الشهرة لوالدك أو لبعض أهلك ممَّن هم أكبر منك سناً.

ـ لستُ أعرف أحداً بهذا الاسم سواي يا سَيِّدتي. فإذا كانت هناك حقيقة بعض الشهرة فلي الحق فيما أعتقد في ادعائها لنفسي.

ـ لقد استخدمت اسم الماركيز لا فاييت لتحصل على هذه المقابلة مني، وقد حدثنا الماركيز عنك كثيراً، وعن معلوماتك الواسعة واطلاعك.

فانحني " جيلبير" شاكراً، واستطردت البارونة قائلة:

ـ وقد أطنب المركز كثيراً في الأدوية التي طالما وصفتها لأمراض الأجساد، وأمراض المجتمع، وأسهب في كفاحك الطبي في مستشفيات أمريكا، فساهمت في درء خطر الموت عن عشرات كان ميئوساً من شفائهم.. حتى تخيلناك بطلاً من أبطال الأساطير. سيما تلك العلاجات الغريبة التي استخدمت فيها " الموت الاصطناعي أو الوهمي".

ـ إن ما تسميه الموت الاصطناعي أو الوهمي إن هو إلَّا ثمرة علم جديد لا يزال ناشئاً. ولكنَّه سوف ينتشر ويذيع في أركان الأرض بعد قليل.

ـ أتعني بذلك " المسمرية "[1]؟

(1) المسمرية: يشير إلى نوعٍ مبكر جدًّا من التنويم المغناطيسي الذي وضعه « فرانز أنطون ميسمر»، Franz Anton Mesmer 1815 -1734 الذي كان طبيباً سويسرياً خلال القرن الثامن عشر. ( المُعد).

ـ أجل، أو التنويم المغناطيسي.

ـ وهل أخذته عن العالم «ميسمر» نفسه.

ـ بل عن أستاذي الفلكي الخارق، كاليوسترو !

ـ آه، ولماذا غبت كُلّ هذه المدة عن فرنسا يا سَيِّدي ؟ لماذا لم تعد لتحتل مكانك اللائق بك بين كبار رجال العصر، أمثال «لافوازييه»[1]، و«كوندورسيه»[2].

ـ ذلك يا سَيِّدتي أنني لا زلت في حاجةٍ إلى كثير من الدراسة قبل أن أضع نفسي في مصاف هؤلاء الصفوة من كبار الأساتذة.

ـ ولكن ها أنت ذا قد حضرت إلى فرنسا أخيراً، ولكن في لحظة غير مواتية بالنسبة لنا. فوالدي الذي كان يُسعده ولا شك أن يُقدِّم لك أجل الخدمات ليس موضوع الرضي في الوقت الحاضر، وقد غادرنا منذ ثلاثة أيام.

فابتسم " جيلبير" وانحنى انحناءة يسيرة، ثُمَّ قال:

ـ سَيِّدتي البارونة. منذ ستة أيام فقط سُجنت في الباستيل بأمر البارون !

فأحمر وجه البارونة خجلاً، وقالت:

ـ أحقاً يا سَيِّدي ؟ أنَّك تدهشني بهذا القول.. أنت في الباستيل ؟

---

(1) أنطوان لافوازييه 1743- 1794 Antoine Lavoisier أحد النبلاء الفرنسيين،والعَالِم في تاريخ الكيمياء والأحياء والاقتصاد. وأوَّل مَنْ صاغ قانون حفظ المادة، وتعرّف على الأوكسجين وقام بتسميته (في عام1778 ).(المُعد).

(2) كوندورسيه Condorce (اسمه الحقيقي جان أنطوان نيقولا كارتيا) وُلد في عام 1743، وتوفي في عام1794، وهو عَالِم رياضيات كبير، انتخب عضواً في جمعية أكاديمية العلوم، وفي عام 1786 نُشرت له دراسة في نظرية الاحتمالات التي سبق بها نظرية مالثوس. وعندما قامت الثورة الفرنسية كان في طليعة المؤيدين لها، وقد انتخب عضواً في الجمعية التشريعية التي حكمت فرنسا من أكتوبر 1791 إلي ديسمبر 1792. (المُعد).

ـ بلحمي ودمي يا سَّيِّدتي البارونة.

ـ وماذا فعلت حتى سجنت ؟

ـ علم هذا عند مَنْ قاموا بسجني ..

ـ ولكنك لست الآن في السجن..

ـ كلا يا سَّيِّدتي.. لأنَّ الباستيل لم يبق له وجود !

فصاحت مدام " دي ستايل" مصطنعة الدهشة:

ـ ما هذا الذي تقول ؟ الباستيل لم يعد له وجود ؟ وكيف ذلك ؟

ـ ألم تسمعي يا سَّيِّدتي البارونة قصف المدافع ظهر اليوم ؟

ـ سمعت. ولكن المدافع ليس معناها بالضرورة سقوط الباستيل.

ـ اسمحي لي يا سَّيِّدتي البارونة أن أقول لكِ أنَّه يستحيل على عقلي أن يتصوَّر أنَّ مدام دي ستايل ابنة البارون دي نكار لم تسمع حتى هذه اللَّحظة أنَّ الشعب قد استولى ظهر اليوم على حصن الباستيل.

ـ أؤَكِّد لك يا سَّيِّدي الدكتور أنني منذ سافر والدي، لم أعد أشغل وقتي ولا ذهني إلَّا بالأسف على غيابه !

ـ سَّيِّدتي. سَّيِّدتي. إن سُعاة الدولة ورسلها يعرفون تمام المعرفة طريق قصر «سان أوان»، فلا ريب أنَّ بعضهم قد حضر إلى هنا يحمل أخبار سقوط الباستيل في هذه السَّاعات الأربع التي انقضت على سقوطه.

فأيقنت مدام «دي ستايل» أنَّه يستحيل عليها خداع رجل مثل الدكتور «جيلبير»، ولذلك غيَّرت مجرى الحديث، قائلةً:

ـ والى أي سبب أعزو هذه الزيارة التي أسعدتني بها ؟

ـ لقد خامرتني رغبة قويَّة في التحدُّث إلى البارون دي نكار يا سَّيِّدتي.

ـ ألَّا تعلم أنَّه غادر فرنسا !

ـ سَّيِّدتي. لقد بدا لي غريباً جدًّا أن يرحل البارون عن فرنسا في هذا الأوان.

ـ وعلى ذلك ؟

ـ وعلى ذلك فإني أعتمد على عصمتكِ في أرشادي إلى مكانه الحقيقي.

ـ ستجده في بروكسل يا سَّيِّدي.

فرمقها " جيلبير" بنظرةٍ فاحصةٍ، ثم قال وهو ينحني:

ـ شكراً لكِ يا سَّيِّدتي. سأرحل فوراً إلى بروكسل، لأنَّ لديَّ أموراً على أعظم جانب من الأهمية لابدّ أن أطلعه عليها فوراً.

فظهر التردُّد على وجه البارونة " دي ستايل"، ثُمَّ قالت:

ـ لحُسن الحظ يا سَّيِّدي أنى أعرفك وأعرف مبلغ ما في شخصيتك من الجد. وأني أُقدِّر خطورة الأمور السرية، وأنَّها تفقد وزنها إذا خرجت من بين شفتي صاحبها إلي أُذن غير الأُذن المقصودة بها..ولكن تُري أي أمور خطيرة يمكن أن تتصل بوالدي بعد إقصائه، وبعد الذي حدث أخيراً ؟

ـ هناك المستقبل يا سَّيِّدتي. وربما ! لم أكن بعيداً عن التأثير في ذلك المستقبل المشحون بالاحتمالات يا سَّيِّدتي.. ولكن هذا كُلَّه ليس ذا بال، فالمهم الآن أن أرى المسيو دي نكار بأسرع وقت لنتباحث فيما لديَّ من أمور جسام.. وما دام البارون يا سَّيِّدتي في بروكسل كما قلتِ.. أليس كذلك ؟

ـ نعم يا سَّيِّدي..

ـ إذاً لن تستغرق الرحلة سوى عشرين ساعة متواصلة أكون بعدها في مدينة بروكسل. ولكن هذا الوقت للأسف طويل جدًّا..

ـ أعشرون ساعة وقت طويل جدًّا يا سيدي ؟

ـ في أوقات الثورات. نعم يا سَيِّدتي. فكم من الأحداث الخطيرة يمكن أن تحدث في هذه العشرين ساعة التي أقضيها في السفر ! واعتقد أنَّ البارون دي نكار قد أخطأ عندما رحل عن فرنسا في هذا الوقت بالذات، وهو ثاقب النظر في عواقب الأمور ومقدماتها.

ـ الحق يا سَيِّدي أنَّك أقلقت خاطري، بحيث بدأت أشعر أن والدي لم يكن مصيباً في الرحيل عن فرنسا.

ـ ولكن ماذا بيدكِ يا سَيِّدتي ؟ العبرة بالواقع. فليس أمامي الآن سوى أن أعتذر لصمتكِ عن أزعجاكِ، وأستودعكِ الله..

بيد أنَّ البارونة " دي ستايل" استوقفته، قائلةً:

ـ أقول لك يا سَيِّدي أنَّك أقلقت خاطري، فلا أقل من تهدئة خاطري ببعض الإيضاح فيما يمس مهمتك مع والدي.

ـ وأسفاة يا سَيِّدتي ! إنَّ شرفي وحياتي في كفة الميزان،وليس لديَّ الوقت ما أضيعه هباء.

ـ لا عليك. ولكن أسمح لي أن أتذكر الآن أمراً نسيته منذ حضورك..

ـ ألَّا وهو ؟

ـ إنَّ الأمور الخطيرة التي تتحدَّث فيها لا يصح أن تناقش في الهواء الطلق حيث يمكن أن تصل إليها أي إذاً متلصصة.

ـ اسمحي لي سَيِّدتي أن أُذكركِ أنني في بيتكِ، وأنَّكِ أنتِ التي اخترت موضوع المقابلة والحديث. وأنا طوع إشارتكِ على كُلِّ حال.

ـ إذاً أرجو أن تأتي معي إلى قاعة مكتبي.

وانطلقا..

## الفصل الخامس عشر

# المباحثات السرية

Secret talks

وأمام مدخل القصر وجدا ذلك الخادم الذي كان قد استقبل الدكتور " جيلبير"، فأشارت البارونة " دي ستايل " إلى الخادم إشارة خفيفة، ثُمَّ فتحت الباب بنفسها وأدخلت " جيلبير" إلى المكتب، وهو قاعة أنيقة جدًّا، غير أنَّها أقرب إلى الذوق الرِّجالي منها إلى الرقة النسائية. وبابها ونافذتها يفضيان إلى فناء داخلي لا يراه مَنْ خارج القصر. فهو مخبأ أمين لمَنْ يريد الاعتكاف.

فلما دخلا إلى هناك، أغلقت البارونة الباب عليهما، وقالت:

ـ سَّيِّدي.. باسم الإنسانية أرجوك أن تبوح لي بالسرِّ الذي حدا بك للحضور اليوم إلي سان أوان.

ـ سَّيِّدتي.. لو أن والدكِ يستطيع أن يسمع كلماتي، ولو أنَّه يعلم أنَّني الرَّجل الذي أرسل إلى الملك تلك المذكرات السرِّية التي عنوانها " تقرير عن الحالة الفكرية والتقدُّم " فلا شك عندي في أنَّ البارون دي نكار سيظهر في الحال ليقول لي: يا دكتور جيلبير ماذا تريد مني ؟ تكلم فأني مصغ إليك.

وما كاد " جيلبير" يتم هذه الكلمات حتى انفرج الحائط عن الباب سرّي كانت تخفيه عن العيون لوحة كبيرة، ثُمَّ ظهر البارون " دي نكار" مبتسم الأسارير. وعندئذ انحنت البارونة " دي ستايل" للدكتور " جيلبير" انحناءة يسيرة، ثُمَّ قبلت جبين والدها، وتركت الغرفة عن طريق الباب السرّي الذي دخل منه أبوها، ثُمَّ أغلقت ذلك الباب وراءها.

وتقدَّم البارون " دي نكار" نحو " جيلبير" ومدّ إليه يده، قائلاً:

ـ ها هو أنا يا دكتور جيلبير. ماذا تريد مني ؟ تكلم فأني مصغ إليك كُلّ الإصغاء.

وجلي الرَّجلان، وشرع " جيلبير" يتكلم، قائلاً:

ـ يا سَيِّدي البارون. لقد سمعت الآن سرًّا كشف لك النقاب عن جميع أفكاري. فقد كنت أنا الذي أرسل منذ أربع سنوات مذكرة إلى الملك عن الحالة العامَّة في أوروبا،وكنت أنا الذي ثابر منذ ذلك الحين علي إرسال المذكرات إليه من الولايات المتحدة عن جميع المسائل العامَّة التي تشغل الأذهان في فرنسا.

فأجاب " نكار" مُعلِّقاً على ذلك بعد أن انحنى:

ـ وهي جميعاً أعمال لم يتحدَّث إلى جلالة الملك بخصوصها إلَّا حديثاً مقروناً بالإعجاب العميق، وإن كان كذلك الإعجاب مصحوباً بالرُّعب والفزع من مضمون هذه المذكرات الجريئة.

ـ ذلك لأنَّها حقائق، ولكن إذا كانت الحقائق شديدة الواقع على السمع، فهل تراها، بعد أن صارت واقعاً ملموساً أصبحت أخف وقعاً على العين ؟

ـ إنَّ لك لفراسةٍ صادقة يا سَيِّدي.

ـ وهل أرسل الملك إليك هذه الأبحاث للتصرُّف ؟

ـ ليست كُلَّها. وإنما أرسل اثنين منها فقط، أحدهما في المسائل الاقتصادية

وكنت في ذلك البحث ترى رأيي في جميع المسائل ما عدا بعض نقط تفصيلية.

ـ ولكن كان هناك بحث آخر يا سيدي البارون تنبأت فيه بجميع الحوادث التي وقعت وتقع الآن.

ـ وأي بحث هذا الذي تعنيه يا سَيِّدي ؟ وأي حوادث ؟

ـ لقد تنبأت بأمرين علي وجه الخصوص..أولهما أنَّ الملك سيجد نفسه مضطراً يوماً ما إلى إقصائك بناءً على وعود تورط فيها.

ـ هل تنبأت له إذاً بإقالتي ؟

ـ بلا شك..

ـ هذا هو الأوَّل فما هو الأمر الثاني ؟

ـ الأمر الثاني يا سَيِّدي البارون هو سقوط الباستيل. نعم ! فقد كان الباستيل أكثر من سجن ملكي. كان رمز الطغيان فلا عجب أن تبدأ الحُرِيَّة نشاطها بالقضاء على ذلك الرمز. وستتم الثورة ما يتبقى بعد ذلك.

ـ وهل كنت مقدراً خطورة الكلمات التي تقولها الآن ؟

ـ إني مقدر خطورتها كُلّ التقدير..

ـ وهل لستُ خائفاً من التصريح بها جهاراً ؟

ـ يا مسيو دي نكار. إذا قدر لإنسانٍ أن يخرج من الباستيل بعد أن حلّ به ستة أيام، فإن ذلك الرَّجل لا خوف عليه بعد ذلك من شيء على الإطلاق ؟

ـ هل كنت إذاً في الباستيل ؟

ـ هذا سؤال كنت أُريد أن أسألك إياه.

ـ تسألني أنا ؟

ـ نعم أنت ولا شك.

ـ ولماذا أنا بالذات ؟

ـ لأنَّك أنت يا سَيِّدي البارون دي نكار الذي أمرت بإلقائي في سجن الباستيل منذ ستة أيام.

ـ أنا أمرت بإلقائك في الباستيل ؟

ـ نعم ومنذ ستة أيام. فالوقت كما ترى يا سَيِّدي البارون ليس بعيداً جدًّا بحيث تكون قد نسيت.

ـ هذا مستحيل.

ـ هل يمكن أن تعرف إمضاءك ؟

ثُمَّ أبرز الدكتور " جيلبير" من جيبه الصحيفة التي قطعها من سجل الباستيل ومعها الخطاب المختوم الذي كان مرفقاً بها وعليه توقيع " نكار"، فتصفحهما البارون، ثُمَّ قال:

ـ هذا إمضائي ولا شك على الخطاب المختوم. وأنت تعلم أنني لم أكن أوقع من الخطابات المختومة إلَّا أقل عدد ممكن. ولكن كان هذا الحد الأدنى يصل مع ذلك إلى أربعة آلاف خطاب في السنة. يُضاف إلى هذا أنَّه قبيل إقالتي جعلوني أوقع عدداً من هذه الخطابات على بياض، فلابدّ يا سَيِّدي أنَّ أمر إلقاءك في السجن كان من هذه الفئة الأخيرة.

ـ هل تعني بذلك أنني لا أستطيع أن أعزو سبب سجني إليك ؟

ـ نعم.. ولا شك.

ـ ولكن مع هذا يا سَيِّدي البارون أرجو أن تُقدِّر البواعث التي تجعلني شديد الفضول في هذا الموضوع. فلابدّ لي على كُلِّ حال من معرفة مَنْ هو الذي أدين له باعتقالي في الباستيل. فأرجو منك أن تتكرم بأخباري متى عرفت.

ـ ليس هناك ما هو أسهل من هذا. فلم يكن من عادتي أن أترك أوراقي في مكتب الوزارة، ففي كُلّ ليلة أحضرها معي إلى هنا. وأوراق هذا الشهر موجودة في الدرج (ب) من هذا الدولاب.. فهيا ننظر إلى حرف ( ج ) من بينها.

وفتح " نكار" الدرج وأخرج منه عدداً ضخماً من الأوراق يصل إلى حوالي الستمئة، وقال:

ـ أنا لا أحتفظ هنا إلّا بالأوراق التي قد تكون لها فائدة في تغطية مسؤوليتي. فكُلّ أمر بالقبض لا شك أنَّه سيضيف عدواً جديداً إلى مجموع أعدائي، وهو مجموع غير قليل. ولذلك احتفظ دائماً باسم مَنْ طلب مني أي خطاب مختوم لاعتقال إنسان. والآن لننظر ج. ج. ج. آه.. هذا هو الخطاب نعم.. يا جيلبير إنَّ أمر القبض عليك قد تمَّ بناء على طلب أحد أعضاء حاشية الملكة.

ـ هل تتكرم بإعطائي هذا الطلب ؟

ـ كلا. ولكن بوسعي أن أقول لك مَنْ الموقع عليه.

ـ إذاً تفضل بالكشف لي عن شخصيته مشكوراً.

ـ إنَّها الكونتس " دي شارني".

ـ الكونتس دي شارني ؟ أنا لا أعرفها، ولم افعل شيئاً يمكن أن يكون قد جلب سخطها عليَّ.

ـ هناك حاشية صغيرة تحت الخطاب ليس تحتها توقيع، ولكنَّي أعرف ذلك الخط جيداً.

فتقدَّم " جيلبير" وقرأ تلك الحاشية على هامش الخطاب:

" افعلوا ما تطلبه الكونتس دي شارني فوراً ".

ثُمَّ ظهرت الحيرة على وجه الدكتور، وقال:

ـ هذا والله أمر غريب. فمن اليسير أن أتصوَّر لماذا تمضي الملكة ذلك الخطاب مثلاً، لأنَّني أشرت إليها والى " آل بولينياك " إشارات صريحة قاسية في مذكراتي السرية إلى الملك. أمَّا الكونتس دي شارني، فلم أعرفها ولم أشر إليها قط.

ـ ألَّا تعرفها علي الإطلاق ؟

ـ ربما كان الاسم مموهاً. ثُمَّ لا غرابة أن أجهل هؤلاء النبلاء من أهل فرساي، بعد أن قضيت تلك المدة الطويلة غائباً عن فرنسا. فمَنْ هي يا ترى هذه الكونتس دي شارني ؟

ـ إنَّها الصديقة الحميمة الملازمة للملكة. والزوجة الحبيبة للكونت دي شارني، وهي امرأة تجمع بين الجمال المفرط والعفة.

ـ صدقني لست أعرف هذه الأعجوبة.

ـ إذا كان الأمر كذلك يا دكتور، فثق أنَّك ضحية مؤامرة سياسية.

ـ ليكن. ولنتكلم الآن في موضوع آخر تعرفه أنت ويعرفه عنك كُلّ إنسان، وهو أنَّه لن تنقضي ثلاثة أيام أخرى حتى يُعيدك الملك إلى منصبك الوزاري، وعندئذ سيتاح لك أن تحكم فرنسا كما تشاء.

فابتسم البارون" دي نكار"، وقال:

ـ أتظن هذا ؟

ـ بل وتعتقده أنت، ما دمت لست في بروكسل !

ـ ولكن ماذا ستكون النتيجة ؟ فالنتيجة هي التي تهمني.

ـ إليك بها.. إنَّك محبوب من جميع الفرنسيين. وسيزداد حُبّهم لك حتى يصل إلى حدِّ التقديس. وقد سئمت الملكة في الماضي وكرهت أن تراك محبوباً. وسيكره الملك في المستقبل أن يراك ممجداً، وسيحاولان الوصول إلى قلب الشعب على

حسابك. فستفقد عندئذ مكانتك الشعبية، لأنَّ الشعب يا سَيِّدي البارون العزيز كالأسد المفترس، لا يلعق إلَّا اليد التي تُقدِّم إليه الطعام، أياً كانت هذه اليد. وأمَّا اليد التي لا تطعمه فإنَّه ينهشها..

ـ وبعد ذلك ؟

ـ وبعد ذلك سيطويك النسيان.

ـ وما الذي يجعلني في طي النسيان كما تزعم ؟

ـ حوادث هذه الأيام وحكم الوقت وظروفه.

ـ يبدو كأنَّك تتحدّث حديث النبوة.

ـ من سوء طالعي.

ـ إذاً ماذا سيحدث بعد ذلك ؟

ـ ليس من الصَّعب التكهُّن بما سيحدث بعد ذلك، فهو موجود الآن جنيناً في الجمعية الوطنية فسيظهر حزب يتستر الآن ولا يُظهر نفسه، سيكون زعيمه مبدأ وسلاحه فكرة.

ـ فهمت.إنَّك تعني حزب أورليان.

ـ كلا. فلو كان ذلك لقلت عنه أنَّ زعيمه رجل، وسلاحه الشهرة والمحبة الشعبيَّة، إنما حديثي إليك الآن عن حزب لم يعرف له اسم بعد. إنَّه الحزب الجمهوري.

ـ الحزب الجمهوري ؟ هذا مضحك !

ـ وهل لا تؤمن بوجوده ؟

ـ إنَّه حديث خرافة ولا ريب !

ـ كلا، بل سوف يندلع من الحزب لهب سيبتلعكم جميعاً.

ـ ولماذا ؟ في وسعي أن أغدو جمهورياً. بل إنَّني جمهوري من الآن بالفعل.

ـ وهل تعرف سَيِّدي البارون شيئاً عن الجماعات السرّية ؟

ـ لقد سمعت كلاماً من هنا وهناك عن بعضها.

ـ وهل تؤمن بوجودها ؟

ـ نعم. ولكني لا أعتقد أنَّها واسعة الانتشار أو قويَّة النفوذ كما يزعمون.

ـ ولكن هل أنت عضو في بعضها.. ولو حتى في محفل ماسوني[1]؟

ـ كلا..

ـ أما أنا يا مسيو دي نكار، فعضو فيها جميعاً على اختلاف أنواعها. وثق أن هذه الجمعيات لها نفوذ قوي للغاية، وواسعة الانتشار إلى أقصى حد، أوسع كثيراً ممَّا يُخيَّل إليك. فنحن في الواقع ثلاثة ملايين، من كافة الطبقات والطوائف والحرف والوظائف. فكن على حذر سَيِّدي، فربما كان الأمير الذي تُعاديه أخاً في جماعاتنا. وربما كان الخادم الذي تزدريه أخاً لنا. وثق أنَّ شرفك ليس ملك يمينك، وأن ثروتك ليست لك، وأن حياتك نفسها ليست لك. وسيقيم هؤلاء الإخوة الجمهورية الفرنسية كما أقام أمثالهم الجمهورية الأمريكية ثُمَّ سيحاولون بعد ذلك إنشاء الجمهورية الأوروبية الكبرى.

ـ يُخيَّل إليَّ أنَّك تنظر إلى الأمور كافة بمنظار دموي يا دكتور.

ـ لا شك أنَّك كنت تراها بالمنظار عينه لو أنَّك كنت معنا في ساحة الباستيل في هذا النهار المشهود.

---

(1) الماسونية: أو البناءون الأحرار هي منظمة أخوية عالمية يتشارك أفرادها عقائد وأفكار واحدة فيما يخص الأخلاق،والميتافيزيقيا، وتفسير الكون والحياة، والإيمان بخالق ( إله )، تتصف هذه المنظمة بالسرِّية والغموض الشديدين خاصةً في شعائرها ممَّا جعلها محط كثير من الأخبار حول حقيقة أهدافها، في حين يقول الكثير من المحلّلين المتعمقين بها أنَّها تسعى للسيطرة على العالم والتحكُّم فيه وتوحيدهم ضمن أفكارها وأهدافها، كما أنَّها تتهم بأنَّها: من مُحاربي الفكر الديني، وناشري الفكر العلماني.(المُعد).

ـ معك حق. فقد بلغني أنَّه حدثت هناك مذبحة هائلة جدًّا.

ـ إنَّها العاصفة البشرية، التي إذا هبت كانت أشد من كُلِّ العواصف الجوية..

فاستسلم البارون " دي نكار" للتفكير بعض الوقت، ثُمَّ قال:

ـ لماذا لا تلزم جانبي يا دكتور جيلبير ؟ إنَّك ولا شك ناصح أمين ومشير ثاقب النظر مخلص، ستفيدني، وتفيد فرنسا كُلَّها بآرائك الناضجة.

ـ ولكني سأكون أنفع ولا شك حيث أنوي أن أذهب.

ـ وأين ستذهب ؟

ـ اسمع يا سَيِّدي البارون العزيز. إلى جوار عرش الملك نفسه يوجد عدو لدود للعرش وللملك، وذلك العدو هو " الملكة" نفسها.

ـ الملكة ؟!

ـ نعم الملكة ! فإن هذه المرأة المسكينة تنسى أنَّها ابنة "ماريا تريزا" النمساوية[1]. أو هي لا تذكر ذلك إلَّا من قبيل الغرور الكاذب. وهي تظن أنَّها تنقذ الملك وعرشه في حين أنَّها تُحطِّم ما هو أكثر وأهم من الملك، ألَا وهو المَلكية كُلَّها. فمن الضروري أن نتضافر نحن الذين نُحبّ الملك ونُحبّ فرنسا، كي نلغي تأثير الملكة السيئ ونكف أذاها.

ـ الطريق واضح.. ابق معي يا سَيِّدي وساعدني.

---

(1) ماريا تريزا Maria Teresa 1717- 1780 واحدةٌ من أحكم وأقدر الحكام في تاريخ النمسا. وقد قامت بإصلاحات اقتصادية ساهمت في نموّ ورخاء إمبراطوريتها، وكان لها 16 من الأبناء والبنات، كانت إحداهنّ " ماري أنطوانيت" ملكة فرنسا.(المُعد).

ـ إنَّني إذا بقيت إلى جوارك سنعمل في ميدان واحد وندور في فلك واحد، فكأنَّني سأكون أنت، وستكون أنت أنا. لهذا يجب أن نفصل قوتينا حتى يكون لهما وزن مضاعف وتأثير مزدوج.

ـ وإلى أي هدف سنرمي بأعمالنا المزدوجة ؟

ـ لعلنا نستطيع أن نؤخر وقوع الكارثة، ولكن ليس معنى هذا أنَّنا سنتمكَّن من منعها نهائياً. وإن كنت أضمن معاونة قوَّة هي ولا شك قوَّة الماركيز دي لا فاييت.

ـ ولكن، أليس الماركيز دي لا فاييت جمهورياً يا دكتور ؟

ـ إنَّه جمهوري طبعاً في حدود استطاعته. فإنَّه إذا كان علينا أن نقيم المساواة بين النَّاس، فإني أفضل أن يكون مستوى المساواة لجميع النَّاس هو مستوى النبالة لا مستوى الوضاعة والسوقية. فأنا أرى أن المساواة المنشودة هي التي ترفع لا تلك التي تسف وتهبط بالبشر.ألست من رأيي سَيِّدي البارون ؟

ـ وهل تضمن لا فاييت حقاً ؟

ـ بالتأكيد، ما دمنا لا نطالبه بشيءٍ عدا الشرف والشجاعة والولاء.

ـ تكلم إذاً ولا تخف عني شيئاً، ماذا تُريد مني ؟

ـ أُريد خطاب تقديم إلى جلالة الملك لويس السَّادس عشر.

ـ إنَّ رجلاً في مثل فضلك ليس بحاجةٍ إلى خطاب تقديم.

ـ ولكن يطيب لي أن أكون صنيعتك. فإن جزءاً من خطتي أن تكون أنت الذي قدَّمتني للملك.

ـ وما مرادك من ذلك التقديم ؟

ـ أن أصبح من أطباء الملك الخصوصيين في الأحوال العادية.

ـ ليس هناك ما هو أسهل من هذا. ولكن ماذا ستفعل وهناك نفوذ الملكة التي تكرهك جدًّا ؟

ـ عندما أُقابل الملك سأستطيع معالجة هذه النقطة.

ـ ولكنَّها سوف تتعقبك.

ـ في هذه الحالة سأجعل الملك يثبت وجوده.

ـ الملك يثبت وجوده ؟! إنَّك إذا استطعت هذا كنت إنساناً فوق البشر.

ـ وهل تعجب يا سَيِّدي البارون أن يتمكَّن طبيب يدين له الجسد من أن يُسيطر على العقل والروح ؟

ـ ولكن ألَّا تظن أن اعتقالك وسجنك في الباستيل سيكون عقبة في سبيل التوصية بأن تغدو طبيب الملك الخاص ؟

ـ بالعكس. هي خير توصية، ألم تكن جريمتي التي سجنت من أجلها هي اشتغالي بالفلسفة ؟

ـ أظن ذلك.

ـ إذاً سيتمكَّن الملك من استرداد نفوذه الشعبي إذا اختار لوظيفة الطبيب الخاص رجلاً من تلاميذ " جان جاك روسو"[1] وكاتباً فيلسوفاً من المدرسة الحديثة، وسجيناً سياسياً سابقاً في الباستيل. وأوصيك عند أوَّل مقابلة مع جلالته أن توضح له أهمية هذه النقطة.

---

(1) جان جاك روسو Jean-Jacques Rousseau وُلد بجنيف،في28 يونيو1712 وتُوفي في الثاني من شهر يوليو عام1778 (عن عُمُر ناهز 66 عاماً)، وهو كاتب وأديب وفيلسوف وعالم نبات. يُعد من أهم كُتَّاب عصر التنوير، وهي فترة من التاريخ الأوروبي، امتدت من أواخر القرن السَّابع عشر إلى أواخر القرن الثامن عشر الميلاديين. ساعدت فلسفة «روسو» في تشكيل الأحداث السياسية، التي أدت إلى قيام الثورة الفرنسية. (المُعد).

ـ إنَّ حججك مقنعة جدًّا. ولكن هل في وسعي بعد أن تصل إلى المنصب وتغدو طبيب الملك الخاص أن أعتمد عليك في مساعدتي سياسياً ؟

ـ كُلّ الاعتماد ما دمت تسير على الخطة السياسية التي نتفق عليها معاً.

ـ وبماذا تعدني وعد الشرف ؟

ـ أعدك وعد الشرف أن أُنذرك في اللَّحظة المناسبة كي تعتزل الوزارة، فلا تبقى حتى تكون كبشاً للفداء.

فحدَّق البارون " دي نكار" في الدكتور " جيلبير" لحظة طويلة، ثُمَّ قال في لهجةٍ تنم عن التفكير العميق:

ـ الواقع يا دكتور إن هذه أهم خدمة يمكن أن يطمع فيها الرَّجل السياسي الحصيف بمعنى الكلمة.

ثُمَّ جلس البارون إلى المكتب وراح يكتب إلى الملك خطاب التقديم، فجاء على الوجه الآتي:

" مولاي

أعلم أنَّ جلالتكم بحاجةٍ إلى خدمات رجل أهل للثقة تستطيعون التحدُّث إليه بصراحةٍ في الأمور المهمة. وإن أمنيتي لمولاي وأنا أُفارقه هو إهدائي إياه الدكتور جيلبير.

وإنَّه ليكفي أن أقول لجلالتكم أنَّ الدكتور جيلبير ليس من أمهر أطباء عصره فحسب، ولكنَّه أيضاً مؤلّف الأبحاث والمذكرات القيمة في الإدارة والسياسة، التي تركت أثراً عميقاً في ذهن جلالتكم.

مخلصكم الأمين

بارون دي نكار

ولم يؤرّخ البارون الخطاب بل تركه للدكتور " جيلبير" كي يضع عليه التاريخ الذي يوافقه، ثُمَّ نهض قائلاً:

ـ أظن أنَّه يمكنني الآن أن أعود إلى بروكسل كما كنت.

وهكذا انتهت الزيارة، وعاد الدكتور " جيلبير" إلى العربة حيث كان ينتظره «بيو»، و«بيتو»، وقد غلبهما النُعاس بعد متاعب ذلك اليوم الهائل.

## الفصل السادس عشر

# في حضرة صاحب الجلالة

*In the presence of His Majesty*

دامت المقابلة بين الدكتور " جيلبير" وكُلّ من مدام " دي ستايل"، والبارون " دي نكار" نحو ساعة ونصف، ولهذا وصل " جيلبير" إلى باريس بعيد التاسعة مساء بربع ساعة، فاتجه فوراً إلى مكتب البريد وأمر بإعداد جياد قويَّة وعربة خفيفة، ثُمَّ ودع " بيو"، و" بيتو" اللذين اتجها ليحظيا بالرَّاحة والنَّوم في خان صغير بشارع «تيرو» حيث اعتاد " بيو" أن ينزل به كُلَّما حل مدينة باريس، أمَّا هو شخصياً فاتجه بأقصى سرعة تستطيعها الخيل على طريق فرساي.

وكان الوقت متأخراً، بيد أن هذا لم يكن يعني " جيلبير"، فمَنْ كانوا على شاكلته لابدّ لهم من العمل والحركة والنشاط. وربما كانت تلك الرحلة المتعبة عقيمة بغير ثمرة، ولكنَّه كان يفضل رحلة عقيمة على أن يبقى في مكانه لا يتحرَّك ولا ينشط، فأصحاب الطبائع العصبيَّة والأمزجة الملتهبة قد يتحملون أسوأ النتائج وأمر الحقائق عن يقين، ولكنَّهم لا يستطيعون احتمال عذاب الشك والقلق.

وكان وصوله إلى فرساي بعد السَّاعة العاشرة بنصف ساعة. وهي ساعة متأخرة، يستغرق النَّاس فيها في نعاس عميق في الأحوال العادية، أمَّا في تلك الليلة فلم يغمض لأحدٍ في فرساي جفن ممَّا أحدثه الاستيلاء على الباستيل، لأنَّها كانت في جميع العصور مدينة المَلكية وقلعتها الحصينة فسكانها يدينون باحترامٍ ديني أشبه بالتقديس إن لم يكن للملك فللملكية، وكأن بهذا التقديس قد أصبح عنصراً من عناصر هوائها أو خاصة من خواص تربتها، وذلك في الواقع أمر خالٍ من الغرابة، أفليس أهل فرساي قد عاشوا أجيالاً بعد أجيال في جيرة الملوك، مستظلين بظلهم، مرهوبين بأبهتهم، مبهورين بفخامة حياتهم، منتفعين بسخائهم وبالرواج الذي تحدثه فيهم أبهة الملوك ونفقات حاشيتهم الطائلة ؟ وأليسوا قد درجوا منذ الطفولة على تنسم عبير العطور الملكية مع ما يستنشقون من هواء، حتى بات قريباً من نفوسهم وخواطرهم، وأن يظنوا أنفسهم بحكم الجوار والعشرة ملوكاً بين سائر سكان باريس ؟

فلا عجب إذاً أن تبيت فرساي كُلَّها ساهرة واجفة القلب في تلك الليلة التاريخية التي توسطت يومي 14 و15 يوليه سنة 1789 ، وكُلّ فرد فيها متشوق أن يعلم ماذا سيكون جواب ملك فرنسا على تلك الإهانة التي وُجهت إلى العرش وذلك الجرح المميت الذي أُصيب به سلطانه. فلئن كانت كلمة " ميرابو" المشهورة لكبير الأمناء في الجمعية الوطنية حين تلا عليهم أمر الحل من ذلك : " نحن هنا بأمر الأمة، ولن نخرج إلَّا على أطراف الأسنة ".

لئن كانت هذه الكلمة صفعة على خد الملكية، فإن سقوط الباستيل كان طعنة أصابت فؤاد الملكة في الصميم.

ومع هذا فإن صغار الأحلام وضعاف العقول من أنصار الملكية المتعصبين كانوا يرون بنظرهم القصير أن المسألة لا تزال سهلة الحل قريبة المنال، فالعسكريون على وجه الخصوص لم يكونوا يتصورون شيئاً سوى استخدام القوَّة الغاشمة وما يمكن أن يترتب عليه من انتصار ظاهري أحمق، ولهذا كان رأيهم جميعاً الزحف على

باريس، فإنَّ ثلاثين ألف جندي وعشرين بطارية من المدافع كفيلة أن تلاشي غرور أهل باريس وتسحق مقاومتهم.

أما المعتدلون من النصحاء والمستشارين فكانوا يرون أيضاً أنَّ الحل بسيط، فما على الملك إلَّا أن يأخذ قراراً من الجمعية الوطنية باستنكار أعمال العنف التي أقدم عليها الغوغاء، ولا شك أن الجمعية الوطنية لن تتردد في إصدار ذلك القرار، الذي يستخدم بعد ذلك ذريعة لإنزال العقاب الصارم بأهل باريس، كما ينبغي أن يعاقب الوالد عقوق الأبناء بالشدة والحزم.

ولكن بعيداً عن هذه الأوساط الراقية المُحيطة بالبلاط كان المُشاهد يرى وجوهاً غريبة غير مألوفة في فرساي، حضرت في الغالب من باريس، فتجمَّع حولها الأهالي من العامَّة يستمتعون لآرائهم وأقوالهم:

ـ لقد انقضت ثمانية قرون والشعب يكافح كفاحاً مستمراً فماذا جنى من ثمرات ذلك الكفاح ؟ لا شيء ! لم يحصل على حقوق اجتماعيَّة أو سياسة. فليس مصير الشعب إلَّا كمصير بقرة الفلاح، يؤخذ منها وليدها فيُباع أو يُذبح، ويحلب منها لبنها فيُشرب أو يُباع ثُمَّ تذبح في آخر المطاف ليُباع لحمها في الأسواق، ويدبغ جلدها ليكون أحذية وقفازات. ولئن تكوَّنت أخيراً الجمعية الوطنية، فلم يكن ذلك من تلقاء أرادة الملك، بل بضغط الظروف. فإذا كان إخواننا في باريس قد قاموا بنصيبهم من الكفاح اليوم، فيجب أن نشترك نحن معهم فنحث الجمعية الوطنية على انجاز مهمتها وحصول الشعب على حقوقه حتى يعم الرخاء وتنتصر الحُرِّيَّة. فإلى الأمام أيها المواطنون، فلم يكن الباستيل إلَّا نقطة الدفاع الأمامية من حصن الطغيان، وقد سقط الباستيل، وصرنا الآن أمام الحصن الحقيقي وجهاً لوجه.

وهكذا كان الرأي العام الشعبي يتكوَّن حتى في فرساي نفسها يتكوَّن ويختمر، ممهداً لقيام الحرب الأهلية.

وقد لاحظ " جيلبير" جملة من هذه التجمعات، وتعرف إلى تيارات التفكير العام، ثُمَّ اتجه مباشرة إلى القصر الذي كانت تحرسه كتائب عسكرية كثيرة العدد لحمايته مَّما لا يستطيع إنسان أن يتكهن به من الاحتمالات في تلك الظروف.

ومع ذلك استطاع " جيلبير" بغير صعوبة أن يجتاز الفناء الخارجي حتى وصل إلى البهو المستدير دون أن يسأله إنسان إلي أين هو ذاهب، أو ماذا يريد.

فلما بلغ البهو المستدير استوقفه أحد الحراس، فأخرج " جيلبير" الخطاب وأظهر له توقيع البارون " دي نكار"، فحدق فيه الحارس، ثُمَّ قال:

ـ إنَّ الأمر الصادر إليَّ يا سَيِّدي ألَّا أسمح لأحدٍ بزيارة الملك أمر قاطع، ولكن لمَّا كانت لرسالة المسيو دي نكار أهمية خاصَّة لم تكن في الحسبان حين صدور هذا الأمر. ولمَّا كنت ولا شك بحضورك في هذه السَّاعة من طرف البارون تحمل أنباء مهمة إلى جلالته، لهذا أبيح لنفسي أن أخالف الأوامر وأسمح لكم بالدخول على مسؤوليتي الخاصَّة.

فدخل " جيلبير".

ولم يكن الملك في جناحه الخاصّ بل في حجرة المجلس المخصوص. إذ كان يستقبل وفداً بعثته إليه هيئة الحرس الوطني في باريس بالتماس بتسريح القوات المحيطة بالمدينة وتكوين حرس من المواطنين، ملتمسين أيضاً من جلالته أن يُشرف عاصمة مُلكه بالحضور.

وقد أصغي" لويس " لتلك الطلبات بفتورٍ، ثُمَّ أجاب في النهاية بأنَّ الحالة تستدعي شيئاً من التفكير وإمعان النظر، وإنَّه بصدد النظر في الموضوع مع مجلسه المخصوص.

وانصرف أعضاء الوفد فانتظروا في الردهة في حين أختلي الملك بأعضاء المجلس المخصوص ولكن أشباح أعضاء المجلس كانت تبدو من أجزاء الأبواب

الزجاجية، فتمكَّن أعضاء الوفد من ملاحظة حركاتهم التهديدية الثائرة، وتوقعوا لهذا أن يكون القرار برفض طلباتهم.

والواقع أن الملك اكتفى بأن قال إنَّه سيُعين فريقاً من الضباط لذلك الحرس الوطني وإنَّه سيأمر القوات المعسكرة في ساحة مارس بالتراجع.

أمَّا عن حضوره إلى باريس، فإنَّه لن يظهر هذا الرضي السامي إلَّا بعد أن تخلد المدينة المُتمرِّدة إلى السكينة والخضوع التأمين.

وراح أعضاء الوفد يلحون ويتذللون، بيد أن الملك قال إن قلبه مكتئب ونفسه حزينة، ولهذا فإنَّه لا يستطيع أن يصنع شيئاً في الوقت الحاضر.

ثُمَّ انسحب جلالته إلى جناحه الخاص، وهناك وجد " جيلبير" وبالقرب منه الحارس الذي أُذن له في الدخول.

فلما رآه الملك، قال:

ـ ماذا يُراد مني ؟

فاقترب الحارس من الملك وراح يعتذر له عن مخالفته للأوامر بالنسبة لهذه الحالة الاستثنائية وفي هذه اللَّحظات كان الدكتور " جيلبير" قد انتهز الفرصة لتفحص وجه الملك الذي لم يكن قد رآه منذ سنوات طويلة، فلم يجد في ذلك الجسد القصير البدين مرونة ولا مهابة، ولم يجد في ذلك الجبين الضيق ما يبشر بقوَّة العقل، وشعر بما هناك من عدم التكافؤ بين قوَّته الجسدية ومواهبه العقلية الضئيلة التي لا تتفق مطلقاً مع المكانة السامية التي حباه القدر بها. فكان الشعور الذي أحس به الدكتور" جيلبير" لأوَّل وهلة، لا من تأثير الاحترام ولكن بسبب الحزن لضعف الرجاء في ذلك الرَّجل.

وتقدَّم الملك نحوه، قائلاً:

ـ هل تحمل إليَّ رسالة من المسيو دي نكار ؟

ـ أجل يا مولاي.

ـ أمنحني إياها حالاً !

وقد خرجت هذه الكلمات الأخيرة من فمه في لهفةٍ أشبه ما يكون بلهفة الغريق.

وقدَّم " جيلبير" الرسالة للملك، ففتحها وقرأها بسرعةٍ شديدةٍ، ثُمَّ أشار بيده إلى الحارس في حركة لا تخلو من رشاقة النبالة.

ـ اتركنا الآن يا مسيو " دي فاريكور".

فخرج حارس الشرف وبقي الملك و"جيلبير" وحدهما. ولم تكن الحجرة مضاءة إلَّا بمصباح واحد، وكأن بالملك وقد خفَّف الإضاءة إلى أقلّ حد ممكن حتى لا يلاحظ مَنْ في حضرته ما يثقل جبينه من قلقٍ واهتمام، وسدد الملك إلى " جيلبير" نظرة صافية نافذة لم يكن " جيلبير" يعتقد أنَّه قادر على تسديدها بهذا العمق، ولكنها فيما تظهر طبيعة يكسبها النَّاس من سمو المنصب والنشأة في كنف السلطان وتعود الأمر والنهي والتصرُّف المطلق. ثم قال لـ" جيلبير":

ـ أصحيح أيها السَّيِّد أنَّك مؤلّف المذكرات التي كثيراً ما أدهشتني ؟

ـ أجل يا مولاي.

ـ وكم عُمْرك ؟

ـ اثنتان وثلاثون سنة يا مولاي. بيد أن التجارب ومصائب الدهر ضاعفت سني، فلك أن تُعاملني كما لو كنت من المعمرين.

ـ ولماذا أغضيت حتى الآن عن تقديم نفسك إلينا ؟

ـ لأنني لم أرد يا مولاي أن أجاهر بما كنت أستطيع كتابته إلى جلالتكم بحُرِّيَّةٍ أشدّ وسهولةٍ أعظم.

فسكت " لويس" برهة، ثُمَّ قال:

ـ أليس هناك سبب آخر ؟

ـ كلا يا مولاي.

ـ وأين نكار الآن ؟

ـ على أتم استعداد يا مولاي لإطاعة أوامر جلالتكم.

فتنهَّد " لويس السادس عشر"، ثُمَّ قال:

ـ خيراً صنع. فإني سأحتاج إليه قريباً، ولا ينبغي في السياسة أن يكون الإنسان متعنتاً، فكُلّنا نحسب أنَّنا نحسن صُنعاً، فإذا بنا نسيء بل إننا نُحسن صنعاً فعلاً ولكن الأحداث الخارجة عن إرادتنا تُبدِّل النتائج وتفسد التدبيرات، ثُمَّ يقع على رؤوسنا وزر الإساءة او الخطأ.هكذا السياسة يا سَيِّدي.

ثُمَّ تنهَّد " لويس" محسوراً، فبادر" جيلبير" إلى الترفيه عنه، قائلاً:

ـ مولاي، ما أبدع تفكير جلالتكم. ولكن ما يلزمنا في الوقت الحاضر هو النظر في المستقبل نظراً أصفي وأصدق ممَّا مضى.

فرفع الملك رأسه وعقد ما بين حاجبيه، فقال" جيلبير":

ـ عفوك يا مولاي، إني رجل طبيب صناعته العلاج. وحين يحدق الخطر من عادتي أن أتكلم في صميم الموضوع وبصراحةٍ وبإيجازٍ، فأرجو ألَّا يؤخذ جلالتكم بلهجتي هذه.

ـ هل أفهم من هذا أنَّك تعلق أهمية كبيرة على الشغب الذي وقع اليوم في عاصمتنا ؟

ـ مولاي ! إنَّه ليس شغباً.

ـ أي شيء هو إذاً ؟

ـ ثورة.

ـ وهل تطلب مني أن أتفاهم وأتهاون مع ثوار قتلة ؟ لقد استولوا على الباستيل عنوةٍ وذلك وحده تمرُّد وعمل ثوري، ثُمَّ قتلوا المسيو دي لوناي، ونائبه المسيو دي لوم، وعمدة باريس المسيو دي فليسيل. فهم قتلة.. سفاكون دماء.. سفاحون.

ـ أرجو من جلالتكم في هذا المقام أن تراعوا شيئاً من التفريق الدقيق. فالذين استولوا علي الباستيل أبطال. أمَّا الذين قتلوا دي فليسيل ودي لوناي فقتلة وسفاحون.

فاحمر وجه الملك عند سماع هذه الكلمات، ثم شحب وجهه، وابيضت شفتاه، ونضح جبينه بقطراتٍ من العرق، وقال:

ـ أنت على حق يا سَيِّدي. فأنت كما قلت طبيب، أو بعبارةٍ أدق جراح. لأنَّك تقطع قطعاً عميقاً سريعاً باتراً. ولكن دعنا من هذا ولنعد إلى موضوع المقابلة. أنت الدكتور جيلبير أليس كذلك ؟ أو هذا على الأقل هو الاسم الذي كنت توقع به مذكراتك.

ـ مولاي. إنَّه لشرف عظيم لي أن تذكرون جلالتكم مذكراتي، ولهذا يحق لي أن أزهو، وإن كنت لا أرى ما يشجعني على الاعتزاز بهذا الاسم.

ـ ولماذا ؟

ـ لأن اسمي لابدّ أنَّه قد ذُكر أمام جلالتكم في ظروف مُعيَّنة، وذلك منذ وقت غير طويل.

ـ لستُ أدري ما ترمي إليه.

ـ منذ ستة أيام يا مولاي أُلقي القبض علىَّ وألقي بي في الباستيل وقد سمعت أخيراً أنَّه ما من أمر بالقبض على إنسانٍ لأسباب سياسية إلَّا بعد علم الملك.

ففغر الملك فاه واتسعت حدقتاه، وقال:

ـ أنت في الباستيل !!

ـ هذه هي صحيفة السجل التي تدل على دخولي السجن، ومنها يفهم أنني سُجنت منذ ستة أيام بأمر الملك، إلى أن خرجت من الباستيل السَّاعة الثالثة عصر اليوم بأمر الشعب.

ـ اليوم ؟

ـ نعم يا مولاي. ألم تسمع قصف المدافع ؟

ـ بكُلِّ تأكيد.

ـ لقد كانت هذه المدافع تفتح لي أبواب الباستيل.

ـ آه. أكاد أقول أنني مسرور لما حدث، لولا أن المدافع التي أطلقت هذا اليوم على الباستيل لم تصبه وحده، بل أصابت الملكية معه.

ـ بالله يا مولاي لا تجعل من سجن رمزاً لمبدأ وعنواناً لنظام، بل الأولى أن تقول إنَّك مسرور لسقوط الباستيل، لأنَّ معني ذلك أنَّه لن تكون هناك مظالم بعد اليوم باسم الملك وهو برئ لا يعلم عنها شيئاً كما حدث في حالتي أنا شخصياً.

ـ ولكن لابدّ يا سَيِّدي أن لسجنك سبباً.

ـ هذا ما لا أعلم عنه شيئاً يا مولاي فقد قُبض عليَّ وأنا عائد إلى فرنسا وزج بي في الباستيل بغير تحقيق أو تبرير، وهذا مُجمل علمي.

ـ ألست ترى يا سَيِّدي أنَّك لا تخلو من أنانيةٍ إذ تأتي الآن لتحدثني في شأنك، وشأني أنا أولى بالحديث !

ـ مولاي، كُلّ ما أطلبه هو جواب سؤال واحد.

ـ وما هو ؟

ـ هل كانت لجلالتكم دخلاً في سجني.

ـ بل أني لم أكن أعلم مُجرَّد عودتك إلى فرنسا.

ـ لقد أثلج صدري أن أعلم هذا يا مولاي. فإنني أصبحت أعتقد أنَّه حينما ينسب إلى جلالتكم خطأ من الأخطاء فذلك في الغالب مؤامرة ، وسيكون في وسعي أن أجعل من نفسي مثالاً وشاهداً على ذلك.

فأبتسم الملك، وقال:

ـ إنَّك طبيبٌ يُحسن صبّ البلسم في الجراح.

ـ مولاي. سأكثر من صبِّ البلسم في الجراح. وإذا شئتم جلالتكم سأتولى شفاء الجرح.

ـ ليس أحبّ إليَّ من هذا.

ـ يجب لهذا أن تكون إرادتكم حازمة خالصة يا مولاي. وقبل أن نمعن في الموضوع، أرجو أن تقرأ جلالتكم هذا السطر المكتوب على هامش الخطاب المختوم الصادر بسجني.

فقرأ الملك السطر وإذا به: " بناء على طلب الملكة".

فقطب الملك حاجبيه، وقال:

ـ هل بدر منك ما كدر الملكة ؟

ـ أنا واثق أنَّ جلالتها تعرفني معرفة أقل كثيراً من معرفة جلالتكم.

ـ أواثق أنت أنَّ الخطاب المختوم صادر عن جلالتها مباشرة ؟

ـ أنا لا ازعم هذا. بل الراجح أنَّ جلالتها أوصت بإجابة طلب مَنْ التمسوا سجني.

ـ ومَنْ الذي التمس منها سجنك ؟

ـ أنظر بنفسك يا مولاي.

فنظر الملك، ثُمَّ صاح في دهشةٍ:

ـ الكونتس دي شارني ! ما أعجب هذا ! ولماذا تطلب سجنك ؟

ـ إنني يا مولاي لم أكن أعرف حتى اسم هذه السَّيِّدة قبل هذا الصباح حينما قرأته في سجلات السجن.

فتمتم الملك وهو يمرّ بيده فوق جبهته:

ـ شارني. ربَّة الفضيلة والطهارة والرقة.

ـ ها أنت ذا ترى يا مولاي أنَّه قد زُج بي في الباستيل بناء على طلب هذه الأقانيم العلوية الثلاثة.

ـ لابدّ لي من أن أجلو سرّ هذه المسألة.

ثُمَّ جذب جلالته حبل الجرس فدخل حاجب، فقال له الملك:

ـ انظر لي.. هل الكونتس دي شارني لدي الملكة. واطلب إليها الحضور إلى مكتبي لأمرٍ مهم.

## الفصل السابع عشر

# استجلاء الحقيقة

*Clarify the truth*

عندما سمع "جيلبير" أمر الملك باستدعاء الكونتس" دي شارني" انسحب فوقف بجوار إحدى النوافذ.

أمَّا الملك فكان يتمشى في الحجرة وهو مستغرق في التفكير، يتنازعه في ذلك ما يُحيط به من ظروف عامَّة، وما أحس به من التأثير بذلك الشخص الجريء غريب الأطوار.

وفجأةً.. فُتح باب المكتب وأعلن الحاجب حضور الكونتس" دي شارني". فنظر "جيلبير" وهو مختف وراء ستائر النافذة فأبصر امرأة تملأ أثوابها الحريرية الفضفاضة ضلفة الباب. وكان ثوبها رمادي اللَّون مزركشاً تنم تفصيلته عن جمال تكوينها الذي زادت في إبراز محاسنه حبكة الصدر وارتفاع كعب الحذاء.

..وتقدَّم الملك خطوة لمقابلتها وهو، يقول

ـ لقد قيل لي أنَّكِ كنتِ بسبيل الخروج يا كونتس.

ـ الحق يا مولاي أنَّني كنت على وشك الركوب حين تلقيت أمر جلالتكم.

..فلَّما سمع "جيلبير" نغمات صوتها الحازم، أصابه دوار وصعد الدَّم إلى وجنتيه وانتابه رعدة عنيفة كأنَّما اتصل جهازه العصبي بتيار كهربائي سريع الذبذبة. ووجد نفسه دون أن يدري يخرج من بين الستائر التي كان مختفياً بها، ويغمغم:

ـ إنَّها هي. .هي. . أندريه (وهو أسمها).

واستطرد الملك الذي لم يلحظ لا هو ولا الكونتس بروز "جيلبير" من وراء الستائر، لأنَّه كان واقفاً في الظل المعتم:

ـ لقد طلبت إليكِ زيارتي لأحصل منكِ على بعض المعلومات.

ـ أنا على أتم استعداد لتلبية رغبات جلالتكم.

.. وتراجع "جيلبير" تدريجياً حتى اختفى ثانيةً وراء الستائر.

ـ سيدتي. منذ نحو ثمانية أيام طلب من البارون دي نكار أمر مختوم بالقبض على شخصٍ.

..وكان "جيلبير" قد ثبَّت نظره عليها من وراء الستائر.. فرآها شاحبة كالمحمومة، وقد ظهر على وجهها القلق، ولم تجب الملك.

.. فأستطرد الملك، قائلًا يستوضحها:

ـ هل سمعتِ سؤالي يا كونتس؟

ـ أجل يا مولاي.

ـ فهل فهمته ؟ وهل في وسعكِ الجواب؟

ـ أنى أحاول أن أتذكَّر.

ـ اسمحي لي أن أقدم بعض المساعدة لذاكرتكِ يا كونتس. لقد كنت أنتِ قد طلبتِ هذا الأمر المختوم. وقد أوصت الملكة بخطها على الطلب دون أن توقع التوصية بإمضائها.

.. وبدلاً من أن تجيب الكونتس زاد ارتباكها الشديد وترنحت، فنفد صبر الملك،الذي قال بشيءٍ من الحِدة:

ـ أجيبيني يا سيّدتي.

فأجابت الكونتس، وهي ترتعد بشكلٍ ظاهر:

ـ هذا صحيح. لقد حدث هذا يا مولاي. وقد كتبت الطلب وأشَّرت عليه الملكة بالتوصية.

ـ أخبريني إذاً ما هي الجريمة التي اقترفها ذلك الشخص الذي طلبت إلقاء القبض عليه ؟

ـ مولاي. لا أستطيع أن أُصرّح لك بحقيقة هذه الجريمة، ولكنَّني أستطيع أن أقول أن تلك الجريمة خطيرة للغاية.

ـ ألَّا تستطيعين التصريح حتى لي شخصيًّا ؟

ـ كلا يا مولاي !

ـ إذاً ستصرحين بالحقيقة يا سيّدتي للشخص صاحب الشأن. فما لم تصرحي به على لويس السَّادس عشر ملك فرنسا، يجب ألَّا تنكريه على الدكتور جيلبير.

.. فصاحت الكونتس كالمذعورة:

ـ الدكتور جيلبير؟ يا إلهي ! وأين هو إذاً ؟

.. فانتحى الملك جانباً، وانفرجت الستائر وظهر الدكتور بوجه يضاهي وجه الكونتس شحوباً وقال :

ـ ها هو ذا يا سيّدتي.

.. فما أن وقعت عليه عينا الكونتس حتى ترنحت، وخانتها ساقاها ومالت إلى

الوراء شأن من يوشك على الإغماء، فكادت تسقط على الأرض، لولا اعتمادها على ظهر بعض المقاعد.

.. فقال لها "جيلبير":

ـ سيّدتي. اسمحي لي أن أُكرِّر على مسمعكِ السؤال الذي وجهه إليكِ منذ لحظة جلالة الملك.

.. وشوهدت شفتا الكونتس تتحرَّكان، ولكن لم يخرج منهما أي صوت.

فعاد "جيلبير" يسألها:

ـ أي ذنب اقترفته يا سيّدتي حتى يصدر أمركِ بإلقائي في غياهب ذلك السجن ؟

.. فلما وقع على سمعها صوته انتفضت كمَنْ تمزَّقت أوتار قلبها، ولكنَّها سيطرت على أعصابها بسرعةٍ ورمقت "جيلبير" بنظرةٍ باردةٍ كنظرة الثعبان السَّام، وقالت:

ـ أنا يا سيّدي؟ أنا لا أعرفك أبداً.

.. ولكن في حين كانت تنطق بهذه الكلمات كان الدكتور "جيلبير" من ناحيته قد ركز فيها نظراته وقد شحنها بأقصى ما يستطيع من البريق والجرأة.. فقال الملك، موجهاً إليها الخطاب:

ـ يا كونتس. ها أنتِ ترين مدى ما يمكن أن يحدثه سوء استخدام التوقيعات من أثر سيء . فهذا سيّد لا تعرفينه كما اعترفتِ الآن، وهو طبيب حاذق مشهور ولا يمكن أن يكون موضوع اتهام بأي شيءٍ.

فرفعت "أندريه" رأسها ورمقت "جيلبير" بنظرة كراهية صاعقة، بيد أنَّه ظلّ على حاله من الهدوء والكبرياء. واستطرد الملك:

ـ أقول يا سيّدتي أنَّكِ تورطتِ بذلك الطلب في معاقبه شخص برئ بدلاً من شخص آخر. وهذا خطأ فاحش.

فقالت "أندريه" محتجةً:

ـ مولاي..

.. وأحس الملك بالخطر الذي يخشاه دائماً، وهو إغضاب أحد المقربين إلي زوجته، فقال برفقٍ:

ـ أعلم يا كونتس أنَّكِ رقيقه القلب، وأنَّكِ حين تعاقبين شخصاً فلا بدّ أن يكون قد اقترف ما يستحق من أجله ذلك العقاب. ولكنَّكِ ترين أنَّه ينبغي مراعاة التدقيق في المستقبل حتى لا يتكرَّر مثل ذلك الخطأ الفاحش.

ثُمَّ انتحى نحو الدكتور "جيلبير"، فقال له:

ـ دكتور ها أنت ترى أن الخطأ هو خطأ العصر لا خطأ البشر. فقد ولدنا في الفساد والانحلال وسنحاول جهد استطاعتنا أن نُحسِّن الحالة، وأنا واثق يا دكتور جيلبير أنَّك ستكون خير مُعين لي في ذلك.

ثُمَّ سكت لويس السَّادس عشر وهو يحسب أنَّه قد قال ما فيه الكفاية لإرضاء الطرفين. ولكن الطرفين لم يجدا في ذلك المقال ما يكفى لا رضائهما، فقال "جيلبير":

ـ بإذن جلالتكم يا مولاي سأطلب من الكونتس أن تعيد ما قالته منذ لحظه من أنَّها لا تعرفني .

فقال الملك:

ـ هل لكِ يا كونتس في أجابه طلب الدكتور؟

.. فقالت" أندريه" في صوت حازم ثابت:

ـ أنا لا أعرف الدكتور جيلبير.

ـ ولكنكِ تعرفين جيلبير آخر، يُدعى بأسمى، ذلك الذي ألقيتِ على رأسي جريمته في نظركِ.

ـ أجل أعرف ذلك الشخص. وأعتبره نذلاً ساقطاً.

فالتفت "جيلبير" إلى الملك، وقال له:

ـ مولاي. لا يليق بي أن أستجوب الكونتس. ولكن هل لكم في التفضل بسؤالها عن ذنب ذلك الشخص ؟

ـ أعتقد يا كونتس أنَّكِ لا يمكن أن ترفضي مثل هذا الطلب.

ـ ذنبه ؟ لا شك أنَّ الملكة تعرف هذا الذَّنب ما دامت جلالتها قد كتبت بخط يدها موصيه على تنفيذ طلبي بالقبض عليه.

ـ ولكن لا يكفي يا كونتس أن تكون الملكة قد اقتنعت. فلا بدّ أيضاً من اقتناعي أنا، فالملكة هي الملكة حقاً، ولكن أنا الملك.

ـ أعلم إذاً يا مولاي أنَّ المدعو جيلبير المُشار إليه في أمر القبض قد اقترف منذ ستة عشر عاماً جريمة مروعه.

.. فقال "جيلبير" للملك:

ـ أرجو يا مولاي أن تسأل الكونتس كم عُمْر ذلك الرَّجل في يومنا هذا لو أنَّه حي يرزق ؟

.. فألقى الملك السؤال على الكونتس، فأجابته:

ـ ما بين الثلاثين والثانية والثلاثين.

ـ إذاً يا مولاي مَنْ اقترف تلك الجريمة لم يكن رجلاً منذ ست عشرة سنه بل كان طفلاً. وإذا كان الرَّجل طيلة هذه الأعوام الستة عشر قد أظهر الندم على ما اقترفه الطفل فهل لا يستحق ذلك الرَّجل شيئاً من التسامح والعطف ؟

ـ ولكن هل تعرف يا سيِّدي إذاً هذا الشخص ؟

ـ أجل أعرفه يا مولاي.

ـ وهل لم يقترف جريمة أخرى بخلاف تلك التي اقترفها في شبابه الباكر منذ ستة عشر عاماً ؟

ـ أنا لا علم لي بأنَّه منذ تلك الجريمة قد فعل ما يلام عليه ؟

.. فصرخت الكونتس بعصبيةٍ، قائلة:

ـ فيما عدا أنَّه كان يغمس قلمه في السُم ويؤلّف المفتريات السافلة والمقذعة.

ـ أرجو يا مولاي أن تسأل الكونتس إذا كان أمر القبض على ذلك المدعو جيلبير لم يكن المقصود به في الحقيقة تمكين أعدائه، أو بالأحرى تمكين عدوه، من الاستيلاء على صندوق مُعيَّن، بداخله أوراق بعينها، تمس سيِّده كبيره في المقام من سيِّدات البلاط.

.. وارتعدت فرائص" أندريه" ،التي قالت بصوتٍ مرتجف:

ـ سيِّدي !

.. فسألها الملك وقد لاحظ ارتجافها وشحوبها:

ـ ما شأن ذلك الصندوق يا كونتس ؟

.. أمَّا "جيلبير" فصاح وقد أدرك أنَّ زمام الموقف قد صار في يده:

ـ لا داعي يا سيِّدتي للرياء والمواربة. فأنا جيلبير الذي اقترف تلك الجريمة القديمة. وأنا جيلبير صاحب الصندوق المسروق. وأنتِ السَّيِّدة كبيرة المقام بين سيِّدات البلاط التي تمسها الأوراق التي بداخل ذلك الصندوق. وإني أحتكم إلى الملك وأقبل حكمه سلفاً. وسنخبر قاضينا كُلّ ما حدث بيننا، حتى يحكم بالعدل.

ـ قل ما شئت يا سيِّدي. أمَّا أنا فلن أقول شيئاً. فأنا لا أعرفك !

ـ ولا تعرفين الصندوق أيضاً ؟!

فقبضت الكونتس يدها وعضت شفتيها الشاحبتين حتى أدمتهما، ثُمَّ قالت:

ـ لا أعرف عنه أكثر ممَّا أعرف عنك.

ـ احذري يا سيِّدتي. فأنا تلميذ جوزيف بلسامو، والتأثير الذي كان له قد أورثني إياه. واني أسألكِ للمرَّة الأخيرة ماذا صنعتِ بصندوقي المسروق ؟

.. ثُمَّ راح يُحدق فيها وهى ترتجف كورقةٍ في مهب الريح، ثُمَّ صاحت كالمذعورة، وهى تحاول الفرار من الحجرة:

ـ كلا ! كلا..

فرفع "جيلبير" يده وقد شحب وجهه، وصاح بصوتٍ حازمٍ:

ـ تكلمي يا أندريه، وليكن قلبكِ الحجري تحت ضغط إرادتي القاهرة، تكلمي واكشفي النقاب عن روحكِ الحقيقة وعمَّا تخفيه في طوايا سريرتكِ كي يطلع الملك الآن على ما لا يعلمه من خباياكِ إلَّا الله.. نامي يا كونتس.. نامي وتكلمي.. وهذه إرادتي !

.. وما أنْ نطق هذه الكلمات حتى تسمَّرت الكونتس في مكانها ومدَّت ذراعيها إلى الأمام، ثُمَّ سقطت بين ذراعي الملك الذي كان يرتجف هو أيضاً، فأجلسها علي مقعدٍ، ثُمَّ قال للدكتور "جيلبير":

ـ لقد سمعت عن أشياء من هذا القبيل، ولكنَّني لم أشهد مثل هذا قبل الآن. أليس هذا هو التنويم المغناطيسي ؟

ـ نعم يا مولاي. والآن خذ راحة الكونتس بين يديك واسألها لماذا تسبَّبت في سجني ؟

.. فأطاع الملك كالمذهول، وسألها:

ـ هل أنتِ يا كونتس التي تسبَّبت في اعتقال الدكتور جيلبير ؟

.. ومع أن الكونتس كانت قد نامت فعلاً إلَّا أنَّها بذلت مجهوداً أخيراً للمقاومة، فصاحت:

ـ كلا ! لن أتكلم.

فنظر الملك إلى "جيلبير"، وكأنَّه يتساءل أي الإرادتين ستتغلَّب، إرادة الدكتور أم إرادة "أندريه"، فابتسم الدكتور، وقال:

ـ أأنتِ حقاً لن تتكلمي ؟

.. وثبت عينيه في المرأة النائمة، وتقدَّم نحوها، فارتعدت ثُمَّ تصلبت عضلاتها، وصاح الملك:

ـ أحذر.. أحذر كي لا تقتلها.

ـ لا تخف يا مولاي. فأنى أروض روحها فقط.

.. ثُمَّ رفع يديه وصرخ فيها:

ـ تكلمي !

.. فكادت عضلاتها تنفجر من فرط التوتُّر، وظهرت عليها أعرض شبيهه بأعراض الشلل. فصرخ الملك مذعوراً، ولكن "جيلبير" لم يعبأ وصاح:

ـ تكلمي قلت لكِ. هذه إرادتي !

.. فأطلقت "أندريه" آهة، ثُمَّ انفجرت الدموع من عينيها المغمضتين:

- يا إلهي .. يا إلهي..

ـ استنجدي بالله ما شئتِ، فإن مَنْ يعمل باسم الله لا يخاف الله.

ـ كم أكرهك !

ـ اكرهيني ما شئتِ ولكن تكلمي .

ـ مولاي.. قل له أنَّه يقتلني.

ـ تكلمي بغير تلكؤ !

.. ثُمَّ أشار إلى الملك أنَّه يستطيع الآن أن يسألها، فقال الملك:

ـ لقد كان الدكتور جيلبير إذاً هو الذي أردتِ القبض عليه ؟

ـ نعم.. هو.

ـ ولم يكن هناك خطأ أو التباس ؟

ـ على الإطلاق.

ـ والصندوق ؟

ـ وهل كان في وسعي أنْ اترك ذلك الصندوق في حوزته.

.. وعندئذ تبادل الملك و"جيلبير" النظرات، ثُمَّ سألها الملك:

ـ وهل أخذتِ ذلك الصندوق منه ؟

ـ بل كلفت مَنْ أخذه منه.

ـ خبريني إذاً كيف دبرتِ ذلك ؟

ـ لقد علمت أنَّ هذا المدعو جيلبير على وشك الحضور للإقامة في فرنسا نهائيًا.

ـ ولكني أسالكِ عن الصندوق.

ـ وكنت قد علمت أنَّه قد ترك الصندوق في حوزة أحد فلاحيه.

ـ وكيف علمتِ ذلك ؟

ـ ذهبت إلى أحد أطباء التنويم المغناطيسي، فنومني ورأيت الصندوق.

ـ وأين كان ؟

ـ في دولاب ملابس كبير بالدور الأرضي، مخبوءاً تحت كومه من الثياب والملاءات البيضاء..

ـ هذا عجيب.. وبعد ذلك ماذا فعلتِ ؟

ـ توجهت إلى منزل مدير البوليس الذي كانت الملكة قد أوصته بي خيراً فوضع رجلاً من أمهر رجاله تحت تصرفي. ثُمَّ توجه ذلك الرَّجل إلى الريف واستولى على الصندوق.

ـ وأين هذا الصندوق الآن ؟

ـ في منزلي بفرساي.

ـ في أي حجرة ؟

ـ في قاعه الاستقبال. ويجب أن أخفيه، لأني أرى الآن أنَّ المسيو دي شارني الذي كان موعد حضوره غداً، سوف يحضر الليلة بسبب الحوادث الأخيرة، فيجب أن أخفى الصندوق قبل حضوره.

.. فقال "جيلبير" للملك:

ـ ها قد سمعت يا مولاي أنَّ الصندوق يخصني.

ـ أسرع بإيقاظها من فضلك وسأبعث بضابط من ضباط حرسي لإحضار الصندوق من بيت الكونتس.

ـ أفضل نقلها إلى جناح الملكة، وأن تترك حتى تستيقظ وحدها تجنبُاً لموقف محرج إذا أيقظتها الآن. وإني على استعدادٍ أن أطلع مولاي على الأوراق التي في الصندوق ليتأكَّد من أنَّها تتعلَّق بشرف سيِّدة واحدة هي الكونتس دي شارني.

ـ لا داعي لهذا. فالصندوق ملكك والأسرار التي فيه ملكك وحدك. وهل من خدمه بعد هذا أؤديها لك يا دكتور ؟

ـ التمس يا مولاي أن تقربني من جلالتكم حتى أتمكَّن من خدمتكم.

ـ ماذا تعنى ؟

ـ أتمنى أن أكون الطبيب الدائم لجلالتكم في الأمور العادية. فذلك يتيح لي الاتصال المستمر بجلالتكم

ـ موافقون. والآن مع السَّلامة ولا تنس تبليغ تحياتي إلى نكار.

.. فخرج "جيلبير"، وسمع الملك يصيح بلهفةٍ طالباً العشاء، فإن الحوادث والأحداث مهما جلت، لم تكن لتنسى جلالته عشاءه !!

## الفصل الثامن عشر

# طبيب الملك.. وتقرير المصير

## Doctor King .. and self-determination

انتقلت الكونتس "دي شارني"إلي جناح الملكة وهي نائمة تنويماً مغناطيسيًا وهو ما قرَّره الدكتور" جيلبير". فلما استيقظت الكونتس بعد أربعين دقيقه كما أمرها" جيلبير" روت لها ما فعله بها "جيلبير" من التنويم، فأثَّر ذلك على الملكة تأثيراً هائلاً، لأنَّ التنويم كان شيئاً جديداً جدًّا على العالم في ذلك الوقت، وانزعجت سريرتها الملكية انزعاجاً شديداً.

ثُمَّ لم تلبث أن عملت الملكة أنَّ " جيلبير" هذا قد عُيِّن طبيب الملك الخاصّ، كما علمت أنَّه بكتاباته كان سبب الثورة التي أسقطت الباستيل، فباتت ليلتها في حالة سيئة.. وهى تتصوَّر ذلك الطبيب في صوره وحش هائل. لأنَّه أضاع شرف "أندريه كونتس دي شارني" وقد كان عشيقاً لها وهو بعد غلام يافع، وهو مرعب لأنَّه عدو شديد المراس تسبَّب في سقوط الباستيل.

فكان من الضروري أن تعرفه كي تتحاشاه أو كي تستخدمه وتفيد منه. فلا بدّ

على كُلِّ حال من الحديث إلى ذلك الرَّجل واختباره عن قرب والحكم عليه حكماً شخصيًّا مباشراً.

وكان ثلاثة أرباع اللَّيل قد انقضى دون أن يغمض لها جفن، ثُمَّ غامت نظراتها في السَّاعة الثالثة واستولى عليها النعاس فنامت في مقعدها قرب النافذة المفتوحة. فحلمت أنَّها كانت تتمشى في حديقتها الأثيرة في قصر "التريانو"، ثُمَّ ظهر لعينيها بين أحواض الورد مخلوق خرافي يضحك في استهزاءٍ وسخريةٍ، وكان ذلك المخلوق الخرافي هو" جيلبير" الذي أخذ يمدّ نحوها أصابعه.

وصرخت الملكة صرخةً عالية. وأجابتها صرخةً أخرى قريبه منها. وكانت هذه الصرخة الأخرى صادره عن وصيفه الشرف مدام "تورزيل "التي كانت قد دخلت جناح الملكة في تلك اللَّحظة فلما سمعت صرختها وهى نائمة لم يسعها إلَّا أن تصرخ كذلك، ثُمَّ قالت:

ـ الملكة مريضه. هل أرسل في طلب الطبيب ؟

.. وفتحت الملكة عينيها، وسمعت عبارة مدام" تورزيل" الأخيرة فصادفت هوى في نفسها فانتهزتها فرصة، وقالت:

ـ نعم أريد طبيباً. الدكتور جيلبير، أرسلي في طلب الدكتور جيلبير.

ـ ومَنْ هو الدكتور جيلبير ؟

ـ طبيب الملك الجديد الذي عيَّنه بالأمس فيما أعتقد، وقد حضر أخيراً من أمريكا.

فقالت إحدى وصيفات الملكة التي كانت قد أقبلت مسرعة عندما سمعت صراخ مدام "تورزيل":

ـ أعلم مَنْ تعنى جلالة الملكة فهذا الطبيب موجود الآن في حجرة انتظار جلاله الملك.

.. فصاحت الملكة بشيءٍ من الدهشة:

ـ هل تعرفينه إذاً ؟

ـ نعم أعرفه.

ـ وكيف ؟ إنَّه وصل أخيراً من أمريكا ومنذ وصوله أُعتقل في الباستيل حتى أمس.

ـ ولكنى أعرفه.

ـ أجيبي على سؤالي بدقةٍ ووضوحٍ، أين تسنى لكِ أن تعرفيه ؟

ـ مولاتي.. عفوكِ. لقد قرأت كتبه. فأورثني ذلك رغبه شديدة في معرفه المؤلّف، فسعيت حتى أشاروا لي عليه.

ـ آه. ما دمتِ تعرفينه فأذهبي وقولي له أنَّ الملكة مريضه، وأنَّها تريد أن يحضر لفحصها.

.. وانطلقت الوصيفة كي تستدعى الطبيب، وأذنت الملكة لسائر سيِّدات الحاشية فدخلن الحجرة، وارتدت هي ثوباً مناسباً ورتبت شعرها المشعث في انتظار حضوره.

وإن هي إلَّا بضع لحظات حتى كانت رغبه الملكة" ماري أنطوانيت" قد أُبلغت إلى الدكتور "جيلبير" فأثارت لديه شيئاً من الدهشة الممزوجة بالقلق، ولكنَّه لم يُظهر شيئاً ممَّا يبطن وتوجه فقدَّم نفسه للملكة.

.. وكان تأثير دخوله عليها شديداً. فقد رأت فيه رجلاً غير طويل القامة. هادئاً. بسيط الملبس، رشيق الحركة. وراعها أنَّه لم يُعاملها عند دخوله بمراسم الخضوع التي تعودتها في البلاط . وأغاظها أكثر من ذلك أنَّ هذا العدو قد خيب ظنَّها في شكله. فقد كانت تتصوَّر أنْ يكون ذلك العدو العنيد الذي حطَّم "أندريه" ثُمَّ حطَّم الباستيل رجلاً عملاقاً، يهول بقوَّته الجسدية، ومظاهره الوحشية، فإذا به من أرق مَنْ عرفت في

حاشيتها من النبلاء حركة واتزان إشارة وحلاوة إيماءة. فرأت في ذلك داعياً جديداً للسخط عليه، فهو المخادع المتنكِّر في مظهر ليس من حقه أن يظهر به، وهو الفلاح، مغمور النسب، أبن الشَّعب وسليل العامَّة والدهماء.

.. وبنظرةٍ من عينيها صرفت الملكة جميع الحاضرات فتسللن بسرعةٍ. وانتظرت الملكة حتى أغلق عليهما الباب، ووجهت نظرها إلي "جيلبير"،فرأته مُثبتاً نظراته عليها. وكانت هذه الجسارة تضايقها وتغضبها، سيما لأنَّ نظره كان مُركزاً ثابتاً، فثقل عليها، غير أنَّها كتمت غضبها وقالت له بلهجةٍ قاطعةٍ أشبه ما تكون بطلقة مسدس:

ـ لماذا تقف هكذا مُحدقاً فيَّ، بدلاً من أن تسألني عمَّا أشكو منه ؟

.. فأجابها "جيلبير" بهدوء شديد جدًّا:

ـ مولاتي. عن طريق العيون ينبغي للطبيب الحاذق أن يبدأ امتحان مرضاه. لهذا كان نظري إلي جلالتكِ ليس لمُجرَّد فضولي، وإنما هو من فنون ممارستي مهنتي.

ـ وهل تراني مريضة ؟

ـ لا بالمعني الدقيق للكلمة. بيد أنَّ جلالتكِ تُعانين إرهاقاً عصبيًّا ناجماً عن الإفراط في القلق.

.. فأجابته "ماري أنطوانيت" في تهكمٍ:

ـ لماذا لا تقول بصراحة أنَّني في حالة انفعال وغضب ؟

ـ أرجو من مولاتي أن تسمح لي وقد استدعتني لأمارس مهنتي أن استخدم في التعبير عن أرائي المصطلحات الطبيَّة.

ـ ليكن إذاً. ولكن ما علّة هذا الإرهاق العصبي ؟

ـ جلالتكِ خير مَنْ يعلم أنَّ الطبيب يعرف العلّة بفحص الجسد. ولكنَّه ليس

ساحراً حتى يعرف من أوَّل نظرة ما يُسبِّب تلك الآلام الجسدية ممَّا هو مطوي في أعماق السريرة وطوايا الروح.

ـ من أوَّل نظرة ؟ أتريد بذلك أن توحي إليَّ أنَّك ربما استطعت في الزيارة الثانية أوالثالثة أن تخبرني، لا بعلتي فحسب، بل وكذلك بمكنون أفكاري وخواطري ؟

ـ قد يكون ذلك..

.. فبدا على الملكة أنَّها ترتجف غضباً من هذا الجواب الفاتر. وتعلقت على شفتيها كلمات حامية كالبراكين، ولكنَّها تمالكت غضبها، وقالت:

ـ لا بدّ لي من تصديقك، فأنت رجل عَالِم.

.. وأدرك "جيلبير" ما في عبارتها من تهكمٍ، بيد أنَّه تغاضي عمَّا سمعه، وقال:

ـ إنَّه لكرم عظيم من جلالتكِ أن تسبغي على صفة العلم، سيما أنَّكِ لم تلمسي بعد أي دليل على علمي.

ـ إنما أُردد ما سمعته عنك من الكافة.

ـ ولكن عقلاً ممتازاً كعقلكِ يا مولاتي لا ينبغي أن يردد أقوال العامَّة بغير تبصُّر أو برهان.

ـ أتعني بالعامَّة الشعب ؟

ـ بل أعني بالعامَّة مَنْ لا عقل لهم ولا علم من أي طبقة.

ـ دعنا من هذا الموضوع. يقولون إنَّك عَالِم. فأين تلقيت علومك ؟

ـ في كُلِّ مكان يا سيِّدتي.

ـ ليس هذا جواباً.

ـ إذاً لم أتعلم في أي مكان.

ـ إنما أردت أن تعين لي أسماء بعض الأماكن التي تلقيت فيها علومك.

ـ إنما قلت أنَّني تعلمت في كُلِّ مكان لأنَّني كنت استفيد من كُلِّ ما يقع تحت نظري في الحقل والطريق والكوخ والقصر، ومن النَّاس والحيوانات والحشرات، شأن مَنْ يُحبّ المعرفة ويتصيدها من كُلِّ منفذ.

.. فرمقته الملكة بنظرةٍ هائلةٍ، أمَّا هو فظلّ على نظرته الهادئة، فزاد اهتياجها حتى اضطرب ذراعها فوقعت المنضدة الصَّغيرة التي كان فوقها قدح الكاكاو. ورأى «جيلبير» سقوط المائدة وانكسار القدح، ولكنَّه لم يتحرَّك البتة، فتصاعد الدَّم إلى وجنتي "ماري أنطوانيت"، ورفعت يدها الباردة المبللة بالعرق إلى جبينها الملتهب، ولكنَّها لم تجسر بعد ذلك أن ترفع عينيها إلى وجهه، وإن ارتسمت على ملامح وجهها أمارات حقد واحتقار، ثُمَّ تابعت أسئلتها من حيث أوقفتها.

ـ وعلى يدّ أي أستاذ أخذت علمك الأساس ؟

ـ لست أدري كيف أجيب جلالتكِ على هذا السؤال دون جرح.

.. ووجدت الملكة في هذه العبارة منفذاً للهجوم عليه، فهجمت كالبركان.

ـ دون جرح ؟ أنت تجرحني أنا ؟ أنت تجرح ملكة ؟ لا شك يا دكتور جيلبير أنَّك تعلَّمت اللُّغة الفرنسيَّة في مدرسةٍ أقل مرتبة بكثير من تلك التي تعلَّمت فيها علوم الطب. إنَّ مَنْ كانوا في مثل مركزي لا يمكن أن يجرحهم إنسان يا دكتور جيلبير. كُلّ ما هناك أنَّك تستطيع أن تضايقهم، أمَّا أن تجرحهم فلا !

.. فانحنى الدكتور "جيلبير" ثُمَّ خطا خطوة نحو الباب دون أن تكتشف على وجهه أدني علامات الغضب أو نفاد الصبر، في حين كانت الملكة على العكس من ذلك تدق الأرض بقدمها غضباً، ثُمَّ قفزت من مكانها كمَنْ تُريد منعه من الخروج، ففهم مرادها، وقال:

ـ معذرةً يا سيّدتي لقد أخطأت حقيقة خطأً فاحشاً إذ نسيت أنَّني دُعيت كطبيب لعلاج مريضة. وأنا أعتقد أنَّ جلالتكِ تقترب بين بسرعةٍ من أزمةٍ عصبيَّةٍ. وأبيح لنفسي

أنْ أطلب إليكِ ألَّا تستسلمي لها وإلَّا أفلت من يدكِ الزمام. وخير ما تصنعين أن تهدئي وتسترخي، وترسلي في طلب إحدى وصيفاتكِ.

.. فجلست الملكة واصطنعت الهدوء، ثُمَّ قالت:

ـ هل أسمك جيلبير حقيقةً ؟

ـ نعم.. أسمي جيلبير يا سيِّدتي.

ـ عجباً ! إني أذكر حادثة من عهد شبابي الأوَّل لا شك أنَّها جارحة لك إذا أنا رويتها. ولكن لا أهمية لهذا لأنَّك تستطيع بحذقك وفنك أن تداوي ما يحدث لك من الجراح.

.. ثُمَّ ابتسمت الملكة في سخريةٍ وتهكم.

ـ هكذا يجب أن تبتسمي يا مولاتي، وأن تصرفي طاقتكِ العصبيَّة عن طريق السخرية والتهكم. فهذه من أحسن الوسائل التي يستخدمها الأذكياء للسيطرة على أعصابهم.

.. فلم تلق الملكة بالاً إلى الوصية الأخيرة، واستطردت كأنَّها لم تسمع شيئاً:

ـ وهذه الحادثة التي أشرت إليها كما يأتي.

.. فانحنى "جيلبير" إيذاناً بأنَّه مصغ، وحاولت الملكة أن تركز عليه نظراتها، واستطردت:

ـ لقد كنت في ذلك العصر السحيق ولية العهد، وكنت أسكن قصر التريانو. وكان في حدائقه غلام صغير أسمر اللَّون قذر، تغطيه الأوحال، مشعث الشعر، ممزق الثياب، يعمل في قطع الحشائش ونقل الفرائس والسماد وسائر الأعمال القذرة الحقيرة.

.. وسكتت الملكة لحظة عن عمدٍ، ثُمَّ قالت فجأةً:

ـ وكان اسم هذا الغلام جيلبير.

..فقال "جيلبير" بهدوءٍ تام:

ـ هو أنا شخصيًّا يا سيّدتي.

ـ أنت ؟ لقد كنت إذاً على حق، فلست عالماً وإنما أنت أفاق.

ـ إن ذاكرة جلالتكِ في غاية القوّة، وما دامتِ كذلك فلا بدّ أنَّها أيضاً تتذكَّر التواريخ وقد كان ذلك الذي ذكرته أيتها الملكة في سنة 1772 م ، ونحن الآن في سنة 1789 م ، فبين التاريخين إذاً سبعة عشرة عاماً هي أكثر ممَّا ينبغي لتحويل أي مُتشرِّد همجي إلى متحضر راق . فلا شك أنَّ جلالتكِ مخطئة في استنتاجاتها بصدد علمي، سيما أنَّني عاصرت في أمريكا ظروفاً هي أنسب ما يكون لتثقيف العقل وتنميته، وهي عهود الثورات وما فيها من نشاط الطبيعة الجامح الذي يكشف عن أسرارها ومكنوناتها. ولكن ولنترك هذا ولنعد إلي موضوعنا الأصلي، فلا أخبرتني يا صاحبة الجلالة لماذا استدعيتني إلى جناح جلالتكِ الخاصّ ؟

ـ أنَّك تزعم العلم وتصبو إلى شغل منصب الطبيب الخاص للملك، فيجب أن تفهم منذ الآن أيها السَّيِّد أنَّني أُعلق أهمية كبرى على صحَّة زوجي فلا يسعني مطلقاً أنْ أتركها بين يدي رجل لست واثقة منه كُلّ الثقة.

ـ إنَّ جلالة الملك قد قبل استخدامي بغير تردُّد. والواقع أنَّني طبيب سياسي، رشحني لمنصبي البارون دي نكار. أمَّا إذا أحتاج جلالته إلى مشورتي الطبية، فثقي أنَّني سأثبت من الجدارة ما لا أحد يستطيع أن يساوم عليها. وثقي أنَّني سأكون لجلالته لا طبيباً فحسب، ولا ناصحاً أميناً وكفى، بل صديقاً مخلصاً أيضاً.

.. فانفجرت الملكة في ثورة غضب جديدة، قائلةً:

ـ أنت ؟ أنت صديق للملك ؟

ـ بكُلِّ تأكيد. ولِم لا يا سيّدتي ؟

ـ طبعا، طبعاً، ما دمت ستستعين بعلومك السرية من التنويم والتهويم. فإنَّه يبدو لي أنَّك وقد تعلَّمت كُلّ شيء وفي كُلِّ مكان، قد تعلَّمت هذه العلوم السرية، فأصبحت قادراً على قراءة أسرار النَّاس وهم نيام. وهي أيها الصديق سرقة معنوية أخطر بكثيرٍ من سرقات الأموال المادية. فعن طريق ذلك النَّوم تسرق أرواح النَّاس حيناً، وتسرق أجساد بعضهن حيناً آخر.

.. فأدرك الدكتور "جيلبير" أنَّها تشير إلى حادثته القديمة مع" أندريه"، حين استولى على روحها وهو غلام ناشئ من أتباع "كاليسترو" عن طريق التنويم والإيماء.. فشحب وجهه شحوباً شديداً، ولاحظت الملكة ذلك فارتجفت فرحاً، فتماسك، وقال لها:

ـ سيِّدتي. كُلّ إنسان معرض للوقوع في الخطأ. وكُلَّنا نقترف في حق أخواننا في البشرية أخطاء جسيمة، فيجب أن يكون التسامح رائدنا في الحكم على النَّاس، وأن يكون نصيبنا من التسامح أعظم كُلَّما ارتفعت مكانتنا بينهم، لأنَّ ارتفاع المكانة يجعل المرء أقرب إلى إيذاء النَّاس دون أن يشعر لاتساع دائرة نفوذه وسلطانه. أليس الله أرحم الراحمين لأنَّه أقوى الأقوياء وأعلى الأعلياء. فكوني رحيمة ومتسامحة يا مولاتي.

ـ إنَّني أيها السَّيِّد أجلس على عرشي وأرى واجباتي في ضوء يختلف كثيراً عن وجهه نظرك. فأنا فوق هذا العرش لأُقدِّم الإثابة والعقاب علي حدٍّ سواء.

ـ ولكن أستميح مولاتي أن تذكر أنَّه لا حق لها في الحملة على التنويم المغناطيسي، وهي التي اختبرت أستاذي كاليسترو حينما كانت ولية للعهد، فأجرى بين يديها تجربة في حدائق التريانو تركت في نفسها أثرًا شديداً، حتى أغمى عليها من شدة التأثُّر.

ـ أجل أذكر هذا ولا أنساه، فقد جعلني أرى في منامي آلة موت عجيبة لم أسمع حتى الآن بوجود مثلها، فاقشعر لرؤيتها بدني.

ـ إنَّ المستقبل لا يزال غنيًّا بالاحتمالات يا مولاتي.

ـ خلاصة ما أريد أن أقوله لك أيها السَّيِّد، أنَّك ما دمت تعترف بالتلمذة على رجال يمتلكون أسرار خطيرة، ينبغي أن تكون على حذر وقد ارتفع بك القدر من غلام بستاني يعمل في الوحل إلى طبيب خاص يعاشر الملوك. وأنَّك ينبغي قبل أن تُفكِّر في معالجة الملك أن تُعالج نفسك لتغسل عنها خطايا ماضيك وآثام شبابك.

ـ اطمئني يا مولاتي فقد قضيت أعواماً طويلةً في تأمُّل نفسي وامتحان ضميري.

ـ ألم يهدك ضميرك إلى أنَّه من الخير لك ألَّا تقترب من البلاط، فليس البلاط هو المكان المناسب لمثلك ؟

ـ بالعكس يا مولاتي لقد هداني ضميري إلى أنَّني لست أقل جدارة بالحياة في البلاط من أي إنسان آخر، فكُلّنا بشر لهم أخطاؤهم. ولم أتعلَّم هذه الحقيقة من الكتب، بل من امتحان سرائر النَّاس.

ـ يبدو لي أيها السَّيِّد أنَّك أصبحت عالماً معصوماً.

ـ لا هذا ولا ذاك يا مولاتي، وإنما أنا رجل له معرفة واسعة بمصائب النَّاس وشقائهم. فنظرة واحدة إلى تلك الخطوط السوداء تحت عينيكِ، وتلك الأخاديد المُحيطة بفمكِ، تكفيني لكي أُقرِّر كم ثورة عنيفة من ثورات القلق والعذاب قامت في نفسكِ. وفي استطاعتي إذا ركزت نظري عليكِ أن اقرأ أفكاركِ ورغباتكِ، وأن أجعلكِ تشعرين بمقدار ما أستطيعه وبمبلغ ما يمكن أن تضعي في مَنْ ثقة.

.. وشعرت "ماري أنطوانيت" ببغضها له يتحوَّل إلى خوفٍ، فتراجعت إلى الوراء كمَنْ يتحاشى خطراً واهماً، ولاحظ ذلك، فأستطرد قائلاً:

ـ ولعلكِ الآن يا سيِّدتي قد بدأت تدركين أنَّه من السهولة بمكانٍ أن أقرأ مكنونات

فكركِ، تلك المكنونات التي تخفينها عن النَّاس وتخفينها عن نفسكِ أيضاً.إنَّه في وسعي أن أجعلكِ تستلقين الآن فوق هذا الكرسي بلا إرادة ولا وعي. ولكن يمنعني من ذلك اعتبار واحد هو أنَّني أخلص رعاياكِ لكِ وأشدهم ولاءً وخضوعاً، ولولا ذلك لجعلتكِ تسقطين صريعة كالمصعوقة تحت سلطان إرادتي. ولكنَّني من رعيتكِ قبل أن أكون رجل العلم والأسرار. وإني لأرتجف لمُجرَّد التفكير في إمكان اطلاعي على أفكار جلالتكِ، وأنَّه لأهون عندي أن أقتل نفسي بيدي من أن أُقدم على شيءٍ من ذلك. مع أنَّكِ يا سيِّدتي قد تسبَّبتِ في إلقائي في غياهب الباستيل، ومع أنَّكِ لا تأسفين على سقوط الباستيل إلَّا لأنَّ الشعب قد فتح أبوابه لي فخرجت وإني لأرى الكراهية واضحة في عينيكِ لرَجل لا يكن لكِ إلَّا كُلّ احترام. أراكِ تشكين في صدق قولي، حتى لتراودني نفسي أن أجعلكِ تكتبين على هذه المائدة التي أمامكِ أخفى أسراركِ، فتكون تحت يدي وثيقة بخط يدكِ تدمغكِ وتجعلكِ تحت رحمتي. ولكن كرم أخلاق الرَّجل الذي أهنتِه واحتقرتِه وأذيتِه لم يسمح له بشيءٍ من هذا.. هو عليه هين غير عسير.

ـ أكنت تُفكِّر في تنويمي وحملي على الكلام وأنا نائمة ؟ أنت ؟

ـ ما كنت لأبيح لنفسي هذا بغير شاهد يسجل أقوالكِ جميعاً.

ـ شاهد ؟ ومَنْ تراه يكون ذلك الشريك المتآمر ؟

ـ إنَّه لا يمكن أن يكون شريكاً متآمراً. فذلك الشاهد ما كان ليكون سوى جلالة الملك شخصيًّا.

ـ الملك ! آه يا مسيو جيلبير!

ـ الملك. زوجكِ وحاميكِ الطبيعي، فإنَّه ولا شك كان سيخبركِ بعد يقظتكِ بمدى ما وصلت إليه قدرتي العلمية بين يدي أكرم الملكات.

ـ بعد أن سمعت منك ما سمعت، لا بدّ أن تكون عدواً لدوداً وخصماً عنيداً أيها السَّيِّد.

ـ أو صديقاً حميماً يا سيّدتي.

ـ مستحيل. فالصداقة لا يمكن أن توجد مع الخوف والشك.

ـ بل مع الثقة والولاء. فلو كنت أضمر السوء ما صارحتكِ بأسلحتي ومدى قوّتها ووسائل استخدامها. ولكن ثقي أنّني لا أستخدم هذه الأسلحة للإيذاء بل للدفاع. وثقي أنّني سأكون أخلص النّاس لكِ، وأصدق مستشاريكِ. وكُلّ ما أتداول فيه مع الملك، سأصارحكِ به وأبحثه مع جلالتكِ بكُلّ إخلاص وصراحة.

ـ آه أيها السَّيّد. إنَّك وقد سيطرت على المرأة بطبك، تريد الآن أن تسيطر على الملكة بأرائك.

ـ كلا يا مولاتي. فلست متآمراً دنيئاً كما تظنين. ومرادي خدمة الملكية، وخدمة جلالتكِ شخصيًّا، لأنّني معجب كُلّ الإعجاب بصفاتكِ العالية وذكائكِ. ولهذا أريد أن أخدمكِ.. بل أنى استحلفكِ إذا كان الأثر الذي تركته في نفس جلالتكِ اليوم أثراً سيئاً، أن تصرفيني، فأمضي في سكون، دون أن أخبر الملك برحيلي. وأذهب بعيداً جدًّا، حتى تشعري جلالتكِ بالراحة والأمان.

.. فنظرت إليه الملكة بدهشةٍ وحيرةٍ.

.. وفي هذه اللّحظة سمعت وقع أقدام تقترب من الباب، فرفعت" ماري أنطوانيت" رأسها وأنصتت، ثُمَّ قالت:

ـ الملك. الملك قادم..

ـ إذاً أسرعي يا مولاتي. . هل أبقي أم اذهب ؟

ـ بل ابق !

.. فانحنى "جيلبير" شاكراً، ووقف في مكانه جامد الأسارير، في حين ازدادت خطوات الملك اقتراباً ..

## الفصل التاسع عشر

# إقناع الملكة بالأمر الواقع

*Convince the queen of the fait accompli*

دخل الملك حجرة الملكة بخطواتٍ سريعةٍ شديدة الواقع كما هي عادته في السير. وكانت تبدو عليه علامات الانشغال والتطلُّع، بخلاف الملكة التي كانت تبدو باردة كالثلج صارمة لا تتزعزع. وكان يستنشق الهواء العليل في قوَّةٍ، كأنَّه يتلذذ بصحَّته الجيدة مع أنَّه استيقظ مبكراً بعد أن نام في ساعةٍ متأخرةٍ.

.. وكانت أوَّل كلماته حين دخل:

ـ أين الدكتور؟ ماذا حدث للدكتور؟

.. فأجابه الملكة، قائلةً:

ـ طاب صباحك يا مولاي. كيف أصبحت ؟ أتشعر بتعبٍ شديدٍ ؟

ـ لقد نمت ست ساعات. وهو قسط واف. وأشعر أنَّني على ما يرام وأن ذهني صاف. أمَّا أنتِ فتبدين شاحبة يا سيِّدتي. وقد قيل لي أنَّكِ بعثت في طلب الطبيب.

ـ هذا هو الدكتور جيلبير ؟

وعندئذ برز "جيلبير" من فجوة نافذة كان قد توارى بها حتى تلك اللَّحظة، فانفرجت أسارير الملك، وقال:

ـ لقد نسيت. هل كنتِ متعبة جدًّا حتى بعثتِ في طلب الدكتور؟

..فأحمر وجه الملكة احمراراً شديداً، فقال الملك:

ـ لقد أحمر وجهكِ.

.. فزاد وجهها احتقاناً، فقال:

ـ هو إذاً سر آخر.

..فقالت الملكة في أنفةٍ واعتزاز:

ـ أي شر تعني يا مولاي ؟

ـ لم تفهمي مرادي. إنما عنيت أنَّ لكِ أطباءكِ الخصوصيين المفضلين لديكِ. فما كنتِ لترسلي إلى الدكتور جيلبير إلَّا إذا كنتِ قد أردتِ...

ـ أردت ماذا ؟

ـ إنَّكِ دائماً ترغبين في إخفاء أمراضكِ عني. ولكن حذار ! فإن الدكتور جيلبير من أصدقائي الحميمين فإذا قلتِ له أي شيء فإنَّه حري أن يطلعني عليه بحذافيره.

.. فابتسم الدكتور "جيلبير" عندئذ، وقال:

ـ أمَّا هذا يا مولاي فلا !

ـ إذاً فالملكة تفسد علىَّ رجالي.

..فأطلقت الملكة "ماري أنطوانيت" ضحكة من ذلك النوع الذي لا يدل على السرور والمرح وإنما على الرَّغبة في تبديل الحديث فحسب. وقد أدرك "جيلبير" ذلك، أمَّا الملك فلم يدركه، واستطرد قائلاً:

ـ هيا يا دكتور وأخبرني ماذا كانت تقول لك الملكة ؟

فكانت الملكة "ماري أنطوانيت" هي التي أجابت قائلةً:

ـ لقد كنت أسأله لماذا أرسلت في طلبه في هذه السَّاعة المبكرة. فمَّما لا شك فيه أن حضوره إلى القصر في هذه السَّاعة قد أزعجني.

.. فقال الملك في وجومٍ:

ـ لقد كنت انتظر حضور الدكتور لنتحدَّث معاً في السياسة.

ـ آه. شيء عظيم !

.. ثُمَّ جلست فوق مقعد جلسة مَنْ تستعد للإصغاء. أمَّا الملك فقال للدكتور وهو يتجه نحو الباب:

ـ هيا يا دكتور.

.. فانحنى الدكتور "جيلبير" انحناءة عميقة للملكة، وهمَّ أن يتبع الملك، غير أنَّ الملكة صاحت في دهشةٍ مستنكرةٍ:

ـ إلى أين أنتما ذاهبان ؟ أتتركاني هكذا ؟

.. فقال الملك كأنَّه يعتذر:

ـ الواقع يا سيِّدتي أنَّنا سوف لا نتحدَّث في أمور مبهجة، فمن الخير أن نجنبكِ هذا العناء.

ـ وهل تسمي اهتمامي عناء ؟ أرجو أن تبقيا هنا. تلك رغبتي. ولا أعتقد أنَّك ستعصياني يا مسيو جيلبير.

.. فقال الملك:

ـ إنَّ المسألة بالذات تتعلَّق بالدكتور جيلبير. فالمفروض أنَّه سيحدَّثني ويُشير علىَّ بكُلِّ صراحة وبغير تحرُّج، ولكنَّه في حضوركِ سوف لا يفعل ذلك بحُريَّةٍ تامَّةٍ.

ـ هل أستطيع أن أستنتج من ذلك أن الدكتور جيلبير حين يتحدَّث بحُريَّةٍ تامَّةٍ لا بد أن يبدي من الآراء ما يغضبني ؟

ـ هذه مسألة مفهومة بالبداهة يا سيِّدتي. فإن لكِ كما تعلمين خطة سياسية خاصَّة، ليست في جميع الأحوال خطتنا نحن، ولهذا اقتضت إرادتنا أن نتيح له الحُرِّيَّة التامَّة.

ـ وبعبارة أخري أنَّ المسيو جيلبير له خطة سياسية تتعارض مع خطتي على طول الخط.

..وعندئذ تدَّخل "جيلبير" في الحديث،فقال:

ـ لابد أن يكون الوضع هكذا يا مولاتي، لأنَّ آرائي ونظرياتي غير مجهولة لجلالتكِ. ولكن لتتأكَّد مولاتي أنَّني حري أن أقول الصدق بكُلِّ حُريَّةٍ وصراحةٍ في محضرها وفي غيابها على السواء.

ـ هذا سلوك طيب على كُلِّ حال.

.. فقال الملك:

ـ إنَّ الصدق كما تعلمين طيب دائماً.

ـ سيما حين يُقال بنيةٍ طيبةٍ وقصدٍ جميلٍ.

ـ هو ما تقولين يا سيِّدتي. ولهذا أستحسن أن تتركي للدكتور جيلبير كامل الحُرِّيَّة في الإدلاء بآرائه.

..فقال "جيلبير" مقترحاً:

ـ ما دامت جلالة الملكة تريد أن تعرف الحقائق بصراحةٍ، وما دامت جلالتها كما أعرفها جيداً ذات عقل راجح ذكي وقلب قوّي شجاع، فأنَّها لن تخشى الحق ولن تكره مواجهته، ولهذا أُفضِّل الكلام بحضورها.

ـ بل إنَّني جيلبير ألتمس هذا يا صاحب الجلالة.

..فعقَّب "جيلبير" على ألتماس الملكة، بقوله:

ـ سيما أنَّ الموضوع يهم جلالة الملكة كثيراً، لأنَّه يتناول سعادة ومجد جلالة الملك.

ـ ليكن إذا. وإن كان الموضوع دقيقاً جدًّا، بحيث سأشعر بالحرج لوجودكِ معنا أثناء الحديث.

..فأظهرت الملكة ما ينم عن ضيقها وضجرها، ثُمَّ وجهت الكلام إلى الدكتور" جيلبير"، قائلةً:

ـ تكلم يا سيِّدي.. ما هي المسألة ؟

ـ المسألة بكُلِّ صراحة وعلى وجه التحديد أنَّني جئت في هذه السَّاعة الباكرة في الصباح لأشير على جلالة الملك بالانتقال إلى مقر مُلكة بباريس.

..فلو أنَّ شرارة انقضت على الثمانية آلاف رطل من البارود التي كانت في أقبية دار البلدية لما كان لها من الدوى والانفجار المزلزل مثل الذي أحدثته هذه الكلمات المعدودات في قلب الملكة "ماري أنطوانيت"، فقد تنمرت وتنكرت وصرخت كالمصروعة:

ـ الملك ينتقل إلى باريس ! الملك !

.. فلم يسع الملك إلَّا أن يقول:

ـ أرأيت ؟ ألم أقل لك يا دكتور؟

.. واستطردت الملكة قائلةً:

ـ الملك ! في وسط المدينة المُتمرِّدة ؟ الملك بين هؤلاء الغوغاء حملة الفؤوس والمناجل ؟ الملك بين هؤلاء القتلة والسفاحين الذين ذبحوا الحامية السويسرية

وقتلوا مسيو دي لوناي، و مسيو دي لوم، و مسيو دي فليسيل ؟ الملك يجتاز ميدان البلدية خائضاً في دماء الذين استشهدوا دفاعاً عنه وعن شرفه وكرامة عرشه ؟ لا بد أنَّك فقدت عقلك وفقدت التمييز بين الخبيث والطيب حتى خطر لك مثل هذا الرأي الفاسد. نعم ! وأكرِّرها ثانية وثالثة ورابعة: أنت مجنون !

.. فغض الدكتور "جيلبير" بصره كمَنْ يستعين بشعور الاحترام لكبح عواطفه ولم يجبها بكلمةٍ واحدةٍ. أمَّا الملك فراح يتململ في مقعده كأنَّه جالس على آلةٍ من آلات التعذيب. واستطردت الملكة:

ـ أمن الممكن أن تخطر مثل هذه الفكرة لعقلٍ ذكي. أو لقلب فرنسي صميم، ماذا أيها السَّيِّد ؟ ألم تتبيَّن أنَّك إنما تُخاطب خليفة القديس لويس، لويس التاسع بطل الحروب والإيمان والفداء، وحفيد الملك الشمس لويس الرابع عشر؟

.. وكانت الملكة تدق البساط بقدميها في اضطرابٍ، وهي تقول في صوتٍ مرتجفٍ كأنَّه بركان يقذف بالحُمم:

ـ ولستُ أعتقد أنَّك ترمي بهذا الاقتراح إلى حرمان الملك من حماية حرسه ومعنوية جيشه، وأنَّك تريد أن تستدرجه من قصره وهو بمثابة القلعة الحصينة، كي تدعه وحيداً أعزل مُجرَّداً من الحماية لضربات أعدائه المأفونين وخصومه الموتورين. ولا أحسبك فيما أعتقد تريد أن ترى ملكك مقتولاً كما قُتل بالأمس رجاله المخلصون يا مسيو جيلبير.

ـ لو أنَّه خطر لي يا صاحبة الجلالة أدنى شك في أنَّكِ تؤولين مشورتي على محمل الخيانة والغدر، لما غفرت لنفسي ذلك قط. ولكن شكرا لله يا سيِّدتي، فأنتِ لا تظنين بي هذا الظن. فإني إنما جئت في هذه السَّاعة كي أُقدِّم للملك المشورة التي أعتقد أنَّها الصواب، بل أنَّها أصوب الآراء في هذا الموضوع.

.. فضمت الملكة قبضة يدها فوق صدرها في عنفٍ، وهز الملك كتفيه في حركةٍ تدل على الضيق الشديد ونفاد الصبر، ثُمَّ قال:

ـ ولكن بحق السماء يا سيِّدتي استمعي إلى حججه، ولدينا متسع من الوقت للرفض واللَّوم والثورة بعد أن ينتهي من بيانه.

..فقال "جيلبير" بهدوءٍ تامٍ:

ـ إنَّ جلالة الملك على حق يا مولاتي. فجلالتكِ تجهلين تمام الجهل ما أنوي أن القيه على مسامع جلالتيكما. فأوَّلاً، أنتما تظنان نفسيكما مُحاطين بجيشٍ قوي مخلص لقضيتكما ومستعد كُلّ الاستعداد للموت في سبيلكما، وهذا خطأ. فنصف الفرق الفرنسيَّة تتآمر مع الثوار لتنفيذ المآرب الثورية.

..فصاحت الملكة بحدةٍ:

ـ حذار يا سيَّدي ! فأنت تهين الجيش !

ـ بالعكس يا مولاتي، فأنا من أشد أنصاره تحمُّساً ومن أكثر مادحيه إخلاصاً، فمن الممكن جدًّا أن يحترم الإنسان ملكته، ويخلص الولاء لمليكه، وأن يكون في الوقت نفسه مُحبًّا لوطنه ومُخلصاً للحُرِّيَّة.

.. فرشقته الملكة بنظرةٍ ملتهبةٍ كأنَّها وميض البرق، وقالت:

ـ إنَّ هذه اللُّغة أيها السَّيِّد ...

ـ لا شك يا مولاتي أنَّ لُغتي تضايقكِ. فإني مقدر ذلك تمام التقدير، لأنَّ جلالتكِ على الأرجح تسمعين هذا الكلام لأوَّل مرَّة.

.. فغمغم الملك قائلاً:

ـ يحسن أن نروض أنفسنا على سماع هذه اللُّغة منذ الآن.

.. فصرخت "ماري أنطوانيت" قائلةً:

ـ مستحيل، مطلقاً.

ـ اسمعي. هيا نصغي لما يقول الدكتور، فإنَّه يُخيَّل إليَّ أنَّ كلامه حافل بالحقائق جدير بالإصغاء.

.. فجلست الملكة وهي ترتعد غضباً. واستطرد «جيلبير»:

ـ كنت بصدد أن أقول يا مولاتي أنَّني شاهدت باريس وقد درستها وتفحصتها، وأن جلالتكِ لم تزوري ولو فرساي مثل هذه الزيارة. فهل تعلمين يا مولاتي ماذا تُدبِّر باريس في الوقت الحاضر؟

.. فقال الملك في لهفةٍ شديدةٍ:

ـ كلا. لا نعلم .

.. وقالت الملكة في ازدراءٍ:

ـ ألعلهم يفكرون في الاستيلاء على الباستيل مرَّة أخرى ؟

ـ كلا ولا شك يا مولاتي.. ولكن باريس تعلم أنَّ ثمَّة قلاع أخرى تقف حائلاً بين الشعب وبين مليكه، ولهذا تُفكِّر باريس في جمع نواب أقسامها الثمانية والأربعين وإرسالهم وفداً إلى فرساي.

.. فصاحت الملكة في لهجةٍ تنم عن الفرح الوحشي:

ـ دعهم يأتون ! دعهم يأتون ! وما أحسن ما سيستقبلون به هنا.

ـ مهلاً يا سيِّدتي. فإنَّ هؤلاء النواب لن يأتوا وحدهم.

ـ مع مَنْ إذاً سيأتون ؟

ـ سيأتي معهم حرس وطني قوامه عشرون ألفاً.

ـ حرس وطني ؟ أي شيء هذا ؟

ـ تمهلي يا مولاتي ولا تتحدَّثي باستخفافٍ عن ذلك الحرس فإنَّه سيغدو يوماً ما قوّة بيدها الحل والعقد.

.. أما الملك فصاح في تعجبٍ:

ـ عشرون ألف رجل !؟

.. فقالت له الملكة:

ـ ولو كانوا عشرين ألفاً، أو ثلاثين، فما يضيرك ولديك هنا عشرة آلاف يقومون بمئة ألف من هؤلاء المُتمرِّدين. فليأت العشرون ألفاً من المُتشرِّدين فإنَّهم سيجدوا هنا عقاباً يردعهم ويجعلهم أمثولة وعبرة لهؤلاء الثوار الذين لو كنت قد أخذت بنصيحتي لسحقتهم في أسبوع واحد.

.. فهز "جيلبير" عندئذ رأسه في أسفٍ، وقال:

ـ آه يا سيِّدتي. كم تخدعين نفسكِ بالأباطيل. بل كم خدعكِ الآخرون ! فهل فكَّرتِ يا سيِّدتي في عاقبة هذا الرأي الذي تقترحين ؟ إنَّها الحرب الأهلية، تثيرها الملكة. ولم يحدث هذا الأمر من قبل إلَّا مرَّة واحدة، فصارت تلك الملكة مكروهة من الشعب إلى الأبد.

ـ أنا يا سيِّدي التي أثارت الحرب الأهلية ؟ أنا التي أطلقت النَّار على حصن الباستيل بغير تحرش او إثارة ؟

.. فتدخل الملك قائلاً:

ـ سيِّدتي. أصغي لصوت العقل بدلاً من الاحتداد الذي لا جدوى منه.

ـ بل قل أصغي للضعف !

.. فقطب الملك حاجبيه وقال بصرامةٍ وجدٍ:

ـ كوني هادئة يا أنطوانيت، وأصغي لما يقول الدكتور. فإنَّ حضور عشرين ألفاً إلى فرساي ليس مسألة هينة. تكلم يا دكتور جيلبير.

ـ أرجو يا مولاتي أن تدفني هذه الأحقاد من الجانبين، وأن توفري على جلالة الملك وعلى جلالتكِ عناء مشاهدة هذه الحرب الأهلية. إنَّ الجماهير تزحف الآن إلى فرساي لأنَّها تريد ملكها، وفي وسع الملك أن يطفئ أحقادها بأن يتقدَّم نحو هذه الجموع بابتسامة محبَّة، ويبرهن على أنَّه ليس محتمياً بجيشه من شعبه، بل هو واثق بشعبه مستغن بحُبّة عن كُلّ جيش. فمثل ذلك العمل السياسي البارع يكسب الملك محبَّة الجميع. فالاحتكام إلى القوَّة قد ينتهي بتغلُّب العشرين ألفاً على الملك وجيشه، في حين أنَّ الملك وحده يستطيع أن يغلب العشرين ألفًا ويكسبهم، وذلك أحسن وأولى، لأنَّهم يا مولاتي شعبه قبل كُلّ شيء.

.. فلم يسع الملك أن يكتم إشارة موافقة، لحظتها الملكة على الفور، فصرخت في وجه "جيلبير":

ـ أيها التعس ! ألست تتبيَّن تأثير وجود الملك في باريس تحت ضغط هذه الظروف ؟

ـ أفصحي يا مولاتي.

ـ إنَّ معنى ذهابه إلى باريس الآن يعني أنَّه يقر ما حدث، ويبارك سفك دماء السويسريين والسَّادة المخلصين. ومن ذا الذي سيُقدم بعد ذلك على الوقوف في صف الملك أو الدفاع عنه وهو يعلم أنَّ دمه سيذهب هدراً وأن الملك سيبارك قاتليه. إن ذهاب الملك إلى باريس أيها التعس بمثابة نزول عن العرش باختياره.

ـ كلا يا سيِّدتي. جلالتكِ مخطئة. بل إن معنى ذهاب الملك إلى باريس الآن لقد كان الشعب معذوراً في غضبه، ولهذا جئت أمنحه غفراني، فأنا رأس الأمة لأنَّني الملك، وأنا بهذا الوصف في مقدمة الثورة الفرنسيَّة الإصلاحية، لأنَّ مصلحة الأمة

غايتي وهدفي، وقوادكم ضباطي، وحرسكم الوطني جنودي، ونوابكم رجالي. فأنا وأنتم شيء واحد لا يتجزأ."

.. فقال الملك في لهجةٍ حزينةٍ:

ـ لقد أصاب ...

.. فصاحت الملكة في حنقٍ وذعرٍ:

ـ بحق السماء لا تصغ لهذا الرَّجل، فهو عدوك.

ـ سيِّدتي. إنَّ جلالة الملك سيقول لكِ الآن رأيه بصراحةٍ فيما عرضته عليه.

.. فصرخت "ماري أنطوانيت":

ـ الحقيقة ؟ ما هذا الذي تقول ؟

.. فقال "جيلبير :"

ـ نعم يا مولاتي، هي الحقيقة، والحقيقة وحدها هي التي تستطيع أن تنقذ المَلكة من الهاوية السحيقة التي توشك أن تتردى فيها.

.. وانحنى "جيلبير" بخضوعٍ حتى كاد يلمس ركبتي "ماري أنطوانيت".

ولأوَّل مرَّة بدأ على الملكة التأثُّر الشديد، فهل كان ذلك لما سمعته من الحجج، أو لمَّا بدا من تواضع الدكتور "جيلبير" ؟

أمَّا الملك فنهض من مقعده وقد بدت على محياه دلائل الحزم والعزم وراح يُفكِّر في كيفية تنفيذ مشروع الدكتور "جيلبير".

بيد أنَّ للعادة حكمها. وقد تعود "لويس السَّادس عشر" ألَّا يُقدم على شيء خطير أو هين إلَّا بعد استشارة الملكة. فقال لها:

ـ سيِّدتي. هل توافقين على الفكرة ؟

ـ يبدو لي أنَّه لا بد من هذا.

ـ لست اطلب منكِ تسليماً.

ـ ما الذي تطلبه مني إذاً ؟

ـ أطلب منكِ اقتناعًا يقوي اقتناعي.

ـ أتسألني رأيي إذاً ؟ إذا كان الأمر كذلك، فإنَّي مقتنعة بأن الوقت فيما يبدو قد حان كي تغدو المَلكية أتعس وأهون منصب يشغله إنسان في العالم.

ـ أنتِ تبالغين. قد تكون المَلكية متعبة، أمَّا أن تكون مهينة فذلك هو المستحيل.

ـ سيِّدي، لقد أورثك أجدادك الملوك تركة محزنة.

ـ أجل تركة يحزنني أن ابتليتكِ بمشاركتي إياها يا سيِّدتي.

.. وعندئذ تدخل "جيلبير" في الحديث، قائلاً:

ـ أرجو يا مولاي أن تسمح لي بالكلام. فلستُ أرى ثمَّة داعياً على الإطلاق كي تنظر جلالتكم إلى الأمور بهذا المنظار القاتم الذي يملأ القلب رعباً، فلئن انتهى عهد المَلكية المستبدة المطلقة، فقد بدأ عهد الإمبراطورية الشورية الدستورية.

ـ وهل تظنني يا سيِّدي الرَّجل الكفيل بإقامة مثل تلك الإمبراطورية في فرنسا ؟

.. فقالت الملكة وقد شجعتها كلمات" جيلبير":

ـ ولم لا يا مولاي ؟

ـ سيِّدتي. إني رجل سليم العقل أُحبّ أنْ أرى المسائل بوضوح. وإني موقن أنَّه متى أُنزلت من علياء المَلكية المطلقة، ونزعت عني هالتها، سيراني النَّاس بشراً عادياً، وستفارقني القوَّة التي كانت تكفل لي الثقة بنفسي فكانت مصدر قدرتي على حكم فرنسا، ثُمَّ ماذا يريد الفرنسيون الآن ؟ إنَّهم يريدون سيِّداً. وأنا أشعر أنَّني ليس باستطاعتي إلَّا أن أكون أباً. وماذا يُريد الثوار ؟ يريدون سيفاً ولهباً. وأنا أشعر أنَّه ليست لديَّ القوَّة الكافية كي أضرب وأحسم.

.. فصاحت الملكة:

ـ أنت تشعر أنَّه ليست لديك القوَّة كي تضرب وتحسم، كي تضرب شعباً يُبدِّد تراث أبنائك، وينتزع عن جباهنا وعن جبينك أنت درر تاجك.

ـ عزيزتي أنطوانيت. لو أنَّكِ كنتِ زوجة مواطن عادي، لما رأيتِ هذا الرأي.

ـ ولكني لستُ زوجة مواطن عادي.

ـ ولهذا أعذركِ في تعصُّبكِ ضد الثوار. ولكن ليس معنى هذا أنَّني أوافقكِ على وجهة نظركِ. كلا يا سيِّدتي. يجب أن تذعني للأمر الواقع، فقد ارتقينا عرش فرنسا في عهد قلق عاصف، فكان من الواقع أن ندفع أمامنا عوامل الثورة ونوجهها ونستخدمها، لو أن لدينا القوَّة الكافية لذلك. ولكن ليست لدينا واأسفاه هذه القوَّة.

ـ وهذا أسوأ.لأنَّ الثورة ستنصب على عاتق أولادنا من بعدنا.

ـ ربما. ولكن علينا ألَّا نزيدها لهيباً واشتعالاً.

ـ ولكن لا تنس أنَّه في وسعنا أن نعوقها.

.. فصاح "جيلبير" كمَنْ يتنبأ:

ـ حذار يا سيِّدتي، فأنَّكِ إذا عوقتها أو وقفتِ في سبيلها سحقتكِ.

ـ أيها السَّيِّد. إني أرى أنَّك تذهب بصراحتك في المشورة بعيداً.

ـ سألتزم جانب الصمت يا سيِّدتي.

.. فقال الملك:

ـ بحق السَّماء اتركيه يتكلم. وأولى أن تشكريه لأنَّه لا يخفي عنا الحقيقة.

.. فسكتت "ماري أنطوانيت " لحظةً، ثُمَّ تنهدت، وقالت:

ـ سألخص الموقف، أو بعبارة أدق سأعيد ما قلت. فإني أرى ذهاب الملك باختياره إلى باريس بمثابة إقرار لكُلِّ ما حدث ما فيها.

.. فقال الملك ببساطةٍ:

ـ نعم. أدرك هذا الإدراك.

ـ وفي ذلك ما فيه من التحقير والتخلي عن جيشك، ذلك الجيش الذي يستعد الآن للدفاع عنك.

.. فقال الدكتور "جيلبير":

ـ إنَّها خطوة نحو حقن الدَّم الفرنسي.

ـ لعلَّها تُفسَّر بأنَّه لا معنى بعد الآن للإقدام على أعمال العنف.

..فتهلل "جيلبير"،وقال:

ـ أعتقد يا سيِّدتي أنَّكِ قد تفضلتِ فأقررتِ بأنَّني قد تمكَّنت من إقناعكِ.

ـ الواقع أنَّني أشعر كأن جانباً من النقاب قد انكشف أمام عينيَّ. ولكني أصدقك القول أنَّني كنت أُفضِّل أنْ أظل عمياء، ولا أرى إلَّا تلك الصور الفخمة التي عودتني إياها تربيتي وتقاليد بيتي وتاريخه. إني أُفضِّل ألف مرَّة أن أرى نفسي ملكة مُتعالية علي أن أشعر أنَّني أمّ لشعبٍ يكرهني ويهينني.

.. فصاح الملك مذعوراً سيما أنَّ وجهها كان شديد الشحوب:

ـ أنطوانيت ! أنطوانيت.

.. وأشار بعينيه لينبه "ماري أنطوانيت" إلى وجود الدكتور، فقال:

ـ كلا.. كلا سأتكلم. فهذا السَّيِّد يعرف ما كنت سأقول. بل إنَّه يعرف جميع أفكاري فلماذا أكتم ما بنفسي. وأني أشعر بذعر لأنَّك ستتركني وتذهب، وأكاد أراك كذلك الأمير الذي تروي قصَّته الأساطير الألمانية، ستذهب إلى غير عودة.

ـ ولماذا يا سيِّدتي ؟ أنى ذاهب بكُلِّ بساطة إلى باريس.

ـ أتظنني مخبولة ؟ أنت ذاهب إلى باريس هذا صحيح. ولكن مَنْ يدريك أنَّ

باريس ليست هي الهاوية ؟ مَنْ يدريك أنَّك سوف لا تتعرَّض وأنت في وسط الزحام بطعنة خنجر أو طلقة غادرة ؟

ـ لا داعي للخوف والقلق من هذه الجهة. فإن شعبي يحبني.

ـ لا تقل هذا يا مولاي، وإلَّا أثرت شفقتي عليك. فهل مَنْ يحبونك يقتلون رجالك المخلصين ؟ لقد كان حاكم الباستيل يمثلك فقتلوه. ومَنْ قتلوا دي لوناي أحرى بهم أن يقتلوك لو أنَّك كنت في مكانه، بل إن قتلك أسهل من قتل دي لوناي بكثير، لأنَّهم يعرفونك ويعرفون أنَّك لن تدافع عن نفسك، بل ستعري صدرك لهم.

ـ وماذا في ذلك ؟

ـ وأطفالي !

.. وعندئذ رأى "جيلبير" أنَّه يحسن به أن يتدخل في الحديث، قال :

ـ ثقي يا مولاتي أنَّ الملك سيكون موضع كُلّ رعاية واحترام في باريس. وأنَّ وجوده بين الجماهير سيسبِّب نشوة حماسة، بحيث أن أعظم ما أخافه عليه ليس هو القتل، بل كثرة من سيلقون بأنفسهم تحت حوافر جياد مركبته. إنَّ ذلك الزحف السلمي إلى باريس سيكون نصراً عزيزاً للملك يا مولاتي.

ـ وهل تصدق هذا الكلام يا مولاي ؟

ـ إني أوافق الدكتور على وجهة نظره.

ـ وأظنك متلهفاً يا مولاي علي ذلك النصر العزيز !

ـ أحسب أن المبادرة به خير من الانتظار حتى يطلب مني الحضور.

ـ ومع هذا فأراني مضطرة إلى طلب تأجيل رحيلك إلى الغد وأقسم لك أنَّني لن أعارض بعد ذلك في رحيلك إلى باريس.

ـ يومٌ ضائعٌ. أربع وعشرون ساعة كلمة تذهب هباء.

ـ لا بد من هذا يا مولاي.

ـ السبب. السبب ؟

ـ لا سبب يا مولاي سوى دموعي وتوسلاتي.

ـ ولكني أخشى في سحابة ذلك اليوم أن ترسل إلى الجمعية الوطنية مطالبة بانتقالي إلى باريس، فيبدو انتقالي بعد ذلك خضوعاً لا عملاً من تلقاء نفسي.

ـ وذلك أحسن من كُلِّ وجه، لأنَّك حينئذ ستضطر للرفض، والى أثبات نفوذك الملكي وهيبتك وسلطانك، فإذا كان لا بد من حربٍ فلنحارب هنا، ولنمت ملوكاً أعزة كراماً، مؤمنين بالله واثقين بالذي بيده مقاديرنا ومنه تسلمنا شعائر الملك ومسؤولياته.

.. وكانت الملكة ترتجف وهي تتكلم كمَنْ بها حُمى، فأدرك الملك أنَّه لا جدوى من المقاومة ولا مفر من النزول عند رغبتها، فقال:

ـ لكِ ما تريدين إذاً. ولكن خبريني بالله ما علَّة هذه المهلة ؟

ـ ثق بي ولا تسألني.

ـ أهناك مؤامرة أو مدَّد عسكري منتظر أو شيء من هذا القبيل ؟

ـ لا شيء من هذا.

ـ إذاً في المسألة سر ؟

ـ أجل. سر امرأة قلقة لا أكثر.

ـ بل قولي نزوة.

ـ هي نزوة إن شئت.

ـ ونزوات المرأة التي تُحبّ هي القانون الأعلى. إلى غدٍ إذاً. وهل تستبقين الدكتور؟

ـ كل..ا كلا.

ـ سآخذه معي إذاً.

.. وانحنى "جيلبير" للملكة فردت تحيته برقةٍ، ثُمَّ تبع الملك نحو الباب. وقال له الملك وهما في الدهليز:

ـ يبدو لي يا مسيو جيلبير أنَّ علاقتك بالملكة صارت طيبة.

ـ الواقع يا مولاي إن هذه نعمة أُدين بها لجلالتكم مدى الحياة.

وأرسلت الملكة في طلب مدام "دي كامبان". وأغلقت عليهما الباب في خلوةٍ فترة من الزمن فلم يعلم أحد ماذا دار بينهما.

وفي الصباح الباكر من اليوم التالي كانت الملكة أوَّل من ذهب إلى مخدع الملك وهو يرتدي ثيابه، فقدَّمت إليه شيئاً هو علة طلبها مهلة اليوم. وكان هذا الشيء صديري من الفولاذ الدقيق، هو أعجوبة من أعاجيب الصناعة، يلبسه تحت ثيابه ليحميه من الاغتيال.

## الفصل العشرون

# رحلة الملك إلي باريس

## King>s Trip to Paris

راح الملك يتأمَّل تلك الآية الفنيَّة، فلاحظ في موضع منها شيئاً من العطب الخفيف، فقال للملكة:

ـ ما هذا الذي أرى ؟

ـ هذا يا مولاي أثر رصاصة مسدس.

ـ أنتِ أطلقتِ مسدساً محشواً بالرصاص بيديكِ لتجربي الدرع ؟

ـ نعم وهذه هي الرصاصة يا مولاي، فأحتفظ بها تذكاراً وثق أنَّ حياتك في مأمن.

ـ أنتِ ملاكي الحارس.

.. وبيدين ثابتتين خلع الملك الدرع الواقي من حيث وضعته الملكة حول عنقه، ثُمَّ وضعه فوق المائدة الصَّغيرة، وهو يقول:

ـ يا الله كيف أُعبِّر لكِ عن شكري وامتناني ؟

ـ ماذا أنت صانع ؟

ـ لا .. وشكراً.

ـ أترفض ؟

ـ نعم أرفض.

ـ مولاي إنَّها حياتك الغالية.. أترفض معونة يسديها لك الله ؟

ـ كفى ! كفى !

ـ ولكنَّهم سيقتلونك.

ـ يا عزيزي ماري أنطوانيت. إنَّ النَّاس في هذا القرن الثامن عشر إذا كانوا من أهل النبالة والنسب لا يرتدون إلَّا أثواباً من القماش إذا خرجوا للقتال يقابلون بها رصاص البنادق. وإذ تبارزوا لم يجعلوا دون صدورهم إلَّا القمصان الرقيقة هي كُلّ وقائهم من أسنة السيوف. فكيف بي أنا رأس النبلاء في مملكتي أخرج لا إلى ميدان حرب ولكن للقاء رعاياي ومن دون صدري دروع الحديد ؟ شكراً لكِ أيتها الزوجة الوفية والملكة المخلصة ألف شكر.

.. ثُمَّ أتمَّ الملك زينته وكأنَّه لا يدرك مقدار ما أقدم عليه من بطولةٍ وشجاعةٍ، ثُمَّ غادر الجناح الخاص فوجد نفسه مُحاطاً بجميع رجال حاشيته الذين ندبوا لمرافقته في رحلة باريس، وعلي رأسهم السَّادة: " دي بوفو"، و"دي فيليروي"، و"دي ودتيان". أمَّا "جيلبير" فكان واقفاً في وسط الجميع.

.. وقال الملك أخيراً ليقطع كُلّ شك:

ـ سنسير أيها السَّادة بعد الإفطار.

.. ثُمَّ لمح "جيلبير" فقال له:

ـ أنت هنا يا دكتور؟ ستكون في صحبتي.

ـ رهن أشارتك يا مولاي.

ثُمَّ توجه الملك إلى مكتبه الخاص حيث شغل بالعمال ساعتين، وتوجه بعد ذلك فحضر القداس الباكر في كنيسة القصر على رأس حاشيته كُلّها، وفي نحو السَّاعة التاسعة جلس إلى مائدة الإفطار.

وتمت "عملية" الإفطار بالمراسم والطقوس الملكية المُعتادة. فيما عدا أنَّ الملكة كانت بعد حضور الصلاة محمرة العينين فأصرت على مجالسة الملك وهو يفطر ولكنَّها لم تشترك في الأكل. وكان إلى جوار الملكة طفلاها وقد بدا عليهما اضطراب شديد بسبب ما قالته لهم الملكة بلا شك، فكانا يمسحان دمعهما خلسة بين الحين والحين، وكان لذلك أثره القوي في الحاضرين فمنهم من رثى لهم مشفقاً، ومنهم من أخذته حمية الغضب، ولكن الجميع شعروا بالحزن بغير استثناء.

.. أمَّا الملك فأستمر في الأكل برباطة جاش وتجلُّد كأنَّه لا يلاحظ شيئاً. وكان يتحدَّث بين الحين والحين إلى" جيلبير" دون أن يرفع عينيه عن طبقه، وتحدَّث مراراً إلى الملكة بحنانٍ ورقةٍ وثباتٍ.

.. وقبيل انتهاء الإفطار دخل أحد الضباط فأعلن إلى جلالته أنَّ حفنة من النَّاس قادمين من باريس سيراً على الأقدام قد ظهرت طلائعهم عند نهاية الطريق الكبير المؤدي إلي ميدان السلاح.

فلما سمع الضباط الواقفون ذلك انطلقوا خارجين من الحجرة. أمَّا الملك فرفع رأسه ونظر إلى "جيلبير"، فلما رآه يبتسم استأنف طعامه صامتاً. وأمَّا الملكة فاكفهر لونها وهمست إلى مسيو "دي بوفو" راجية إياه أن يستطلع الأمر، فأسرع الرَّجل خارجاً، ثُمَّ اتجهت الملكة إلى النافذة فأطلت منها.

.. وبعد خمس دقائق عاد المسيو "دي بوفو"، فقال:

ـ مولاي. إنَّهم من الحرس الوطني. وقد حضروا من باريس عندما سمعوا فيها الإشاعة الرائجة أمس أنَّ جلالتكم تزمعون زيارة أهل عاصمتكم فاجتمع منهم عشرة

آلاف بنية الحضور إلى هنا كي يقابلونكم في الطريق كحرس شرف. فلَّما لم يصادفوا جلالتكم في الطريق أتموا سيرهم إلى فرساي راجلين.

.. فسأله الملك:

ـ وما قصدهم من ذلك ؟

ـ خير مقصد يا مولاي. إنَّه التأهيل والترحيب والتكريم.

..فصاحت الملكة بعصبيةٍ:

ـ أغلقوا الأبواب.. أغلقوا الأبواب..

.. فصاح الملك:

ـ إياكم أن تفعلوا. ويكفي إقفال باب بناء القصر. أمَّا أبواب الحدائق الخارجية فاتركوها مفتوحة على مصراعيها. ومر يا مسيو دي بوفو أن تُقدِّم المرطبات والفاكهة لهؤلاء الكرام الأفاضل.

.. فخرج مسيو "دي بوفو" لتنفيذ الأوامر، ثُمَّ عاد بعد قليل، وهو يقول:

ـ إنَّ الباريسيين يا مولاي مشتبكون في مناقشةٍ حاميةٍ مع رجال حرسك الملكي.

ـ مناقشة ؟ ماذا تعني ؟

ـ إنَّها مناقشة موضوعها الخلاف على آداب الضيافة والولاء. فأنَّهم وقد علموا أنَّ جلالة الملك سيرحل بعد ساعتين قد صمموا على انتظاره للسير وراء عربة جلالته.

.. فصاحت الملكة:

ـ ولكن هؤلاء السَّادة يسيرون على أقدامهم وجلالة الملك مسافر في عربةٍ تجرها الجياد السريعة، وجلالة الملك كما تعلم يسافر دائماً بسرعةٍ كبيرةٍ.. كبيرةٍ جدًّا.

.. وكانت لهجتها وهي تقول هذه الكلمات الأخيرة تعني أنَّها ترغب في أن يكون

سير عربة الملك سريعاً جدًّا حتى يبعد تمام البُعد عن الحرس الوطني الراجل، ولكن الملك أشار بيده منهياً الحديث، ثُمَّ قال:

ـ ستسير عربتي بخطوة المشي البطيء.

.. فتنفست الملكة عن غيظ مكتوم، وأستطرد الملك:

ـ غير جميل أن أحمل هؤلاء الأفاضل على الجري وقد أتوا من بعيد لتكريمي وتكوين حرس شرف لي. فيجب أن تسير مركبتي بخطوة المشي البطيء حتى يتمكَّن كُلّ واحد منهم من مرافقتي.

.. فارتفعت من بين الحاضرين أصوات الإعجاب بقرار الملك، ما عدا البطانة المُحيطة بالملكة بالطبع، فقد ظهر عليها الوجوم.

.. وفي هذه اللَّحظة فتح "جيلبير" النافذة الكبيرة لتجديد الهواء كما هو حقه بحكم وظيفته، ثُمَّ قال:

ـ إنَّ الحرس الوطني يا مولاي واقف تحت حرارة الشمس.

.. فقالت الملكة في تهكمٍ لاذعٍ:

ـ لقد سقيناهم المرطبات، ولم يبق إلَّا أن يدعوهم جلالة الملك لمشاركتهم الإفطار على مائدته الملكية.

.. أمَّا الملك فقال ببساطةٍ:

ـ يجب أن يدخلوا إلى مكان ظليل، في الدهاليز مثلاً.

.. فصرخت الملكة ثائرة:

ـ ما هذا ؟ عشرة آلاف رجل في الدهاليز ؟ كأنَّي بك تدخلهم إلى مخادع نومنا يا مولاي.

.. فقال "جيلبير" بصوتٍ عذب هادئ:

ـ إنَّ معهم عدداً كبيراً من الأطفال يا مولاتي. فكثير من أعضاء الحرس الوطني قد ألبسوا أولادهم ثياب الحرس الوطني وأحضروهم معهم باعتبار أنَّ اليَّوم من أيام الأعياد الكبرى التي يفرح بها الصِغار قبل الكبار، لأنَّ الجيل الناشئ في فرنسا شديد التعلُّق بهذا الجيش الوطني.

.. ففتحت الملكة فمها ولكنَّها لم تستطع أن تتكلم. أمَّا الملك فقال:

ـ إن مَنْ يحضرون معهم أطفالهم لا يضمرون السوء لرَّب أسرة، فأدخلوهم القصر ليشعروا بضيافة تلك الأسرة.

.. وبعد لحظة كانت الهتافات المدوية بحياة الملك تملأ القصر شكراً على لفتته الكريمة. ثُمَّ دخل "دي بوفو"، فقال:

ـ لقد حسم الخلاف يا مولاي بين الحرس الوطني والحرس الملكي. فجلالتكم ستختارون الترتيب الذي تريدون.

ـ أبلغ الحرس الوطني أن لهم الحُرِّيَّة في اختيار الموضع الذي يريدون في الموكب.

.. وفي هذه اللحظة دقت ساعة القصر العاشرة فنهض الملك متعجلاً السفر حتى لا ينفد صبر رجال الحرس الوطني. وعانقته الملكة في لهفةٍ شديدةٍ، ثُمَّ التفتت إلى رجال حاشيته المرافقين له وقالت:

ـ أيها السَّادة. إني أضع ثقتي وأملي فيكم.

.. فوضعوا جميعاً أيديهم على قلوبهم ومقابض سيوفهم، فابتسمت لهم شاكرة، ثُمَّ التفتت إلى الدكتور "جيلبير"، قائلةً:

ـ سيِّدي. لقد كنت صاحب اقتراح سفر الملك إلى باريس معارضاً بذلك رأيي. فأرجو أن تتدبر المسؤولية الجسيمة التي احتملتها أمام زوجته وبنيه، وأن ترد إليَّ الملك سالماً.

ـ سأفعل يا مولاتي. ولتكن رأسي رهينة سلامته بل ثقي أنَّه سيواجه نصراً ومجداً، لا خطراً وحقداً.

ـ أُريد أخباره ساعة بساعةٍ.

ـ أنا أضمن لكِ هذا.

.. ثُمَّ بدأ سير الموكب، ووجد "جيلبير" نفسه منفرداً في عربة الأمير" دي بوفو"، لأنَّ الأمير فضَّل أن يمتطي صهوة جواده ليسير محاذياً لعربة الملك وسيفه في يده. وضحك "جيلبير" من نفسه وهو يري نفسه راكباً عربية الأمير وعليها شعار إمارته. وسمع تعليقات أهالي باريس ورجال الحرس الوطني من حوله وقد عرفوا شعار العربة فحسبوا أنَّه الأمير. وفجأةً سمع صوتاً جعله يجفل. صوتاً يعرفه جيداً ويعرف لهجته الريفية:

ـ قسماً بقرون الشيطان ! ليس هذا أميراً ولا شبه أمير. إنَّ هذا إلَّا المسيو جيلبير .

.. وهجم العمّ" بيو" على العربية صائحاً:

ـ ماذا تفعل هنا في عربة أمير بحق الشيطان. تعال يا بيتو أسرع ونظر إلى المسيو جيلبير في عربة أمير.

وترجل "جيلبير" من العربة ومشى مع ذويه وأشباهه على قدميه في الموكب الحافل. وبعد بضع دقائق أقبل أحد الياوران يبحث عنه لأنَّ الملك أرسل في طلبه.

فتقدَّم "جيلبير" يفسح له الياور الطريق بين الجموع المختلطة من الرِّجال والنساء والأطفال، وهو يسير معتمداً على ذراع "بيو" لأنَّ "بيو" أبدى رغبة شديدة في رؤية الملك، وكان "بيتو" يسير من خلفهما متمنطقاً بسيفٍ طويل يجره من ورائه. فلما أبصر الملك الدكتور قال له متهللاً:

ـ أي جو بديع. وأي شعب رائع.

.. والحق أنَّ الحماسة كانت شديدة جدًّا حتى لقد دمعت عينا الملك تأثُّراً بها، ولاحظ "جيلبير" ذلك، فأجاب الملك قائلاً:

ـ أليس هذا ما وعدت مولاي به.

ـ وقد حقَّقت وعدك أتم تحقيق. ولكن يُخيَّل إليَّ أنَّنا نتقدَّم بسرعةٍ شديدةٍ قد تُجهد السائرين على أقدامهم.

ـ أؤكِّد لك يا مولاي أنَّه لا يمكن السير بأبطأ من هذا.

.. وكان "بيو" يكاد يأكل الملك وكلماته بعينيه وأذنيه، وصاح فجأة بصوت عال سمعه الجميع:

ـ لعمري وقد سمعت الملك ورأيته، إنَّه لرَجلٍ شريف.

.. قالها بحماسةٍ وسذاجةٍ، جعلت جميع الضباط ينفجرون ضاحكين. أمَّا الملك فابتسم وهز رأسه مراراً وهو يقول:

ـ هذا والله إطراء يعجبني.

..وكان صوت الملك عالياً بحيث يسمعه" بيو"، فأجاب:

ـ وحقٌّ لك يا مولاي أن تغتبط، فتلك صفة لا أضفيها على كُلِّ إنسان.

ـ وهذا ما يزيد اعتباطي بها.

.. ففاضت الحماسة على قلب" بيو"، فراح يصيح في شبه جذبة صوفية:

ـ عاش الملك ! عاش الملك ! عاش والد الشعب ! عاش أبو الأمة !

.. وكانت السَّاعة قد قاربت الثانية، وأصوات الهتافات المتباينة تصم الآذان، حتى لم يعد في استطاعة قائد الحرس الوطني أن يسمع أوامره.

.. وكان الملك يرتدي الشارة البيضاء فوق قبعته وهي شارة الملكة، أمَّا "بيو"

وسائر الباريسيين فكانوا يلبسون الشارة مثلثة الألوان. فلفتت ظاهرة الاختلاف نظر «بيو» فسأل "جيلبير":

ـ يا مسيو جيلبير. لماذا لا يلبس الملك الشارة الوطنية مثلثة الألوان مثلنا ؟

ـ لأنَّه يا عزيزي بيو إمَّا أنَّ الملك يجهل أنَّ هناك شارة جديدة، وإمَّا لأنَّه يرى أنَّ الشارة التي يلبسها هي التي ينبغي أن تكون شارة الأمة. ثُمَّ أنَّ شارة الملك بيضاء كما أن علم فرنسا أبيض. فلا لوم على جلالته في هذا الشأن.

ـ ولكن الشارة الجديدة هي شارة البعث، الذي بدأ بالاستيلاء على الباستيل فكان ذلك بداية حقبة جديدة.

ـ أنت محق في هذا يا بيو.

ـ ولهذا يجب أن يرتدي الملك الشارة الجديدة.

.. فلكز "جيلبير" "بيو" في خاصرته بكوعه، لأنَّه لاحظ أنَّ الملك يصغي لهذه المحاورة، وهمس في أذنه محذراً مؤنباً:

ـ هل جننت يا بيو ؟ ألا تدري ممَّن أخذ الشعب الباستيل ؟

ـ من الملكة المستبدة فيما أعتقد.

ـ إذاً كيف تريد الملك أن يرتدي شعار مَنْ استولوا على الباستيل ؟ أتريده أن يكون منافقاً أيها المجنون، وهو الشهم الصادق المخلص ؟

ـ ولكن الملك ليس مستبداً، ونحن استولينا على الباستيل لأنَّه رمز الاستبداد.

فهز "جيلبير" كتفيه كاليائس من إفهام هذا الرَّجل وإقناعه.

وفي هذه اللَّحظة توقف الموكب قليلاً، فقد وصل إلى الشانزليزيه. وتقدَّم اثنان من نواب باريس يحملان صينية من الفضة عليها مفاتيح المدينة ليقدماها للملك عربون محبَّة باريس وولائها لملكها المعبود طيب القلب. وكان أهم النائبين هو "بايي"

الخطيب المفوه والعالم الكبير. وقد خاطب الملك قائلاً:

ـ مولاي. إني أُقدِّم إليك مفاتيح مدينة باريس. وهي عين المفاتيح التي قدَّمتها باريس لجدك هنري الرابع حين استرد عاصمته. فلئن كان الملك في تلك المرَّة قد استرد شعبه ورعاياه.. فالشعب في هذه المرَّة هو الذي استرد مليكه.

.. وقوبلت تلك الكلمة البليغة الموجزة بهتافٍ رائع، لأنَّها كانت كلمة بارعة، وصادقة، وملهمة للشعور القوي، ومُعبِّرة عن تيار التاريخ.

.. وشكره الملك في حياءٍ، ثُمَّ أمر باستئناف الموكب.

.. وعند ميدان الملك "لويس الخامس عشر"، سُمعت عن قرب طلقات الرصاص، وانعقد الدخان الأبيض، وسقطت امرأة صريعة إلى جوار "جيلبير"، الذي كان يسير بجوار العربة الملكية.

.. وكتم "جيلبير" الحقيقة، وكان الملك قد سمع، ولكنَّه لم ير ما حدث، فقال:

ـ أحسبهم يطلقون طلقات الترحيب والتكريم.

..فقال "جيلبير" بتجلدٍ:

ـ أجل يا مولاي.

.. ولكنَّه كان يعجب مَنْ الذي أطلق هذه الطلقات التي كادت تصيب الملك.. وتغلب على الموقف بأن سد بجسده نافذة العربة وهو يهتف للجموع:

ـ يحيا لويس والد الشعب ! يحيا أبو الفرنسيين.

.. وكانت عظمة الموكب وعظمة دلالة حضور الملك إلى باريس في ذلك اليَّوم بحيث نسيت تلك الحادثة بسرعةٍ، كما تتلاشى القطرة الصَّغيرة من الحبر في المحيط المتلاطم الأمواج.

.. وأخيراً وصل الملك تجاه البلدية، بعد أن حيَّته عند القنطرة الجديدة طلقات

المدفعية، ولكنَّها اليوم تختلف عمَّا كانت في الأمس، فطلقات اليوم طلقات بيضاء، غير محشوة بالقنابل.

.. وفوق واجهة دار البلدية وضعت لافتة كبيرة بحروف ضخمة:( إلى لويس السَّادس عشر، أبي الفرنسيين، وملك الشعب الحُرّ).

.. وقد لفتت هذه العبارة نظر" بيو"، ولمَّا كان يجهل القراءة طلب إلى" بيتو" أن يقرأها له، ثُمَّ طلب إليه أعادة قراءتها، ثم استفهم:

ـ هل كتبت البلدية أنَّ الملك ملك شعب حُرّ؟

ـ أجل أيها العمّ بيو.

ـ إذاً ما دامت الأمة حُرّة، فمن حقها أن تُقدِّم شعارها مثلث الألوان إلى ملكها.

.. وبوثبةٍ واحدةٍ اندفع "بيو" حتى صار أمام الملك الذي كان في تلك اللَّحظة يترجل من عربته عند سلم دار البلدية، ثُمَّ قال له بجسارةٍ:

ـ مولاي. لقد رأيت فوق القنطرة الجديدة نقشاً يمثل جدك هنري الرابع وقد ارتدى الشارة. وإذا كان جدك هنري الرابع يا مولاي يحمل الشارة الوطنية، فالحفيد أيضاً بوسعه أن يحملها كذلك.

.. فقال "لويس السَّادس عشر" في ارتباكٍ شديدٍ:

ـ بلا شك، ولو أن عندي واحدة.

.. فقاطعه "بيو" قائلاً بصوتٍ عالٍ جدًّا ليسمعه الجميع وهو واقف فوق السُلَّم، وقد رفع يده إلى أعلى ليراها الجميع الحاشد المتحمس:

ـ إذاً باسم الشعب أُقدِّم هذه الشارة إلى جلالتكم.

وحاول "بايي" أن يتدخل، فقد كان الملك شاحب الوجه، فقال:

ـ مولاي. إنَّها شعار جميع الفرنسيين المميز.

فمدّ الملك يده وتناول الشارة من يد "بيو "قائلاً:

ـ ما دام الأمر كذلك، فإني اقبلها.

.. ونحى الملك شارته البيضاء، تلك التي كان يرتديها جده "هنري الرابع"، وثبَّت الشارة مثلثة الألوان مكانها في قبعته، فتعالت الهتافات المدوية من جميع جوانب الميدان تحية لذلك النصر الجديد الذي أحرزه الشعب. وصاح "بيو" وهو يشير بيده إلى النَّاس كي يصفقوا:

ـ عاش الملك.

.. وسرعان ما تكوَّن قوس مزدوج من الفولاذ، رسمته السيوف المتشابكة من حراس الملك من باب العربة إلى باب البلدية، فسار الملك تحت ذلك القوس إلى أن اختفى عن أنظار الجماهير داخل الفجوة المظلمة، بين هتاف الشعب الذي كاد يجن جنونه حماسةً وفرحاً.

## الفصل الحادي والعشرون

# عودة الملك من باريس

## Return of the King from Paris

كان شعور "جيلبير" حين قبل الملك أن يستبدل شعار الثورة بشعاره الملكي أنَّ الملك قد أخطأ، وأنَّه كان ينبغي أن يقاوم ذلك الإذعان الصريح. ولكن سبق السيف العزل. وأشفق "جيلبير" ممَّا ستشعر به الملكة حين تعلم ذلك الخبر بعد عودة الملك، وصار يعمل لذلك ألف حساب وحساب. وكان الملك قد وصل باريس متأخراً لبطء مسير الموكب. فكان طبيعيًّا أن يتأخر به الوقت عند العودة.

وحل المساء ولم يكن الملك قد عاد، وحلت مع المساء المخاوف والوساوس. وعلى حين غرة سمعت أمام القصر صيحات، فهبت الملكة واقفة، وفتحت النافذة بيدها لتستطلع الخبر، وإذا ببعض الخدم يدخلون الحجرة في هذه اللَّحظة وقد غمرتهم الفرحة صائحين:

- رسول يا مولاتي من باريس رسول !

.. وإن هي إلَّا ثلاث دقائق حتى دخل ضابط من حرس الفرسان موفداً من الكونت" دي شارني".فصاحت به الملكة:

ـ والملك ؟

ـ إنَّ جلالته سيكون هنا بعد ربع ساعة.

.. وكان المسكين يتكلَّم بصعوبةٍ لأنَّه حضر بأقصى سرعة استطاعتها جواده، واستطردت الملكة تسأله غير مبالية بأنفاسه اللَّاهثة:

ـ سليماً معافى ؟

ـ سليماً معافى وباسماً أيضاً يا مولاتي.

ـ لقد رأيته إذاً ؟

ـ كلا يا مولاتي، ولكن الكونت دي شارني قال لي ذلك حين بعثني.

ـ أشكرك أيها السَّيِّد. ويحسن أن تستريح الآن.

.. فانحنى الضابط ثُمَّ انسحب.

.. أمَّا الملكة" ماري أنطوانيت" فأخذت طفليها في يديها واتجهت بهما إلى مدخل القصر الكبير، حيث كان قد تجمَّع هناك من قِبل جميع رجال الحاشية، وجميع خدم القصر أيضاً ولم تعر الملكة إلَّا أذناً شاردة للتحيات والمجاملات التي كان يصبَّها رجال الحاشية في سمعها على مألوف العادة، فلم يكن في قلبها متسع إلَّا لشعور الشكر والامتنان نحو العناية الإلهية لأنَّها حفظت لها زوجها وملكها ووالد طفليها.

إنَّها لا تُحبَّه حُبّ النساء للرِّجال، ولكن في اللَّحظات الحاسمة ترفع العزة بنات الملوك وزوجاتهم مكاناً يسمو بهن فوق نزوات الهوى وعواطف القلوب. وظلّ ذلك الشعور يتزايد كُلَّما اقترب موكب الملك العائد من عاصمته، وهي تسمع صهيل الجياد على بُعد، وقد مادت الأرض تحت حوافرها في سكون الليل.

ثُمَّ فُتحت الأبواب على مصراعيها، واندفع الحراس لاستقبال مليكهم بالهتاف

المدوي، وأخيراً درجت العربة فوق أرض المدخل الكبير. فلم تملك الملكة تحت تأثير تلك اللَّحظة وما تجمَّع في نهارها ذاك من قلقٍ وحيرةٍ وتوجسٍ، أنْ اندفعت هابطة السُلَّم اندفاعاً.

.. أمّا الملك فقد هبط من العربة بمُجرَّد وقوفها وراح يصعد السُلَّم بأسرع ما أسعفته به بنيته المكتنزة، ومن حوله ضباطه، وقد اهتزت مشاعرهم جميعاً بأحداث ذلك اليوم.

.. وأمَّا الحُراس في الفناء فقد راحوا يتعاونون مع السياس والحوذية في انتزاع الشارات مثلثة الألوان التي دفع الحماس أهل باريس إلى تزيين جدران العربة الملكية وسروج الخيل بها.

.. والتقى الملك بالملكة فوق درجة رخامية عريضة في منتصف السُلَّم، وراحت الملكة تضم الملك إلى صدرها مراراً عديدةً وهي تطلق صيحات الفرح والحُبّ، ثُمَّ راحت تبكي كأنَّها لقيته على يأسٍ من الميعاد. ثُمَّ قدَّمت إلى" لويس السَّادس عشر" طفليها فقبلهما.

.. ولاحظ ولي العهد الصغير بما فطر عليه الأطفال من دقة الملاحظة أنَّ والده الملك قد وضع في قبعته شارة جديدة لم يرها من قبل، وقد انعكست على لونها الأحمر الصارخ أنوار المشاعل، فصاح بسذاجةٍ:

ـ ما هذا الذي فوق شارتك يا والدي ؟ أدماء هي ؟

.. فأطلقت الملكة صرخةً، وحدَّقت في الشارة. فطأطأ الملك رأسه متظاهراً برغبة في معاودة تقبيل ابنته الصَّغيرة، ولكنَّه في الواقع كان يخفي خجله من زوجته ورجال حاشيته.

.. وبتقزز عميق انتزعت "ماري أنطوانيت" الشارة من قبعة زوجها الملك، دون أن تقدر هذه المرأة الغاضبة النبيلة أنَّها بهذه الحركة قد طعنت في

السويداء من قلبها أمة قد تستطيع في يوم من الأيام أن تنتقم لنفسها شر انتقام.
وصاحت بالملك:

ـ ألقها عنك يا مولاي. ألقها عنك.

.. ولم تنتظر حتى يفعل، بل ألقت بالشارة إلى أسفل السُلَّم، فأسرعت أقدام رجال الحاشية جميعاً بوطئها.

..وشعرت "ماري أنطوانيت" وهي تتجه بعد ذلك مع زوجها إلى الجناح الخاص لتناول العشاء أن حماستها الزوجية قد انطفأت انطفاءً تاماً، وذلك أن تلك المشاعر كانت تستمد جذوتها لديها من الأنفة والعزة بالملك، وهي القيم التي وُلدت فيها سليلة إمبراطور النمسا، ونشأت عليها في بيت ذويها، ثُمَّ في بيت" آل بوربون" الملكي في فرنسا.

## الفصل الثاني والعشرون

# هل تنجح الثورة ؟!

## Will the revolution succeed ?

كان شعور "بيو" إلى ذلك الوقت هو شعور المنتشي بخمرة النصر الذي هبط عليه تباعاً فجأةً، أفليس قد جاء من بلده فاستولى على الباستيل، ثُمَّ ألبس الملك بيده شارة الثورة ؟

.. بيد أنَّ الأحداث في الأسابيع التالية تكشفت عن تحوُّل شديد في تيار الثورة. فلم تكن الدماء التي سُفكت يوم سقوط الباستيل غدرا ونكثاً للعهود بعد أن استسلمت الحامية استسلام الشرف، لم تكن تلك الدماء وصمة عابرة في جبين الثورة الشعبيَّة، بل كان الشعب قد استيقظت فيه بتلك الدماء وحوش ضارية كانت نائمة في أعماقه، فاندفعت تطلب المزيد من الدَّم، لا تقيم وزناً لقيم الشرف، أو الوعود، أو احترام العواطف والعدل والحق والرَّحمة وهي تلك القيم التي صور أنبياء الثورة الحُرِّيَّة رافلة في أثوابها النظيفة الجميلة.

كلا. لم تكن الحُرِّيّة في الحركة الثورية عملاً إنسانيًّا مجيداً، بل تفاعُلاً عصبيًّا دموياً خليقاً أن يفزع له الإنسان الكريم، وأن يقشعر منه المرء ذو الإحساس والقلب.

فلا عجب أن نرى "بيو"، و"بيتو" وقد اشتركا في أمجاد التحرير وقد أخذا يستشعران المرارة في الأسابيع التالية. فقد فاضت الكأس بذلك العلقم. وذات صباح قال "بيتو" الصَّغير للعمِّ "بيو":

ـ يا مسيو بيو، لقد أوحشتني القرية. وأنت ؟

.. فكان ذلك السؤال هو الشرارة التي أوقدت في نفس ذلك الفلاح الشهم عواطف الأنفة والغيرة على الفضيلة والشرف، فشعر بالاشمئزاز الشديد من ذلك الاتجاه الجديد الذي اتجهته الثورة، تلك التي صدق عليها فيما بعد أنَّها ارتكبت أفظع المظالم باسم الحُرِّيّة.

.. فالتفت الرَّجل وقال لـ"بيتو" في حرارةٍ:

ـ الحق معك !

ثُمَّ قر رأيه على أن يذهب فوراً لمقابلة الدكتور" جيلبير".

.. وكان "جيلبير" قد استقر به المطاف في "فرساي"، وقد ترك العمل في القصر، وصار اليد اليمني للبارون "دي نكار" الذي استدعاء الملك لتولي الوزارة من جديد. وكانت خطة "دي نكار" تقوم على تنظيم الملكية، فلم يفلح بذلك إلَّا في تعميم الفقر بدلاً من زيادة نطاق الرخاء والغنى.

.. وأُدخل الفلاحان إلى مكتب الدكتور بالوزارة. فابتدره "بيو" قائلاً:

ـ يا دكتور. لقد نويت العودة إلى المزرعة.

ـ ولماذا العجلة ؟

ـ لأنَّي أكره باريس.

.. فقال "جيلبير" ببرودٍ:

ـ فهمت. لقد نال منك التَّعب بسرعةٍ.. ألم تعد تُحبّ الثورة ؟

ـ بل أتمنى أن أرى نهايتها.

فابتسم "جيلبير" في أسى، وقال:

ـ ولكنَّها لا تزال في بدايتها.

ـ في بدايتها !!

ـ أيدهشك هذا يا بيو ؟

ـ بل ما يدهشني هو هدؤوك التَّام.

ـ وهل تعلم يا صديقي متى أكون هادئاً ؟

ـ حينما تكون مقتنعاً تمام الاقتناع.

ـ أصبت. وهل تعرف موضوع اقتناعي الآن ؟

ـ اعتقادك أن كُلّ شيء سينتهي على ما يرام.

.. فابتسم "جيلبير" ابتسامةً حزينةً، وقال:

ـ بالعكس. بل إن كُلّ شيء سينتهي أسوأ نهاية.

.. فصاح "بيو" مندهشاً، أمَّا "بيتو" ففغر عينيه وفمه.

ـ لنسمع ما لديك. إذ يُخيَّل إليَّ أنَّني لا أفهم مُرادك !

-أجلس إذًا يا بيو قريبا مني. اقترب أكثر من هذا حتى لا يسمعني أحد سواك فالأمر جد خطير.

.. فتحرَّك "بيتو" نحو الباب لأنَّه ظن الدكتور يُريد منه أن ينسحب ، بيد أنَّ الدكتور دعاه إلى الاقتراب ليسمع هو أيضاً، فجلس على الأرض بين قدمي "بيو". وشرع الدكتور يتكلم همساً:

ـ هل ترى يا بيو ماذا أصنع الآن ؟

ـ أراك تكتب سطوراً.

ـ ولكن هل تعرف معناها يا بيو؟

ـ وكيف تريدني أن أعرف معناها وأنا أجهل القراءة!

..فرفع "بيتو" رأسه فوق مستوى المكتب ونظر في الورقة، ثُمَّ قال:

ـ إنَّها أرقام.

ـ هذا صحيح. وهذه الأرقام فيها خلاص فرنسا أو خرابها. لأنَّها حينما تذاع ستطالب كُلّ فرنسي ساكن كوخ كان أو ربّ قصر أن يدفع ربع دخله ضريبة للدولة. فإذا كانت الشعوب تقوم بالثورات فيجب عليها أن تتحمَّل تكاليفها.

ـ هذا عدل. يجب على كُلّ واحد أن يدفع.

ـ أنت رجل شهم شجاع. ولكن هناك غيرك كثيرون سيأبون الدفع لأنَّهم غير مؤمنين بالثورة. فماذا سيفعل هؤلاء؟

ـ سيقاومون بالطبع.

ـ إذاً سينشأ عن ذلك إشكال.

ـ ولكن الرأي للأغلبية يا دكتور، ويجب أن تنفذ إرادتها.

ـ إذاً سيكون هناك احتكاك وتناحر.

.. فلمعت عينا "بيو" ببريق الذكاء والفهم، فقال "جيلبير":

ـ أنا أعلم ما توشك أن تقول. فإن النبلاء ورجال الكنيسة يملكون كُلّ شيء. أليس كذلك ؟

ـ لا شك في ذلك. فالأديرة حافلة بالكنوز.

ـ والنبلاء لا يدفعون من الضرائب ما يتناسب مع دخلهم.

ـ وأنا الفلاح أدفع ضعف مجموع الضرائب التي يؤديها جيراني الأخوة دي شارني الثلاثة مع أن دخلهم مجتمعين مئتا ألف جنيه سنويًّا.

ـ ولكن هل تظن يا بيو أنَّ النبلاء والقساوسة أقل وطنية منك ؟

ـ لا شك. فهم يتمتعون بامتيازاتٍ من دوننا.

ـ تمهل قليلاً فبعد قليل سيكونون أكثر وطنية منك.

ـ وحق قرون الشيطان هذا رأي لا أوافق عليه.

ـ من أجل الامتيازات أليس كذلك ؟ إذاً فاعلم أنَّه بعد ثلاثة أيام سيكون أكثر النَّاس امتيازاً في فرنسا هم الذين لا يملكون شيئاً على الإطلاق.

ـ وكيف كان ذلك ؟

ـ أصغ إليَّ يا بيو، إن هؤلاء النبلاء ورجال الدين الذين تتهمهم بالأنانية قد بدأت تجرفهم حمى الوطنية التي أخذت تجتاح فرنسا. وهم الآن مجتمعون للتشاور فيما بينهم، لأنَّهم يعلمون أنَّهم في مفترق الطرق فهم كقطيعٍ من الأغنام انتهت به الطريق إلى خندقٍ، فالهمام منهم مَنْ يجتازه قفزاً قبل غيره. وذلك ما سيحدث غداً. وربما اللَّيلة. ومن بعده سيقفز سائر أفراد القطيع.

ـ هذا والله كلام غير مفهوم يا مسيو جيلبير.

ـ معناه أنَّه لابدّ لهم من إعلان نزولهم من تلقاء أنفسهم عن امتيازاتهم الإقطاعية جميعها، ونزولهم عن ممتلكاتهم الواسعة للدولة أو لفلاحيهم.

ـ أتعتقد حقاً أنَّهم يفعلون ذلك ؟

ـ وماذا سيحدث فعلاً.

ـ ما أروع الحُرِّيَّة يومئذ وما أعظم انتصارها.

ـ إنَّ ما يحزنني هو ما كنت أُفكِّر فيه عندما دخلتما، هو ما سيحدث بعد ذلك.

ـ وهل اتحاد طبقات الشعب في كتلةٍ واحدةٍ تعمل للرخاء العام أمر يقلق بالك ويُسبِّب لك الكدر والوجوم يا دكتور؟

ـ هل تظن أنَّ العالم سيترك فرنسا تصنع ذلك ؟ هل سيقف مكتوف اليدين ؟ إنَّ جذوة الحُرِّيَّة كالحريق إذا اتقدت في مكانٍ لم تنحصر فيه وإلَّا خمدت. والدول تعلم هذا. وبيننا وبين إنجلترا ثأر قديم منذ ساعدنا أمريكا على التحرُّر من سلطانها. ولهذا فعلينا جميعاً واجب لا مفر منه. هو أن نقف متنبهين لدفع الخطر. ولهذا أريدك بجواري يا بيو ولا أُحبّ أن تعود إلى حقلك في هذا الوقت العصيب.

ـ هل أبقي لأرى أخواني في الإنسانية يذبحون بلا عدل ولا رحمة في الطرقات؟ والله لو بقيت في باريس لا قتلن بيدي أوَّل رجل أراه يهم بقتل إنسان على قارعة الطريق.

ـ أراك بدأت تفهم منطق الثورة. واتجهت إلى أن تكون أنت أيضاً قاتلاً كهؤلاء القتلة الذين أثاروك.

ـ ولكنَّهم مجرمون وأنا على حق.

ـ هل شهدت يوم ذبح دي لوناي، ودي لوم، وحامية الباستيل ؟

ـ نعم ولن أنسي هذا اليوم وأمثاله كثير من بعده.

ـ وماذا كان يسمي القتلة هؤلاء الضحايا وهم يذبحونهم ؟

ـ كانوا ينعتونهم بالخونة والأنذال.

ـ وأنت أيضاً ستقتل مَنْ ستسميهم خونة وأنذالاً.

ـ ولكني مصيب وهم مخطئون.

ـ إنَّ منطق الدنيا سيما في عهود الثورات، أن تكون خائناً أذا قتلوك، وأن تكون باراً إذا قتلتهم، فوجه الخطأ والصواب أنَّ القاتل مصيب والقتيل مخطئ.

.. وسكت "بيو" لا يدري ما يقول، فأستطرد" جيلبير":

ـ أتدري ما السرّ في هذا الاتجاه الجديد نحو الإجرام وتدنيس الثورة ؟

ـ لا أدري. وإن كنت مذهولاً !

ـ إنَّه.. بيت.

ـ ومَنْ هو بيت ؟

ـ بيت بن بيت.

ـ ما زدتني به علماً إلَّا كقولك حصان ابن حصان.

ـ بيت هذا يا صاحبي هو زعيم المحافظين بين نبلاء بريطانيا، وهو الذي كان يدعو إلى قتال أمريكا حتى الموت لأنَّه عدو الحُرِّيَّة المبين. وابنه هو رئيس بريطانيا اليوم تولاها في نحو العشرين من عُمُره. وسياسته التي يسير عليها هي السياسة التي مات عليها أبوه. وقصارى القول أنَّ بريطانيا تنفق الأموال الطائلة في فرنسا لبذر بذور الخلاف، وتوجيه الثورة إلى الأعمال الدموية التي تدنسها وتنفر القلوب الكريمة منها.

.. فواجبنا الأوَّل أيها الصديق أن نقف في وجه هذا التيار، وأن ننقذ الثورة من سوء ما يراد بها.

ـ قد فهمت يا دكتور. وثق أنَّني موافق أن أكون حيث تريدني.

.. فصاح "بيتو" الذي كان قد اشتاق إلى القرية وإلى" كاترين":

ـ وأنا ؟ ماذا أصنع ؟

ـ أمَّا أنت فتعود إلى المزرعة، لتطمئن أسرة بيو، وتبيَّن لهم المهمة المقدسة التي يضطلع بها هنا. وعليك أن تأخذ معك سباستيان ابني، فتسلمه إلى الأب فورتييه ليتم تأديبه وتهذيبه، وأرجو أن تكون خير رفيق له في نزهات الخلاء يومي الأحد والخميس.

ـ ومتى أمضي ؟

ـ بعد أيام، عندما أعد سباستيان للرحلة.

## الفصل الثالث والعشرون

# الملكة تحارب الثورة

## The Queen fights the revolution

من سوء الطالع أنَّ الملكة كانت ترى في الحوادث الماضية جميعا أنَّها أمور سطحية عابرة ليست لها جذور عميقة، فمن السهل القضاء على جميع أثارها إذ أسعفت العزيمة وشدت أزرها القوَّة. لهذا كان من الضروري في نظرها أن تركز قوَّاها وتُجمِّعها.

.. ولمَّا كان الباريسيون في المدة الأخيرة قد اندفعوا في التدريب والتجنيد للحرس الوطني فلبسوا حلة الجنود، كمَنْ يريدون الحرب، فقد رأت أن تريهم كيف تكون الحرب، الحرب التي يشنها رجالها المتمرسون بفنونها.

.. ولهذا قرَّرت أن تستدعي إلى" فرساي" ثلاث فرق من الفرق الملكية المتعصبة. وكانت أوَّل هذه الفرق فرقة طار لها صيت ذائع في قمع الحركات الثورية حتى كان أسمها وحده مثار الرُّعب في القلوب. وظنت الملكة أن حضور تلك الفرقة إلى "فرساي" سوف يخيف الباريسيين ويلزمهم حدودهم فلا يتبجحون ولا يتحرشون.

.. وكان قد نشب خلاف بين الملك والجمعية الوطنية حول الفيتو، وهو حق الملك في رفض قرارات الجمعية الوطنية. وكان الملك في الشهرين الأخيرين يكافح كفاح المستميت لاسترداد ظلال باهتة من سلطانه الملكي الذي طوَّحت به الثورة، وكان يكافح أيضاً كفاح المستميت بمعاونة الوزارة و"ميرابو" مكبح جماح التيار الجمهوري الذي كان يزداد كُلّ يوم قوَّة على قوَّته حتى ليوشك أن يكتسح الملكية من فرنسا اكتساحاً.

.. وكانت الملكة تجهد نفسها كثيراً في الاهتمام بذلك الموضوع الحساس فلم يجد الملك من كفاحه ومقاومته إلَّا فقده لقوَّته وبقايا شعبيته. أمَّا الملكة فقد خرجت من هذه المعركة بكنية جديدة ألصقت بها، تناقلها الشعب على غرابتها وعدم فهمه لها، وهي"مدام فيتو"، وزاد في ذعر الملكة أنَّ سوء موقف الملكية قد ترتبت عليه حركة من أخطر الحركات، وهي حركة الهجرة فقد سحبت في الشهر الأخير من بلدية باريس ستون ألف جواز سفر لستين ألفاً من أعرق الأُسر في المملكة، غادروا البلاد لينضموا إلى أصدقائهم في ألمانيا والنمسا.

.. ثُمَّ ألهمها ذلك خاطراً جديداً، هو تدبير خطة محكمة للهرب، على أن يحمي ذلك الهرب جيش قوي، وعلى أن يستمر ذلك الجيش مع الأتباع المخلصين في إذكاء الحرب الأهلية، وإن كانت الملكة تسمى تلك الحرب الأهلية إخماد الثورة وحملة تأديبية ضد المُتمرِّدين.

.. ومن الغريب أن نية الهرب نشرتها الإشاعات في باريس قبل أن تخطر ببال الملكة نفسها، وذلك بإيحاء حركة الهجرة الواسعة التي أقدم عليها النبلاء. ولم تقدر "ماري أنطوانيت" أنَّ الهرب مقضي عليه بالفشل مهما أحكم تدبيره، ما دامت هذه النية قد باتت مكشوفة لأعدائها.

.. ومع هذا مضت الملكة في خطتها، فاستدعت فرقة اشتهرت بولائها الشديد

وتعصبها للملكية، وبعدائها وحسن بلائها ضد الثوار. وكانت هذه الفرقة هي" فرقة الفلاندرز".

.. وكان لابدّ لكي يحدث حضور هذه الفرقة الأثر المطلوب في النفوس، أن يكون استقبالها في "فرساي" استقبالاً حافلاً مشهوداً رناناً.

.. ولهذا جمع الكونت "دي تان" جميع ضباط الحرس الأهلي، وضباط الجيش الموجودين في "فرساي"، ثُمَّ خرج بهم لاستقبال فرقة "الفلاندرز".

.. ودخلت الفرقة "فرساي" دخولاً مهيباً رهيباً، تتقدَّمها بطاريات المدفعية وعربات الذخيرة والقنابل. وانضم إلى الفرقة جميع النبلاء الشبان والفرسان الذين لا ينتمون إلى الجيش، واتخذوا جميعاً زياً موحداً يتعارفون به، ثُمَّ راحوا يقومون برحلاتٍ إلى باريس ليظهروا أنفسهم للجماهير، وهم يُظهرون الكبرياء، معتزين بسرٍ يربطهم بالملكة، وإن كان سراً معروفاً بالتخمين، وسيُعرف عن يقين عند أوَّل احتكاك.

كان من الممكن أن يهرب الملك في ذلك الوقت بالذات دون أن تشعر به باريس، ولكن نحس طالع الملكة "ماري أنطوانيت" وقف حائلاً دون ذلك فقد ثارت مدينة "لييج" البلجيكية ضد إمبراطورية النمسا، فاضطر الإمبراطور أن يرسل جيوشه ضد تلك المدينة، وأن ينشغل عن وضع الحامية اللازمة عند الحدود لتنفيذ خطة ملكة فرنسا.

.. وتوالت الحوادث سريعاً كأنَّها قطع الليل آخذ بعضها برقاب بعض. فقد حدث بعد ذلك الاستقبال الرسمي أن فكَّر ضباط الحرس الملكي في إقامة مأدبة عشاء لضباط فرقة" الفلاندرز". وحُدَّد لذلك العشاء يوم أوَّل أكتوبر، ودُعيت إليه جميع الشخصيَّات البارزة في المدينة، حتى يتم التآخي بين جنود الحرس وجنود "الفلاندرز".

.. ولم يكن من مواد الدستور حائل دون حدوث ذلك التآخي. ثُمَّ أنَّ الملك هو القائد الأعلى لقواته، وقصر" فرساي" ملكه الخاص فهو حُرّ يستقبل فيه مَنْ يشاء متى شاء.

.. ولكن الملك لم يعلم شيئاً عن هذه الترتيبات كُلَّها، فإن جلالته منذ سلم بالأمر الواقع لم يعد يهتم بالأمور العامَّة التي تولتها الجمعية الوطنية والوزارة، وصار يقضي معظم وقته في الصيد وكانت الملكة هي التي وافقت على أقامه حفلة العشاء وحدَّدت مكانها في مسرح القصر وأمرت أن تكون الحفلة بالغة الفخامة والسخاء.

.. وفي الصباح ذلك اليَوم خرج الملك كعادته للصيد، وانصرفت الملكة إلى جناحها الخاص وفي صحبتها " أندريه كونتس دي شارني" ووصيفتان، في حين بدأ الفرسان بخيولهم وثيابهم المزركشة يتوافدون على القصر، بين عزف الموسيقى ونفخ الأبواق، وملأت الجو منذ الضحى أصوات الضحك والصخب والمرح.

.. ومضت نصف السَّاعة الأولى بسلامٍ. إلى أن وقف مسيو" دي لوزينيان" قائد "الفلاندرز" واقترح شرب أربعة أنخاب. النخب الأول في صحَّة الملك، والنخب الثاني في صحَّة الملكة، والنخب الثالث في صحَّة ولي العهد، والنخب الرابع في صحَّة الأسرة المالكة.

.. وشربت الأنخاب، وتعالت في أثر كُلّ منها عاصفة من الهتاف والتصفيق وصلت إلى أسماع الجموع المحتشدة أمام القصر من الشعب الجائع.

وعندئذ وقف أحد الضباط وواتته الجرأة وبعد النظر فاقترح نخباً خامساً، هو نخب الأمة.

.. وسرت همهمة غيظ ودهشة، ثُمَّ ارتفعت عاصفة صاخبة.

ـ كلا ! كلا !

.. وهكذا رفض السَّادة نخب الأمة، وانهالت الاتهامات الجارحة على صاحب

ذلك الاقتراح وكأنَّما كانت هذه هي الشرارة التي كان ينتظرها البارود كي ينفجر. فانطلقت النفوس على سجيتها، وأديرت أقداح النبيذ حتى تجاوزت الأدوار عشراً، وبدأ بعد ذلك الهرج والمرج، وتخاطف الأطعمة والحلوى، كُلّ ذلك مختلطة بهتافاتٍ متقاطعةٍ.

ـ عاش الملك. عاشت الملكة.

.. في حماسةٍ شديدةٍ كان يسر لها خاطر الملكة ولا شك.

وتذكَّر بعض الحاضرين من رجال الحاشية أنَّه كان يسر الملك والملكة لو حضرا ذلك الحفل، فأسرعوا إليها في جناحها الخاص يبالغون في مظاهر الولاء التي بدت من جنود "الفلاندرز" البواسل، فبرقت عينا الملكة ببريق السرور، وانتعش لديها الأمل، ولكنَّها اعتذرت لغياب الملك عن الحضور. فألحوا عليها مقترحين أن تصحب معها ولي العهد.

.. وفي هذه اللَّحظة حضر الخدم يعلنون عودة الملك من الصيد. فأسرعت الملكة تعدو نحوه فرحة وجذبته من يده جذباً، ونزلا إلى قاعة الحفلة وولي عهدها في يسراها.

.. واتقدت الحماسة التي أفلتت زمامها، فتحرَّر الحاضرون من كُلّ قيد. فانتهز الملك والملكة فرصة عزف قطعة موسيقية وانسحبا مع ولي العهد، في وسط هتافات حماسية موجهة ضد مبادئ الثورة.

وأمر الكونت" دي تان" أن يُعزف نوبة هجوم.

هجوم ضد مَنْ ؟

.. ضد العدو الغائب. ضد العدو المفهوم المعلوم. ضد الشعب.

.. ثُمَّ نزع الجنود شارات الثورة من قبعات كبار الحاضرين من المدعوين وداسوها بالأقدام، ووضعوا بدلاً منها الشارة السوداء.

.. وسرعان ما سرى هذا الخبر بين الجماهير في الخارج، فكان له أسوأ الأثر، وأزكى روح العدوان والكراهية.

.. أمَّا الملكة فقالت لزوجها:

ـ أرأيت ؟ هذه هي روح جنودك الحقيقية، وأنت مع هذا تستسلم وتتخاذل.

.. وعندما حضر وفد من الفرقة في اليوم التالي لشكر الملكة، حيتهم وأثنت عليهم قائلة تلك العبارة التي لم ينسها الشعب لها:

ـ لقد أثلجت صدري أفعالكم بالأمس.

## الفصل الرابع والعشرون

# مجاعة باريس

## The Paris Famine

أفلت الزمام إذاً وتميَّز المُعسكران: مُعسكر الملكة في جانب، ومُعسكر الأمة والشعب في جانب آخر.

وانطلق البلاط يتقوَّل ويُهاجم في شجاعةٍ أماني الشعب وشعوره.

أمَّا في باريس فقد نشأت بين الجمهور طائفة من الفرسان المتجولين يطوفون الشوارع والطرقات للهجوم على البلاط.

وكان فرسان الشعب يتجولون على أقدامهم لا فوق صهوات الجياد ولباسهم أسمال ممزقة لا حلل الزرد ودروع الحديد، وأسلحتهم لسان حاد، وطلقات من الهجاء.

ولكن كان هناك شيء أفعل من هجمات الفرسان النبلاء في" فرساي"، وحملات الفرسان المتجولين من فقراء باريس. كان هناك جيش الجنرال "تخمة" في "فرساي"، وجيش الجنرال "حرمان" في باريس.

ففي "فرساي" كان النبيذ وكانت أطايب الطعام والفطائر واللحوم والفاكهة تُداس

من كثرتها بالأقدام وتراق على الأرض وعلى أغطية الموائد. أمَّا في باريس فكانت أزمة الأزمات أن يصبح النَّاس كُلّ يوم فلا يعلمون هل يجدون كفايتهم من الخبز أو لا يجدون. فالمخابز لا تجد كفايتها من الدقيق. ومخازن الدقيق تقفل أبوابها معظم الأيام، فوصلت بذلك عوامل التمرُّد والسخط إلى كُلِّ بطن خاوية وأمعاء ضاوية. ونزلت الثورة من برج العقل العلوي إلى ساحة المعدة، وهبطت من أشواق القلب وعقائد الروح إلى حاجات الجسد ومطالب القوت. وهبطت تبعاً لذلك من القوم المستنيرين إلى السوقة الأوباش، واتسع محيطها من مركز الدائرة حتى شملت النساء والفتيات، بعد أن كانت هم الرِّجال في الغالب الأعم.

وهكذا أصبح النَّاس ذات يوم فوجدوا شبح المجاعة الأغبر يدق أبواب باريس ثُمَّ يدخلها ويطوف أحياءها ملقياً جذوات من النَّار في كُلِّ بطن يمر بها من بطون الصِّغار والكبار، وأن للمجاعة لشبحاً كالح السحنة لا ينام إلَّا بعد مشقة، ولكن ما أيسر أن يصحو عند أقل دعوة وأهون إثارة. فإذا صحا لم يغمض له جفن، ولم تهدأ له قدم، حتى يحدث أمراً جللاً.

وأكبر قوات المجاعة هي حواء، فإنَّها تتحرَّك عند الجوع، فإذا تحرَّكت تحرَّك لها كُلّ إنسان في محيطها من الطفل إلى الشيخ ومن الغلام إلى الكهل، فإنَّ المرأة قد تعوَّد منها النَّاس أن تتعذب فتصبر وتصابر. فإذا ما ثارت تلك الصابرة المصابرة، فذلك هو الويل والثبور وعظائم الأمور، تتحرَّك لثورتها النخوة، وتستيقظ ليقظتها غرائز الحمية والرَّحمة. وقد استيقظت المجاعة في باريس، وأيقظت في مسيرها الطويل بين طرقات باريس فتنة حواء.

وفي صبيحة يوم من أوائل أكتوبر كان "جيلبير"، و"بيو" جالسين في مقهى "فوي" قرب القصر الملكي. وعلى حين غرة فتحت أبواب المقهى ودخلت منها امرأة مشعثة الشعر مستشارة الحس، فوقفت في النَّاس خطيبة بلغتها السوقية.

وأدرك "جيلبير" معنى هذه الظاهرة، فالتفت إلى "بيو" قائلاً:

ـ إلى دار البلدية !

.. وأندفع الرَّجلان فاخترقا أقرب الطرق، فلما وصلا إلى شارع القديس" أونوريه"، قرب سوق الدقيق، التقيا بفتاةٍ شابةٍ قادمةٍ من شارع" بوردونيه" وقد علَّقت في صدرها طبلاً كبيراً راحت تقرعه قرعاً منتظماً مثيراً.

.. ووقف "جيلبير" مذهولاً:

ـ ما معنى هذا بحق السماء ؟

ـ ألَّا ترى يا دكتور بعينيك ؟ هذه فتاة جميلة تدق طبلاً، وتدقه دقاً لا بأس به.

.. فقال عابر سبيل:

ـ لعلها فقدت شيئاً، فهي تنادي على ما فقدت.

.. وعاد "بيو" يقول:

ـ ولكن أراها شاحبة الوجه جدًّا يا دكتور.

ـ سلها إذاً عمَّا تُريد.

.. فصاح "بيو" يخاطبها:

ـ يا حسنائي. لماذا تقرعين هذا الطبل ؟

.. فأجابته في صوتٍ ضعيفٍ ولكنَّه أجش:

ـ إني جائعة !

.. واستأنفت مسيرها تقرع الطبل.

.. وبُهت "جيلبير" لحظةً، ثُمَّ هتف:

ـ لقد غدا الأمر خطيراً.

.. وراح يتابع بنظره عشرات النساء المسكينات اللواتي يسرن في أثر قارعة الطبل، شاحبات الوجوه زائغات النظرات، مترنحات، فمنهن من لم تذق الطعام منذ ثلاثين ساعة.

ومن بين صفوف هاتك النساء كانت تنطلق بين الحين والحين صرخة محشرجة:

- إلى فرساي ! إلى فرساي !

.. وكن في سيرهن يشرن بأيديهن إلى كُلِّ مَنْ يصادفن من النساء في الطرقات أو في الشرفات لينضممن إليهن.

.. ومرت عربة فاخرة فيها سيّدتان نبيلتان فأخرجتا رأسيهما من العربة وضحكن. فوقفت قارعة الطبل وكفت عن دق طبلها. وأمسكت نحو عشرين امرأة بأعنة الجياد، ثُمَّ هجمن على العربة ففتحنها وأرغمن السَّيِّدتين على النزول والانضمام إلى مظاهرتهن، فلما أبدتا المقاومة تلقتا الضربات فوق ظهريهما ورأسيهما.

ومن وراء موكب النساء كان يمشي رجل نحيل طويل يرتدي حلة رمادية وصديرياً أسود وقبعة مثلثة. وكان يرقب كُلّ شيء باهتمام شديد. وقد عرفه "بيو"، و"جيلبير"فهو الزعيم" مايار" الذي كان من أشهر قواد فرق الحرس الوطني سيما في الأحياء الشعبيَّة.

.. وقد اختفى "مايار" مع النساء في منعطف الشارع فساورت "بيو" الرَّغبة أن يتبع الموكب كما فعل" مايار"، بيد أن "جيلبير" جذبه من ذراعه وأرغمه على البقاء بجانبه، ثُمَّ اتجها إلى دار البلدية. وهناك عرفا حقيقة ما يدور في ذلك الوقت بباريس.

.. وبعد نصف ساعة كانت قد تجمَّعت وراء قارعة الطبول عشرة آلاف امرأة في ميدان الاعتصام، وهناك عقدن مؤتمراً صاخباً.

ولا غرو فمعظم هاتك العشرة آلاف امرأة من البوابات وبائعات الخضر واللحم ومن بائعات الهوى.

.. وبعد مداولة حامية صدرت المداولات التالية:

( التوجه إلى دار البلدية وإحراقها، لأنَّ فيها كمية كبيرة من الأوراق المكتوبة التي لا شك أنَّها سبب رئيس في منع الطعام والخبز عن باريس).

.. وبدأ الزحف على دار البلدية. فوقف رجال الحرس الوطني يدافعون عنها ولكن النساء هجمن على رجال الحرس وفرقنهم واقتحمن البناء الرئيس وبدأ السلب والنهب.

.. وكانت خطتهن قائمة على أخذ كُلّ ما يمكن أخذه. أمَّا ما لا يمكن أخذه فيلقي به في السين تحت نوافذ البلدية.

.. ومن ضمن ما لا يمكن أخذه الرِّجال وأعضاء البلدية، لهذا تقرَّر إلقائهم في السين وإشعال النَّار في بناء الدار.

.. ولم يكن ذلك عملاً هيناً، لأنَّ دار البلدية كانت تضم شيئاً من كُلِّ شيء. ففيها أوَّلاً ثلثمئة نائب، وفيها مساعدون، وفيها عُمد الأقسام المختلفة.

.. ولاحظت إحدى النساء صعوبة المهمة في تنفيذ القرارات، فقالت:

ـ إن إلقاء كُلّ هؤلاء الرِّجال في الماء مسألة تستغرق وقتاً طويلاً.

.. فقالت لها أخرى:

ـ ولكنَّهم يستحقون ذلك المصير.

ـ ولكن ليس لدينا وقت كاف نضيعه في شأنهم.

ـ إذاً لنفرغ منهم بأسرع وقت.

ـ لم يبق إذاً إلَّا أن نحرقهم في الدار دفعة واحدة.

.. وذهب فريق منهن ليحضر المشاعل، وليحضر القش اللّازم لذلك الحريق. وعندئذ تدخل "مايار" مستخدماً سلطته وسمعته الشعبيَّة في تسكين ثائرة النساء، ثُمَّ خطب فيهن حتى أقنعهن ببراءة وثائق البلدية من تهمة المجاعة. فانصرفن بعد جهد شديد عن إحراق البلدية، ولكن "مايار" بمكره الشديد وجه أنظارهن إلى الزحف على" فرساي"، حيث الخمر، والطعام، وكُلّ ما يلذ الأنفس.

.. وانتخب النساء "مايار" جنرالاً لذلك الزحف العام !

## الفصل الخامس والعشرون

# الزحف إلى فرساي

## Crawl to Versailles

تجاوبت أنحاء باريس بأصداء ما حدث من النساء في دار البلدية، فلما وصل الخبر إلى أسماع "لافاييت" تحرَّك إلى هناك تاركاً العرض العسكري الذي كان يشرف عليه في ساحة مارس. وكان فوق صهوة جواده منذ الثامنة صباحاً، فوصل إلى دار البلدية وساعتها تدق الثانية عشرة واستوقفه عند رصيف "بيليتي" رجل كان يلهب جواده بسرعةٍ شديدةٍ. وكان هذا الرَّجل هو الدكتور "جيلبير" الذي كان ذاهباً إلى "فرساي" لينذر الملك بالزيارة غير الودية التي كان مُهدَّداً بها من نساء باريس.

.. وأخبر الدكتور "جيلبير" الماركيز "لافاييت" بخلاصة ما حصل في كلمتين. ثُمَّ استأنف الركض إلي"فرساي"،واتجه "لافاييت" إلى دار البلدية.

وكانت السَّاحة التي تطل عليها دار البلدية قد أخليت من النساء وحل محلهن فيها جمع من الرِّجال، هم أفراد الحرس الوطني، وقد تعالى نفخ الأبواق ودق الأجراس لدعوة جميع الأهالي إلى حمل السلاح كي يرافقوا النساء في زحفهم إلى" فرساي".

.. وترجل الماركيز "لافاييت" عن صهوة جواده، وشق طريقه فوق درجات السُلَّم

دون أن يُعير أدنى التفات للهتاف بحياته، ثُمَّ شرع يملي خطاباً إلى الملك عمَّا حدث ذلك الصباح.

.. وما وصل في إملائه إلى السطر السَّادس حتى انفتح باب سكرتيرته الخاص، في عنفٍ، فرفع "لافاييت" عينيه فقيل له أن وفداً من رجال الحرس الوطني يطلب المقابلة، فأشار بيده إلى ذلك الوفد فدخل الحجرة، وتقدَّم رئيس الوفد فقال:

ـ سيِّدي الجنرال. نحن وفد ينوب عن عشر فرق. وليس فينا مَنْ يظن بك الخيانة. ولكنَّنا نشعر أنَّه قد غُدر بنا وأنَّه قد آن الأوان أن تنتهي هذه الحالة بأي شكل من الأشكال. فليس في وسعنا أن نشهر حرابنا في وجه نسائنا اللواتي لا يطلبن شيئاً إلَّا الخبز الذي لا يجدنه لإشباع بطونهن، وبطون أطفالهن، الذين هم أطفالنا. فلجنة التموين العُليا إمَّا أن تكون خائنة او مقصرة. وهي على الحالين تستحق الإلغاء والتبديل. فالشعب يا سيِّدي الجنرال شقي تعس. وعلة شقائه كامنة في فرساي. فلا مفر من الذهاب إلى فرساي وإحضار الملك للإقامة في باريس. ولابدّ من تسريح فرقة الفلاندرز والحرس الخصوصي، لأنَّهم تجاسروا على وطء الشارة الوطنية بأقدامهم. وإذا كان الملك عاجزاً عن حمل التاج، فلينزل عن العرش وسنتوج ابنه مكانه، وتؤلِّف الأمة مجلساً موثوقاً به للوصاية، وتمضي الأمور في نهجها الطبيعي. هذا يا سيِّدي الجنرال ما جئنا لنقوله لك.

.. فحدَّق "لافاييت" في المتكلم بدهشةٍ شديدةٍ. فقد كانت هذه أوَّل مرَّة تواجهه فيها أنفاس الثورة الحامية شخصيًّا، وإنَّه بحكم مولده ونشأته لا يكاد يصدق أذنيه، فهو لا يتصوَّر أن الشعب يمكن أن يستغنى عن الملك، بحالٍ من الأحوال، فصرخ في وجه محدثه:

ـ ماذا تقول ؟ هل صحت عزيمتكم إذاً على أن تحاربوا الملك وتجبروه على التخلي عنا ؟

ـ سيّدي الجنرال. إنَّنا نُحب الملك ونحترمه. ولن يكون أحد أشد منا حزناً إن هو تركنا، لأنَّنا ندين له بالشيء الكثير. ولكن إذا آثر جلالته أن يتخلى عنا ويفارقنا، فعزاؤنا أن لدينا ولي العهد.

ـ أيها السَّادة ! أيها السَّادة ! حذار ممَّا أنتم مقدمون عليه. فأنتم تهاجمون التاج. وواجبي ألَّا أسمح بذلك على الإطلاق.

فانحنى رئيس الوفد، ثُمَّ قال بهدوءٍ:

ـ سيّدي الجنرال.إنَّنا جميعاً على استعداد أن نبذل آخر قطرة من دمنا في سبيلك، ولكن الشعب شقي وتعس. ومصدر شقائه في فرساي، فيجب أن نذهب إلى فرساي ونحضر الملك إلى باريس. فهذه إرادة الشعب. والأمة مصدر جميع السلطات.

.. فشعر" لافاييت" أنَّه لابدّ له من التضحية بشعوره الخاص، وهو رجل شجاع لم يتأخر يوماً في بذل تلك التضحية. فنزل حتى توسط الميدان، وهم أن يخطب في النَّاس، ولكن صيحاتهم: (إلى فرساي ! إلى فرساي !) طغت على صوته وأغرقته، وشعر أنَّه بعيداً عن صهوة جواده غارقاً في ذلك المحيط البشري، فراح يشق طريقه بين النَّاس ليصل إلى جواده، كما يسبح الغريق ليبلغ صخرة النجاة.

.. وبشق النفس وصل إلى جواده وقفز فوق صهوته، وحاول أن يتجه به نحو مدخل البلدية، ولكن السور البشري حال دون ذلك وصاحت الجماهير به:

ـ يجب أن تبقى معنا يا جنرال ! إلى فرساي ! إلى فرساي !

.. فتردد "لافاييت" لحظة، لأنَّه خُيل إليه أن ذهابه معهم إلى" فرساي" قد يفيد الملك بكبح جماحهم. ولكن هل يتيسر له ذلك وهو يراهم ثائرين لي هذا الحد ؟

وفي هذه اللَّحظة هبط درجات سُلَّم البلدية شخص قوّي العضلات راح يشق الطريق حتى وصل إلى" لافاييت"، فقال له:

ـ هذه رسالة من نواب باريس الثلاثمئة.

.. وكان هذا الرسول هو" بيو".

.. ففض "لافاييت" الرسالة على عجلٍ وشرع يقرؤها، ولكن صيحات النَّاس مطالبين بسماع ما في الخطاب حملته على قراءته بصوتٍ عال، وقد خيم الصمت التَّام وأرهقت الأسماع.

ـ بناءً على ظروف الحالة، ورغبة الشعب، وبناءً على ما أبداه القائد العام للحرس الوطني الجنرال لافاييت من رغبةٍ لا يمكن رفضها، قرَّر نواب باريس المجتمعون في دار البلدية تفويض القائد العام الجنرال لافاييت في الزحف إلى فرساي، وسيصحبه أربعة مندوبين من نواب المناطق منهم نائب فرساي.

.. وكان "لافاييت" المسكين لم يُقدِّم أي طلب إلى اللجنة، ولكنَّه بات محرجاً بعد أن هتف الشعب بحياته لما ورد في الخطاب من أنَّه صاحب ذلك الطلب. وبين الهتاف العالي له، أعلن "لافاييت" بداية الزحف إلى" فرساي".

وكانت "فرساي" في هذه الأثناء تجهل كالعادة كُلّ ما يجري في باريس، وكانت الملكة جالسة خالية البال في جناحها الخاص تمنى النفس بقرب الانتقام ليوم سقوط الباستيل. وعلى حين غرة دخل عليها أحد ضباط الحاشية، قائلاً:

ـ مولاتي. لقد حضر الدكتور جيلبير للتحدُّث إلي جلالة الملك في أمور مهمة عاجلة، فلما وجد جلالته قد رحل إلى غابة ميدون للصيد منذ ساعة طلب شرف المثول بين يدي جلالتكِ.

ـ دعه يدخل.

.. وبعد لحظة واحدة ظهر "جيلبير" في عتبة الباب، ثُمَّ تقدَّم نحو الملكة باحترامٍ شديدٍ قائلاً:

ـ هل تسمح لي جلالة الملكة في غياب زوجها المعظم أن انهي إلى أسماعها الموقرة الأخبار التي جئت أحملها من باريس ؟

ـ تكلم يا سيّدي. فإني حين رأيت إسراعك في القدوم استنجدت بشجاعتي كُلَّها وتجلُّدي، لأنَّني قدرت أنَّك تحمل إلينا أنباء هائلة.

ـ مولاتي إن عشرة آلاف امرأة من نساء باريس قد بدأن الزحف إلى فرساي حاملات السلاح.

ـ عشرة آلاف امرأة ؟ امرأة !؟

ـ نعم يا مولاتي. وإن كنت أعتقد أنهن توقفن في الطريق ببعض الضواحي، ولهذا أرجح أن عددهن عند وصولهن قد يصل إلى عشرين ألفاً.

ت ما سبب حضورهن ؟

ـ إنهن جائعات يا مولاتي. فقد جئن يسألن ملكهن الخبز.

ـ وما العمل ؟

ـ يجب قبل كُلّ شيء أن يُحاط الملك علماً بالأمر.

ـ الملك ؟ وأي جدوى في تعريضه لمثل ذلك اللقاء ؟

.. وهنا تدخل أحد رجال الحاشية المقربين قائلاً:

ـ مولاتي إن مسيو جيلبير على حق. فالملك لا يزال محبوباً جدًّا. وسيقابل الملك هؤلاء النسوة فيستل الغضب من نفوسهن.

ـ ولكن مَنْ الذي يتولى مهمة أبلاغ النبأ إلى الملك ؟ فالطريق إلى ميدون لابدّ أنَّه قُطع الآن أو سدته هذه الجموع. فالذهاب إلى ميدون لا يخلو من خطرٍ.

ـ فقال رجل الحاشية على الفور:

ـ أسمحي لي يا مولاتي أن أندب نفسي لهذه المهمة.

.. ولم ينتظر الكونت إذن الملكة، بل أسرع ذاهباً.

.. وما كاد يختفي عن الأنظار حتى بدأت أصداء ضجة زحف النساء تصل إلى" فرساي" من بعيد. وفي الوقت نفسه أبرقت السَّماء وأرعدت ثُمَّ أخذت تمطر. ومع ذلك توالت الأخبار عن الكتل الكثيفة الزاحفة إلى" فرساي".

.. فماذا كان صدى هذا الزحف ؟

إنَّ جنود الحرس الوطني وفرقة "الفلاندرز" تبادلوا النظرات، ثُمَّ تنالوا السلاح وشرعوا يتأهبون، ولكن في شيءٍ من التردُّد، فماذا عساهم يصنعون لنساءٍ خرجن من مدينتهن مسلحات ثائرات، ولكن الجوع ومشقة الطريق القيا من أيديهن الناعمة السلاح بل لا تكاد الواحدة تقوى على الوقوف على قدميها ؟

ومع هذا راح هؤلاء الجنود ينظمون أنفسهم في صفوفٍ وتشكيلاتٍ ويستلون سيوفهم من أغمادها.

وأخيراً بدأت طلائع النساء تدخل "فرساي" وهن يجررن أقدامهن من فرط التعب والإعياء، وقد ترك ثلاثة أرباعهن أسلحتهن ملقاة على جانب الطريق وقد عجزن عن مواصلة حملها. أمَّا الربع الباقي فقد حملهن "مايار" قائد الحملة على ترك السلاح في أوَّل بيت صادفنه في "فرساي"، ثُمَّ جعلهن ينشدن للإعلان عن نواياهن السلمية نشيد الملكية العتيد ( عاش هنري الرابع ) فرحن ينشدنه بأصواتٍ خافتةٍ مرتعشةٍ لا تستطيع لضعفها أن ترتفع ولو بطلب الخبز ، ولكن هذه الأصوات تتحامل على نفسها لتغني نشيد الملكية.

.. وما أعظم الدهشة التي ثارت في القصر حين رأين ذلك الجيش الزاحف لا يُهدِّد ولا يتوَّعد وإنما يغني النشيد الملكي، وقد اختلطت على وجوهن قطرات المطر بتراب الطريق، فرحن يترنحن كالسكارى وما هن بسكارى ، وإنما هي سكرة الجوع والتعب.

.. والحق أنَّ منظرهن كان قابضاً للقلوب مثيراً للإشفاق، لهذا شعر الحراس المدافعون بالاكتئاب والرَّحمة، فتخاذلت أيديهم عن مقابض سيوفهم.

.. أمَّا الملكة فأمرت بإعلان حالة الطوارئ والحصار إلى حين حضور الملك، والتف حولها كبار العسكريين والنبلاء بمثابة حرس شخصي لها. وفي هذه اللَّحظة وصل الملك مسرعاً من غابة ميدون. فسمع من جهة ميدان السلاح ضجة شديدة، فسأل عن علتها مرتاعاً، فقال له "جيلبير":

ـ إن أحد رجال حاشيتك يا مولاي قاد فريقاً من الحرس فهاجموا رئيس الجمعية الوطنية وهيئة وفدها، وكانوا في طريقهم إلى القصر ليلتمسوا مقابلتكم.

.. فغضب الملك غضباً شديداً وأمر من فوره بفتح أبواب القصر لكُلِّ إنسان، فلما صرخت الملكة معترضة، صاح في وجهها:

ـ فلتفتح جميع الأبواب. فإنما قصور الملوك قد جعلت لتكون ملاذاً للرعية عند اليأس. أفتحوا جميع الأبواب.

ودخل وفد الجمعية وعلى رأسه "مونييه". ومعه وفد النساء الجائعات وعلى رأسه قارعة الطبل، بائعة الزهور الحسناء" مارلين شمبري".

.. وقال "مونييه" كلمة مقتضبة قدَّم بها بائعة الزهور الشابة التي تقدَّمت خطوتين ثُمَّ فتحت فمها لتتكلم، فلم تستطع إلَّا كلمتين اثنتين:

ـ مولاي ! الخبز !

ثُمَّ سقطت مغشياً عليها على الأرض. فأسرع الملك يطلب النجدة وحملها بنفسه بين ذراعيه. ثُمَّ تناول من "أندريه دي شارتييه" زجاجة الأملاح المنعشة وراح يفيقها بيديه، فلما تنبهت ووجدت نفسها على هذه الحالة صرخت خجلاً، وانكفأت على يده تريد أن تقبلها، فقال:

ـ يا للفتاة الجميلة. دعيني أقبلكِ، فأنتِ أهل لذلك.

ـ مولاي ! مولاي ! ما دمت رحيماً رقيقاً إلى هذا الحد، فأصدر أمرك.

ـ أي أمر تريدين ؟

ـ أن يرسلوا الدقيق إلى باريس حتى تنتهي المجاعة.

ـ سأوقع هذا الأمر حالاً. وإن كنت أخشى أنَّه لن يجدي.

.. وجلس الملك ليوقع الأمر، وإذا طلقات رصاص متتابعة، فريع الملك وأرسل "جيلبير" يستفسر، فإذا فرد بين الجماهير من الرِّجال قد أطلق رصاصة أصابت ذراع ضابط في الحرس الخاص، في الوقت الذي كانت فيه تلك الذراع مرفوعة لتضرب جندياً شاباً حمى بجسمه امرأة من المتظاهرات كان يريد ذلك الضابط أن يركلها، وأجابت الحامية على تلك الرصاصة برصاصات، فقتلت امرأة وجرحت أخرى جرحاً خطيراً، وثارت الخواطر فصرع فارسان من فرسان الحرس.

.. وفي هذه اللَّحظة وصل الحرس الوطني بقيادة "لافاييت". في الوقت الذي انشغل الغوغاء فيه عن القتال بتمزيق جوادي الفارسين، والسعيد مَنْ فاز بقطعة من لحمها.

.. وفي هذه الأثناء كان الملك قد وقع بناء على طلب الجمعية الوطنية أمراً آخر، هو الذي خلده التاريخ تحت اسم) إعلان حقوق الإنسان).

.. ودخل "لافاييت" على الملك واختلى به لحظة. وفي تلك الأثناء هجم على بعض أبواب القصر ستمئة رجل، غير مبالين بتحذيرات الحراس الواقفين عند باب البناء، فأطلق الحراس النَّار. فحمل المهاجمون قتيلهم وانسحبوا ولكن ليعودوا فريقين، يهاجم أحدهما جناح الملك، ويهاجم الآخر جناح الملكة.

.. أمَّا الفريق الذي هاجم جناح الملك فحاول الحارس أن يمنعه فاكتسحوه، ثُمَّ اقتحموا باب الغرفة وكان الملك قد غادر الغرفة على كره منه إلى غرفةٍ داخليةٍ، إلى أن تدخل الحرس الوطني في الوقت المناسب بقيادة لافاييت" شخصيًّا الذي تصدى

للصف الأول من المهاجمين، وبتأثير شخصيته ومكانته أنقذ حياة الملك والملكة. ثُمَّ زاد على ذلك أن صحب الملكة إلى الشرفة فأطلت على الجماهير وقبَّل يدها على مرأى منهم فتعالى هتافهم بحياة "لافاييت" وحياة الملك والملكة، لأنَّه كان قد أعلن أنَّ الملك أثر حقوق الإنسان وقرَّر الانتقال بأسرته إلى باريس، ليشارك شعبه آلام المجاعة إلى أن تنقضي.

لقد كانت هدنة في الظاهر، فلم يفت نظر "جيلبير" الثاقب أنَّ نهاية الملكة قد اقتربت برغم هذا التحسُّن الظاهري، فبعث في اليوم التالي بولده في صحبة "بيتو" إلى الريف، بعيداً عن نار الثورة، وظل هو مع" بيو" محاولا إنقاذ الملكة وإنفاذ فرنسا وإنفاذ الثورة.

.. ولكن منطق الحوادث كان أمضى من منطقه، فقد اندلعت الثورة حتى شملت الريف، وتأججت في باريس حتى أتت على الملكية، ثُمَّ على الملك والملكة، وعلى الفساد والمفسدين.

# المحتويات


| | |
|---|---|
| المقدمة | 3 |
| تمهيد | 5 |
| قبل أن تقرأ | 29 |
| الفصل الأول: مصير فتي كسول | 39 |
| الفصل الثاني: بعد وفاة الأم | 45 |
| الفصل الثالث: الحب يقترب من قلب الصبي | 51 |
| الفصل الرابع: كتاب الحرية | 59 |
| الفصل الخامس: الرقصة الأولي | 65 |
| الفصل السادس: سر الصندوق | 75 |
| الفصل السابع: الرحلة إلي باريس | 81 |
| الفصل الثامن: شرارة الثورة | 85 |
| الفصل التاسع: ليلة دامية | 91 |
| الفصل العاشر: مع عمدة باريس | 99 |
| الفصل الحادي عشر: مع زعيم العمال | 107 |

| | |
|---|---|
| الفصل الثاني عشر: مع حاكم الباستيل | 115 |
| الفصل الثالث عشر: سقوط الباستيل | 123 |
| الفصل الرابع عشر: لقاء مدام دي ستايل | 139 |
| الفصل الخامس عشر: المباحثات السرية | 149 |
| الفصل السادس عشر: في حضرة صاحب الجلالة | 163 |
| الفصل السابع عشر: استجلاء الحقيقة | 175 |
| الفصل الثامن عشر: طبيب الملك.. وتقرير المصير | 187 |
| الفصل التاسع عشر: اقتناع الملكة بالأمر الواقع | 199 |
| الفصل العشرون: رحلة الملك إلي باريس | 217 |
| الفصل الحادي والعشرون: عودة الملك من باريس | 229 |
| الفصل الثاني والعشرون: هل تنجح الثورة ؟ | 233 |
| الفصل الثالث والعشرون: الملكة تحارب الثورة | 241 |
| الفصل الرابع والعشرون: مجاعة باريس | 247 |
| الفصل الخامس والعشرون: الزحف إلي فرساي | 253 |
| مُعد ومُقدم الرواية | 265 |

# مُعد ومُقدِّم الرواية

## وفيق صفوت مختار

- من مواليد 19 يناير 1958م،مدينة طهطا ـ محافظة سوهاج.
- حاصل علي ليسانس الآداب والتربيَّة، جامعة أسيوط كلية التربيَّة بسوهاج، عام1980م.
- حاصل علي الدبلوم الخاص في التربيَّة وعلم النفس،جامعة أسيوط،كلية التربيَّة بسوهاج، عام1984م.
- كبير الأخصائيين التربويين بوزارة التربيَّة والتعليم بدرجة وكيل وزارة ( سابقاً ).
- محاضر تربوي في تجمعات الشَّباب، وأعضاء هيئات التدريس، وأولياء الأمور.
- عمل مُحرِّراً صحافيًّا بمجلة « هو وهي » ( قبرص )، ومجلـة « دُبي الثقافيَّة » (دولة الإمارات العربيَّة ).

- فاز بجائزة الشيخ « عبد الله المبارك الصباح » للإبداع العلمي علي مستوي الوطن العربي، عن نتاجه المتميّز: «المُخدرات وأثرها المُدمِّر»، عن دار الشاعرة الدكتورة « سعاد الصباح » بدولة الكويت.
- تلقي خطاب شكر وتقدير من السَّيِّدة « سوزان مبارك »، بمناسبة ظهور بعض مؤلفاته التربويَّة. ( رئاسة الجمهورية في 12 مارس 2002م).
- سجل للتلفزيون المصري، علي قناته السَّابعة، العديد من الحلقات التربويَّة والثقافيَّة في عدة برامج، منها: برنامج « الطفل والمجتمع »، وبرنامج « أوراق ملوَّنة ».
- قامت الأديبة والصحافية « سماح عادل » بإجراء حواراً مطولاً مع الكاتب، علي صفحات مجلة كتابات علي شبكة الإنترنت.
- قامت الصحافية « سعدية شعيب »،بتقديم آراء الكاتب تجاه قضايّا الطفولة والأمومة وشؤون الأسرة الواردة في مؤلفاته،ضمن زاويتها المتخصِّصة(المرأة والطفل) بجريدة الأهرام اليوميَّة،في الفترة من عام2003م وحتى عام2007م بعد المُعالجة الصحافية.
- تُرجمت بعض مقالاته إلي اللُّغة الإنجليزيَّة.
- تناولت الصحف والمجلات المصريَّة والعربيَّة مؤلَّفات الكاتب بالنقد، والتحليل، والعرض، والإعلان،من بينها: جريدة المساء الأسبوعية، جريدة الأهرام اليوميَّة، جريدة الجمهورية، جريدة المصري اليوم، مجلة الوعي الإسلامي، المجلة العربيَّة.
- علي شبكة الإنترنت يحظي الكاتب بعشرات المواقع، والصحف الإلكترونيَّة

التي تناولت سيرته الذاتية والعلميَّة، بالإضافة إلي أغلب مقالاته ومؤلَّفاته، منها: ويكيبيديا الموسوعة الحُرَّة، موسوعة الكتب العربيَّة والأجنبيَّة -www.ebooks icloud.com، اتحاد الجامعات العربيَّة www.eulc.edu.eg ، أكاديمية علم النفس، مكتبة الإسكندرية. مجلة فكر الثقافيَّة www.fikr.mag.com ،جريدة البلاغ الالكترونيَّةwww.balagh.com ، موقع كتبيwww . kotobi.com، موقع دراسات الأهرامdigital.ahram.org.eg .

- للكاتب حوالي 111 دراسة ومقالة في المجالات التربويَّة، والسيكولوجيَّة،والعلميَّة، والثقافيَّة المتنوعة، و المنشورة بالمجلات والدوريات المصريَّة والعربيَّة، مثل: مجلة القافلة، مجلة العربي، مجلة الفيصل، مجلة الخفجي، مجلة الوعي الإسلامي، مجلة البحرين الثقافيَّة، مجلة منار الإسلام، المجلة العربيَّة، مجلة الكويت، مجلة الفيصل العلميَّة، مجلة الصلاح، مجلة الدفاع، مجلة الرافد.
- للكاتب (66) دراسة ومقالة التي تتعلَّق بالسير الذاتية ( أدب التراجم )، في مختلف المجالات وعلي رأسها الآداب والفنون التشكيليَّة، والتي نُشرت بالمجلات والدوريات المصريَّة والعربيَّة،منها: مجلة هو وهي، مجلة الكويت، مجلة دُبي الثقافيَّة، مجلة الرافد، مجلة الشارقة الثقافيَّة، المجلة العربيَّة.
- للكاتب (20) حواراً أجراها مع كبار الشعراء والأدباء وقادة الفكر في مصر، والتي نُشرت بالمجلات والدوريات المصريَّة والعربيَّة،منها: مجلة هو وهي، مجلة الكويت،مجلة المنهل، مجلة الحرس الوطني، المجلة العربيَّة، مجلة الشعر
- كتب المؤلِّف في التراجم والسير الذاتية للأطفال، والتي نُشرت علي صفحات مجلة قطر الندي المصرية.

## الكتب التي صدرت للمؤلّف:

1ــ مشكلات الأطفال السلوكيَّة، القاهرة: دار العلم والثقافة،1999 م.

2 ـ أبناؤنا وصحَّتهم النفسيَّة، القاهرة: دار العلم والثقافة،2001م.

3 ـ المدرسة والمجتمع والتوافق النفسي للطفل، القاهرة: دار العلم والثقافة،2003 م.

4 ـ سيكولوجيَّة الأطفال ضعاف العقول، القاهرة: دار العلم والثقافة، 2005م.

5 ـ سيكولوجيَّة الأطفال الموهوبين، القاهرة: دار العلم والثقافة، 2005م.

6 ـ الأسرة وأساليب تربية الطفل، القاهرة: دار العلم والثقافة، 2005م.

7 ـ مشكلة تعاطي المواد النفسيَّة المخدرة، القاهرة: دار العلم والثقافة،2005 م.

8 ـ سيكولوجيَّة الطفولة، القاهرة: دار غريب، 2005م.

9 ــ بستان المعرفة، القاهرة: دار موناليزا، 2007م.

10 ـ كتب ومكتبات الأطفال وتنمية الميول القرائية، القاهرة: دار الطلائع،2009 م.

11ــ فن رعاية الطفل في البيت والمدرسة، القاهرة: دار الطلائع، 2009م.

12ــ سيكولوجيَّة الأطفال ذوي الاحتياجات الخاصَّة، القاهرة: دار غريب، 2010م.

13ــ وسائل الاتصال والإعلام وتشكيل وعي الأطفال والشَّباب، القاهرة: دار غريب، 2010م.

14ــ تأخُّر الكلام عند الأطفال، القاهرة: دار البطوسي، 2010م.

15 ـ النمو الحركي للطفل وأهم الأنشطة الترويحيَّة والمدرسيَّة، القاهرة: دار الطلائع 2011م.

16ـ الصحَّة النفسيَّة وأساليب تنشئة الطفـل...أُسريًّا، وتربويًّا، ومجتمعيًّا، القاهرة: دار الطلائع،2012 م.

17ـ الموسوعة الأدبيَّة الكبرى: أشهر المبدعات في تاريخ العالمي، القاهرة: دار الطلائع، 2013م.

18ـ الطفل الموهوب، طرق اكتشافه،وأساليب رعايته،القاهرة: دار طيبة للنشر والتوزيع والتجهيزات العلميَّة،2017 م.

19ـ إشباع الحاجات الأساسية للأطفال :الجسميَّة، والعقليَّة، والنفسيَّة،القاهرة: دار طيبة للنشر والتوزيع والتجهيزات العلميَّة،2017 م.

20ـ الاكتئاب مرض العصر: كشف أسراره، ومعرفة أسبابه، وإستراتيجيات الوقاية والعلاج، القاهرة: دار طيبة للنشر والتوزيع والتجهيزات العلميَّة،2017 .م.

21ـ كيف تتخلَّص من القلق وتبدأ الحياة من جديد، القاهرة: دار طيبة للنشر والتوزيع والتجهيزات العلميَّة،2017 م.

22ـ أحدب نوتردام رواية للأديب الفرنسي « فيكتور هوجو »، إعداد وتقديم، القاهرة: دار الطلائع،2017م.

23ـ أحدب نوتردام رواية للأديب الفرنسي« فيكتور هوجو »،إعداد وتقديم،الجزائر: دار الهدي، 2017م.

24ـ آنا كارنينا رواية للأديب الروسي« ليو تولستوي »، إعداد وتقديم، القاهرة: دار الطلائع،2017 .

25ـ آنا كارنينا رواية للأديب الروسي« ليو تولستوي » ، إعداد وتقديم، الجزائر: دار الهدي،2017 .

26ـ الآمال العظيمة رواية للأديب الإنجليزي « تشارلز ديكنز »، إعداد وتقديم، القاهرة: دار الطلائع،2017 .

27ـــ الآمال العظيمة رواية للأديب الإنجليزي « تشارلز ديكنز »، إعداد وتقديم، الجزائر: دار الهدي،2017 .

28 ــ ذهب مع الريح رواية للأديبة الأمريكية « مارجريت ميتشل »، إعداد وتقديم، القاهرة: دار الطلائع،2017 .

29ـــ كوخ العم توم رواية للأديبة الأمريكية « هاريت بيتشر ستو »، إعداد وتقديم، القاهرة: دار الطلائع،2017 .

30ـ 1984 رواية للأديب الإنجليزي« جورج أورويل »،إعداد وتقديم،القاهرة: دار الطلائع،2017.

31ـ ابنة الحظ رواية للأديبة التشيلية « إيزابيل الليندي »، إعداد وتقديم، القاهرة: دار الطلائع،2017 .

32ـ محبوبة رواية للأديبة الأمريكية « توني موريسون »، إعداد وتقديم، القاهرة : دار الطلائع،2018 .

33 ــ نساء صغيرات رواية للأديبة الأمريكية « لويزا ماي ألكوت »، إعداد وتقديم، القاهرة: دار الطلائع،2017 .

34ـ مدام بوفاري رواية للأديب الفرنسي« جوستاف فلوبير »،إعداد وتقديم، القاهرة: دار الطلائع،2018 .

35ـ مشكلات الأطفال: مظاهرها،أسبابها،طرق الوقاية والعلاج،القاهرة:دار طيبة للنشر والتوزيع والتجهيزات العلميَّة،2018 م.

36ـ تربية الأبناء في عصر الإنترنت، القاهرة: دار طيبة للنشر والتوزيع والتجهيزات العلميَّة،2018 م

26ـــ كيف تقوي ذاكرتك وتتغلَّب علي النسيان، القاهرة: دار طيبة للنشر والتوزيع والتجهيزات العلميَّة، 2018م.

37ـــ قمم أدبية: شعراء وأدباء في رحلتهم نحو المجد،جمهورية بلغاريا ـ بلوفديف:دار الدراويش للنشر والترجمة،2019م.

38ـــ أطفالنا وأحدث أساليب التربية، القاهرة: دار أطلس للنشر والإنتاج الإعلامي، 2019م.

39ـــ اضطرابات الأطفال النفسيَّة والعقليَّة والسلوكيَّة، القاهرة: دار أطلس للنشر والإنتاج الإعلامي،2019م.

40ـــ كيف ننمي ذكاء أطفالنا ؟، القاهرة: دار أطلس للنشر والإنتاج الإعلامي،2019م.

41ـ عادات الفم السيئة عند الأطفال ( مصّ الأصابع وقرض الأظافر )،القاهرة: دار أطلس للنشر والإنتاج الإعلامي، 2019م.

42ـــ أطفال التوحُّد الأوتيزم، القاهرة: دار أطلس للنشر والإنتاج الإعلامي،2019م.

34ـــ الأطفال والشَّباب وإدمان الإنترنت، القاهرة: دار أطلس للنشر والإنتاج الإعلامي،2019 م.

44ـــ لا تدع القلق يُسيطر علي حياتك، القاهرة: دار أطلس للنشر والإنتاج الإعلامي، 2019م.

45ـــ اكتشاف ورعاية أطفالنا الموهوبين، القاهرة: دار أطلس للنشر والإنتاج الإعلامي، 2019م.

46ـــ كيف تتمتَّع بذاكرة حديدية ؟، القاهرة:دار أطلس للنشر والإنتاج الإعلامي،2019 م.

48ـــ كيف نشبع حاجات أطفالنا ؟،القاهرة:دار أطلس للنشر والإنتاج الإعلامي، 2019م.

49ـــ وداعاً للاكتئاب والضغوط النفسيَّة، القاهرة: دار أطلس للنشر والإنتاج الإعلامي، 2019م.

50ـــ خيري شلبي.. الكاتب والإنسان، دار أطلس للنشر والإنتاج الإعلامي،2019م. (بالاشتراك مع الأديبة ريم خيري شلبي).

51ـــــ ألوان وظلال.. روَّاد الفنّ التشكيلي في مصر والعالم، القاهرة: دار أفاتار للطباعة والنشر،2019م.

## للتواصل مع المؤلِّف:


- هاتف منـــزل: 093/4774608
- هاتف محمول:01063549339

E-mail:Wafeek.safwat2016@gmail.com